

سلسلة مصريات ٨
تاريخ - فن - حضارة

روبير سوليه

علماء بونابرت في مصر

ترجمة
فاطمة عبد الله محمود

مراجعة وتقديم
د. محمود ماهر طه

تصدير
أنيس منصور



علماء بونابرت في مصر

مصريات

تاريخ - فن - حضارة



روبير سوليه

علماء بونابرت في مصر

ترجمة

فاطمة عبد الله محمود

مراجعة وتقديم

د. محمود ماهر طه

تصدير

أنيس منصور



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٠

- الكتاب: علماء بونابرت فى مصر

Les Savants de Bonaparte

- الكاتب: روبير سوليه

Robert Solé

- الكتاب الأصلى صادر باللغة الفرنسية ويصدر باللغة العربية بإذن خاص

- الطبعة الأولى باللغة العربية ٢٠١٠
- الغلاف: تصميم جرافيك: د. مدحت متولى
- اللوحة إلى اليمين: سشات إلهة الكتابة ودور الوثائق عند قدماء المصريين.
- طبع فى مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

كورنيش النيل، رملة بولاق، القاهرة. ت:٢٥٧٧٥٠٠٠/٢٥٧٧٥٢٢٨

فاكس: ٢٥٧٥٤٢١٣ (٠٠٢٠٢) ص.ب:٢٣٥ ـ الرقم البريدى: ١١٧٩٤ رمسيس

WWW.gebo.gov.eg

Email: info@gebo.gov.eg



- سوليه، روبير.

علماء بونابرت فى مصر/ روبير سوليه؛ ترجمة: فاطمة عبد الله محمود؛

مراجعة وتقديم: محمود ماهر طه؛ تصدير: أنيس منصور

القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.

٢٩٦ ص؛ ٢٤ سم. ـ (سلسلة مصريات)

تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٢١ ٦٣٤ ٠

١ـ مصر ـ تاريخ ـ الحملة الفرنسية (١٧٩٨ـ ١٨٠١)

(أ) محمود، فاطمة عبد الله (مترجم)

(ب) طه، محمود ماهر (مراجع ومقدم)

(ج) منصور، أنيس (تصدير)

(د) العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٤٩٤/ ٢٠١٠

I.S.B.N 978-977-421-634-0

ديوى ٩٦٢,٠٢

الفهرس

الملاحق (٢٣٩)

تصديـــــر

الفرنسيون لا يزهقون من الكتابة عن مصر الفرعونية ولا عن نابليون. ففى كل عام كتب جديـــدة. ولا بـــد أن أى مثقـــف مصرى قد قرأ كتابًا أو اثنين عن الحملة الفرنسية على مـــصر. أنا قرأت خمسة كتب وقلبت فى عشرين.

كان نابليون عمره ٢٨ عامًا عندما غزا مصر سنة ١٧٩٨ ووراءه أكبر قوة محمولة بحرًا فى التاريخ: ٣٣٥ سفينة وعليها ١٣٣ من كبار العلماء فى كل العلوم والفنون. وهى أول مـــرة تغزو دولة أوروبية الشرق الأوسط. وقد جاء علمـــاء نـــابليون ومن آمالهم تعليم المصريين ونقلهم إلى العصر الحديث. فكانت المفاجأة أنهم اكتشفوا حضارة عريقة لا يعرفونها ثم إنهم اكتشفوا "حجر رشيد"، الذى فك طلاسم اللغة الهيروغليفية بفضل العـــالم الشاب العبقرى "شامبليون".

وكان نابليون يُخطط لا إلى الاستيلاء على مـــصر فقـــط، وإنما يمشى فى خُطَى مَثَله الأعلـــى "الإســـكندر الأكبـــر"، وأن يركب نابليون فيلاً ويضع على رأسه عمامة.

ولكن جاء الأسطول الإنجليزى، وأحرق أسطول نـــابليون وأحلامه العظمى. وهذه الهزيمة وانسحابه من موســكو تاركًـــا الجيش وراءه، وهزيمته فى "ووترلو" لـــم تـــستطع أن تطفــئ عبقريته وقراراته الخطيرة: فهو الذى توَّج نفـسه إمبراطـــورًا، وهو الذى أصدر قانون نابليون، وانتصاراته العسكرية الباهرة.. وما أحدثه من أثر عميق فى مصر ودفعها إلى مواكب التنـــوير التاريخية.

الغريب أن نابليون كنز يتجدد كل عام .. عجبى!

أنيس منصور

مقدمة المراجع

تختلف آراء العلماء المؤرخين والباحثين في نظرتهم وحكمهم على الحملة الفرنسية بقيادة نابليون على مصر، من حيث أهدافها، وأغراضها، ونتائجها. فهناك فريق منهم يرى أنها كانت فاتحة خير وبداية نهضة علمية وحضارية، وما قامت به من أعمال إدارية وإنشائية وثقافية كانت لصالح مصر والمصريين. وأنها كانت من العوامل التى أدت إلى نهضة مصر الحديثة على يد محمد على باشا فى أوائل القرن التاسع عشر.

وفى المقابل، هناك فريق آخر يؤكد أنها كانت مجرد حملة عسكرية بحتة تهدف إلى احتلال مصر لتقطع الطريق على إنجلترا خاصة فى طريقها إلى الهند. ويرى هذا الفريق أيضًا أن نتائج الحملة العلمية إنما كانت منذ البداية فى صالح الفرنسيين؛ لاعتقادهم بأن ذلك سوف يخدم أغراضهم عندما تصبح مصر مستعمرة فرنسية. أما ما يقال عن أن الحملة كانت بداية علمية رائعة لقيام علم المصريات فى العالم بفضل اكتشاف حجر رشيد الذى ترتب عليه فك رموز الكتابة الهيروغليفية، فإن ذلك يُعد صدفة بحتة. وتقول وجهة النظر المضادة هذه إن هذا الاهتمام

المبكر بالآثار المصرية أدى إلى هجمة شرسة منذ بداية القرن التاسع عشر من بعثات أوروبية مختلفة قامت بنهب آثار وادى النيل.

وهناك فريق ثالث معتدل يؤكد أن الحملة قد فشلت عسكريًا وأنها كانت بالطبع ذات أغراض تهدف إلى خدمة فرنسا فى المقام الأول، ولكن ذلك لا يمنع من أن هناك جانبًا إيجابيًا من تغييرات حضارية وعلمية نتجت عنها، ومن أهمها تسجيل الحياة المصرية فى ذلك الوقت، فى كتاب "وصف مصر".

وفى حقيقة الأمر، فإنه يُحسب للحملة قدوم مجموعة من العلماء المرموقين فى صحبة الفرق العسكرية المقاتلة، للقيام بالبحث والدراسة والتسجيل ـ كما ذكرت من قبل ـ بحيث أصبحت الحياة المصرية كتابًا مفتوحًا أمام العالم فى ذلك الوقت. وأود أن أشير هنا بهذه المناسبة بأن فكرة إرسال حملات علمية لتسجيل مظاهر بلاد أجنبية قام الفراعنة بتنفيذها منذ أقدم العصور، ولعل من أشهرها ما قامت به الملكة حتشبسوت ـ من الأسرة الثامنة عشرة بالدولة الحديثة ـ من إرسال حملة سلمية إلى بلاد بونت (إريتريا حاليًا) لتبادل البضائع والهدايا مع حاكمها وشعبها، وفى نفس الوقت أرسلت مجموعة من العلماء والفنانين لتسجيل معالم هذه المنطقة الأفريقية النائية، وقامت بنقش كل ما سجله العلماء من مظاهر طبيعية وبيئية من حيوانات وأسماك البحر الأحمر وأشجار ومنتجات زراعية وصناعية ومساكن أفريقية خاصة بطبيعة تلك المنطقة؛ بالإضافة إلى أشكال أهلها وملابسهم على جدران معبد الدير البحرى بغرب الأقصر.

كذلك قام الملك تحتمس الثالث أعظم ملوك مصر المحاربين على الإطلاق، بتنفيذ تلك الفكرة وذلك باصطحاب بعثة من العلماء والفنانين إلى الشام لتسجيل معالمها خاصة النباتية والبيئية على جدران مقاصيره التى أنشأها فى الكرنك بالأقصر. وبهذه المناسبة يقوم بعض علماء المصريات الأجانب بإطلاق لقب "نابليون مصر" على تحتمس الثالث. وهذا ما يرفضه كثير من العلماء المصريين لأن ذلك فيه غبن لهذا الملك، الذى لم يُهزم طوال حياته وأنشأ أكبر إمبراطورية فى العصور القديمة، فى حين أن نابليون انتهت حياته بالهزيمة.

ولقد صدرت كتب عديدة عن الحملة الفرنسية، وخاصة عن بعثتها العلمية بلغات مختلفة، كثير منها يتحدث بموضوعية وبمنهج أكاديمى وأمانة ودقة فى عرضه. ولعل من أشهرها ما كتبته الأستاذة الدكتورة ليلى عنان ـ من أكبر العلماء المتخصصين فى ذلك المجال. وخاصة كتابها "الحملة الفرنسية" بجزءيه. وهى تستعرض فى الجزء الأول من كتابها ما ورد فى كتاب المؤلف الفرنسى الشهير جورج ليجران (الجزء الثانى) عن بعثة علماء نابليون. فتذكر الأستاذة الدكتورة ليلى عنان مما كتبه "بأن الحقيقة المهمة التى سافر من أجلها العلماء إلى مصر مع جيش الحملة (استعمار مصر) لصالح فرنسا". وتضيف أيضًا "لم يمنع هذا المشروع الاستعمارى الخالص بونابرت من طلب "الشاعر دوليل والموسيقى ميهول والمغنى لاييسى، الذى كان سيقوم بدور شاعر الملاحم الذى يتغنى بانتصار الجيش وهو على رأسه مثل (الشاعر الشهير) أوسيان. وعلاوة على لجنة العلماء، كان نابليون يريد ممثلين وراقصين وخاصة راقصات...". ولكن الجميع اعتذر عن السفر فى اللحظات

الأخيرة. والهدف من لجنة العلماء واضح، لأن "بونابرت سينشئ مستعمرة مثالية، تكون جديرة به وبفلاسفته وأصدقائه". ويقول ليجران بعد ذلك: "لكن الجيش، ضباطًا وجنودًا، لا يحبون هؤلاء المدنيين (يقصد العلماء) ويتصرفون معهم بغلظة واستعلاء. وكان الجند يكرهونهم ويضطهدونهم، لأنهم — على حد قولهم — هم الذين وضعوهم فى مأزق هذه الحملة". وتسرد الدكتورة ليلى عنان بعد ذلك ما ذكره ليجران "أن كليبر قرر أن يتبنى مشروع نشر ذلك العمل، وهو كتاب (وصف مصر) حتى يخفى به هزيمة الحملة وفشل أهدافها كلها، وأصبح هذا الكتاب هو الإنجاز الملموس الوحيد الذى تفخر به فرنسا بعد فشل الحملة. وتقول أيضًا: "ومن خلال التفاصيل التى يرويها "ليجران"، نعرف أن الضابط المهندس "بوشار" كان يقيم تحصينات طابية (قلعة) سان جوليان عندما اصطدم بحجر رشيد، بالمصادفة البحتة".

هذه لمحات مما ذكرته الدكتور ليلى عنان فى كتابها "الحملة الفرنسية".

أما هذا الكتاب التى بين أيدينا ترجمته الآن، فهو من الكتب الموضوعية الذى قام بتأليفه كاتب مشهور فى كل من فرنسا ومصر وهو "روبير سوليه" الذى تولى مناصب صحفية مرموقة، وله كتب عديدة عن مصر. ومن المعروف أنه قد ولد وتربى فى مصر حتى سن الشباب. وكتابه هذا يؤرخ لعلماء الحملة الفرنسية، ويعطينا صورة واضحة عن عمل وتخصص كل واحد منهم. وهو مثل كتبه الأخرى يحاول الربط بين مصر وفرنسا والتحدث عن الروابط الثقافية والحضارية بينهما. أما المترجمة القديرة التى قامت بترجمة هذا الكتاب السيدة

فاطمة عبد الله فهى عاشقة للحضارة المصرية، فقد قامت بترجمة ما يزيد على ثلاثين كتابًا ومجلدًا فى ذلك الموضوع بدقة وأمانة متناهية تستحق كل التقدير. ويسعدنى ويشرفنى أننى قمت بمراجعة كل ما ترجمته.

وعلى الله قصد السبيل،،،

المراجع

دكتور محمود ماهر طه

(١)

موسوعة .. على سفــر

صيحات وهتافات!!.. وسرعان ما انتشر الخبر فـــى أنحـــاء المدينـــة وكأنـــه سحابـــة بارود: بونابرت!!.. وبـــدا الجميع وكأنهم لا يصدقون.. فى مدينة "طولون" هذه التى تراءت فى هيئة فـــوران شعبى؛ والذى كان قد تحول، منذ بضعة أسابيع إلى حشد عـــسكرى هائل.. إن أكثر الجنرالات تمجيدًا وتعظيمًا فى نطاق "الجمهورية".. قد وصل منفردًا فوق صهوة أحد جياد المواقع العـــسكرية؛ متقـــدمًا العربة البرلينية؛ التى جلست بداخلها زوجته "جوزفين"، وســـكرتيرته "بوريين"، واثنان من مساعدى المعسكر. وهـــا هـــو مرتـــديًا بدلـــة "ردنجوت"، كممثل أى قروى سوقى.. بدون شك لكى يسافر مـــستترًا. ويقول للحراس: "افتحوا الطريق.. إننى الجنرال بونابرت".

وحالما استقر هذا المنتصر فى ريفولى؛ بفندق "لامارين"، أسرع إلى ارتداء بذلته الرسمية الفخمة، واستهل ممارسة الأمور. وفى يوم ٩ مايو سنة ١٧٩٨ هذا، لا شك أن الشوارع سوف تُضاء بالأنوار.. تكريمًا له. وبدأ اليوم التالى، فإنه سوف يقـــوم باســـتعراض الفـــرَق

العسكرية. وهذا ما قاله حينئذ: "إننى أعِدُ كل جندى، بأنه، عند رجوعه من هذه الحملة، سوف يكون فى حوزته ما ييسر له شراء ستة فدادين من الأراضى".

ولكن، أية حملة؟!.. لا أحد يعلم!!. فلم يكن الجميع يعرفون الهدف الذى تتوجه نحوه السفن فائقة العدد الراسية فى المرسى، أو التى قُلست عند الأرصفة: حيث كانت تمونها، منذ الصباح الباكر وحتى المساء تلك العربات الثقيلة الضخمة.. التى تدوى تحت عجلاتها ممرات الميناء المرصوفة!.. ومع ذلك، فهناك بعض الجنرالات الذين كانوا يعلمون بالسر. بل وكذلك عدد من المدنيين: ضمنهم عالم الرياضيات "جاسبار مونج"، والكيميائى "كلود لويس برتوليه". ويتبين أن هذين الاثنين خاصة، قد ذُكرا على رأس قائمة المسجلين للاشتراك فى الرحلة إلى مصر.

نعم، إلى مصر: فإن "حكومة المديرين"، فى نهاية الأمر، وأمام ضغوط كل من "تاليراند" وبونابرت نفسه، قد اضطرت للموافقة على الاستيلاء على أرض الفراعنة!!.. وربما أن ذلك، سوف يكون بمثابة وسيلة ما لمحاربة إنجلترا. بل وبالتبعية أيضًا شغل أوقات جنرال مزعج مقلق إلى حد ما.. وذلك بإبعاده (عن فرنسا!).

مصر، وقتئذ، لم تعد تتمتع بازدهارها وتألقها الماضى. فإنها، قد استُعمرت، على التوالى، منذ حوالى عشرين قرنًا، من جانب: الفرس والإغريق، والرومان، والعرب والأتراك. وغدت مجرد مقاطعة عثمانية، منطوية على نفسها، وتخضع لحكم المماليك الأعداء. وعلى ما يبدو، أن هؤلاء العبيد السابقين، الذين وفدوا غالبًا من القوقاز.. لم يرضخوا للخضوع لهيمنة إسطنبول. بل إنهم لا يدفعون أية ضرائب سنوية للسلطان: حيث حاول هذا الأخير أن يستعيد السلطة بقوة السلاح، قبل ذلك بعدة سنوات.. باسم الإسلام!.. ولكنه لم ينجح فى ذلك.

فى باريس، كانت كافة التقارير تؤكد هذا الأمر. بـل ويثبتـه جميع الرحالة: إن مصر سهلة المنال والغزو.. فإن لم تستول عليهـا فرنسا، فهناك الآخرون الذين سيفعلون ذلك. بدايـة مـن إنجلتـرا، عدوتها اللدود!.. فإن الأمر يتعلق هنا بموقع استراتيجى رئيسى على طريق الهند القديم. كما أن أى إنزال (فرنسى) فى بريطانيا العظمـى سوف يكون انتحاريًا. فهذا بالفعل ما قام بونابرت لتوّه بالتحقق منه، من خلال جولة تَقصٍّ واستكشاف على سواحل منطقة "بادى جاليـه". إذًا، ففى قلب مصر.. سوف يتم الصراع والقتـال ضـد "ألبيـون" المخادعة الخبيثة!

قطعًا، إن مصر، منذ أمد بعيد كانت تسحر ألباب الفرنـسيين. فبالإضافة إلى الآثار والغموض والإبهام المتعلقة بحضارتها القديمة.. هنـاك أيضًا الأعراف والتقاليـد المبهرة الخاصـة بـ "المـشرق الإسلامى". وهناك إذًا: المومياء، والحريم. إن مصر تُعـد فريـسة مغرية للغاية!!.. ولحوالى مائة مرة نوقشت فكرة غزوهـا. ولمائـة مرة.. رُفض هذا الاقتراح!

أما عن بونابرت، فهو، من ناحيته، كان يحلم بالمـشرق منـذ طفولته الغضة. وكان يفكر مليًا، بأن المرء يستطيع، فى مـصر أن يُنجز أعمالاً كبرى. ونجد، أنه، عندما ناهز الحادية والعشرين مـن عمره قد كتب قصة شرقية قصيرة: "قناع النبى". ربما أنها لا تتميـز بقيمة أدبية تُذكَر. ولكنها، مع ذلك تزخر بالمعانى الكثيـرة: حيـث تسرد واقعة ثورة شعبية.. ضد الخليفة.

فيما بعد، تحادث كثيرًا مـع "فولنـاى"، الرحّالـة المستـشرق الشهير.. الذى يُحبذ فكرة غزو مصر. إذًا، فها هـو هـذا الجنـرال الشاب، وقد أثبت قيمته وكفاءته فى حومة القتـال، وقـدم إيطاليـا لـ"الجمهورية".. فإنه، بالتالى، يستطيع الآن عبور البحر.. ويقتفـى أثر الإسكندر الأكبر. ومع ذلك، فلن يكون ذلك مجرد حملة عسكرية

عادية تافهة. فلا شك أن وجود العلماء والفنانين، بجوار جيوش الحملة.. سوف يُضفى على مشروعه هذا الوضع الذى يستحقه..

ومع ذلك، كان الأمر يتطلب أيضًا توافر بعض الأسباب والدواعى الرسمية.. لتبرير غزو أرض الفراعنة!!.. ولذا، فها هو "تاليراند" الماكر الحصيف، يقترح مبررين اثنين لهؤلاء السادة المُكوّنين لـ "حكومة المديرين الفرنسية".. الذين، على ما يبدو، لا يتمتعون بميزة التخيل!

والمبرر الأول، وهو الأكثر بساطة، ويُعد بمثابة مسألة شرف واعتبار: فإن الجمهورية (فرنسا)، لا يمكن أن تتصنع الصمم أمام نداءات الاستغاثة، التى أطلقها لمرات عديدة، عشرات من المُفوَّضين الفرنسيين القائمين فى أرض وادى النيل، الذين يعانون من الإزعاج والتكدر.. بل والاضطهاد من جانب المماليك؟!

وعن المبرر الثانى، فهو أكثر تعقيدًا: فإنه، يتحتم على جمهورية فرنسا، التى تجسد حقوق الإنسان.. أن تحرر الشعب المصرى من سلطة طاغية.. متجبرة. ولأن السلطان، لا يستطيع إخضاع تابعه.. فسوف (تقوم فرنسا) بذلك بدلاً عنه.. بل وباسمه. بشرط أن يقوم أحد بتوضيح ذلك له بعد وقوعه: فيبدو، أن "تاليراند" نفسه قد يستطيع التكفل بهذه المهمة الدقيقة. ومع ذلك، فإن وزير الخارجية لن يذهب أبدًا إلى القسطنطينية.

ومن ثَم، فإنه بالإضافة إلى تحررها السياسى، سوف تحظى مصر بتطورها الثقافى: فسوف تُجلب الحضارة إلى شعب نصف متحضر. أو بالمزيد من التوضيح: سوف يتم "إحضار" العلوم والفنون إلى موطنها الأصلى: فإن المثقفين، فى أواخر القرن الثامن عشر هذا، كانوا على يقين.. بأن الحضارة قد وُلدت على ضفاف النيل؛ قبل أن تُنقل إلى: الإغريق، والرومان، والعرب، بل إلى أوروبا الحديثة!.. ولم تكن "الثورة الفرنسية" تعتبر الملوك الفراعنة

طغاة مستبدين.. بل كانت تريد أن تراهم الرواد الأوائل للمعرفة والعلوم. وبمناسبة كل من أعيادها، كانت تشيد فى باريس عدة أهرام أو مسلات. بل لقد أقامت، بمناسبة ١٠ أغسطس سنة ١٧٩٣، بميدان "الباستيل": نافورة من الجَصّ مطلية باللون البرونزى؛ تمثل "إيزيس"، تضع على رأسها "النمس" الفرعونى؛ وتعصر من ثدييها الخصبين، المشروب الروحى النقى الشافى المتعلق بالبعث والإحياء. لا شك إذًا، أن فرنسا العَلْمانية بعد أن نبذت المسيحية وأبعدتها، تتوق بكل قوة إلى رموز دينية.. بديلة!!

ولا ريب أن المشروع "الهادف إلى المدنية" المزمع تنفيذه، سوف يسمح أيضًا باستكشاف مصر، وتعريفها للعالم. فها نحن فى حقبة الحملات البعيدة الأمد، حيث يتسلح كل رحَّالة بمجموعة أسئلة.. ويطالب بأن يكون أداة للمعرفة العلمية. وفى بعض الأحيان، قد يجتمع معًا العديد من العلماء، لكى يستهلوا جميعًا استكشاف عدة سواحل مجهولة. ولكن، ها هو بونابرت يُزمع إجراء استحداث جذرىّ: فهو يريد أن يؤسس بالبلد الذى تم غزوه، "الجنة" كبرى للعلوم والفنون.. وسيكون كل من "مونج"، و"برتوليه".. هذان الزميلان اللذان لا يفترقان أبدًا.. بمثابة النواة الرئيسية.

متوسط العمر: ٢٥ سنة

إن تضافر وتحالف العلم والسلطة يُعد بمثابة روح العصر. وإذا كانت "الجمعية التأسيسية"، قد عملت فى عام ١٧٩٣، فى لحظة ضلال وشرود على إزالة الأكاديميات والهيئات الثقافية معتبرة أنها لا تعدو أن تكون سوى بقية مقيتة من بقايا التميز.. فإن الثوار قد اضطُروا إلى استدعاء المخترعين والفنيين التقنيين، من أجل أن يعملوا على استتباب الدفاع القومى والمشاريع الكبرى. وهكذا، فإن "مونج"، بعد أن تولى منصب وزير البحرية، قد عمل على إعادة

تكوين الترسانات، والاهتمام بتصنيع المدافع قبل أن يبدأ فى تأسـيس المدرسة البوليتكنيك (متعددة الفنون)، بمصاحبة "برتوليه" وآخـرين. فقد كانت الضرورة تُحتم، العمل فى الحين ذاته، على إعداد مهندسين عسكريين ومهندسين مدنيين: والعمل سريعًا على تأهيل أكبـر عـدد ممكن منهم.

ولقد أُسس "المعهد القومى" فى عام ١٧٩٥ واستوعب فى نطاقه أكبر الأسماء وأعظمها على المستوى العلمى: فبعد أكاديميِّى "النظام القديم"، جاء المواطنون ــ العلماء، لخدمة "الدولـة" ولتحقيق التقدم. ولم تتناول دراساتهم مجرد الموضوعات النظرية. بل عالجت أيضًا: المناطيد، والرسائل البرقية، وواقيات الصواعق..

وعلى ما يبدو، أن بونابرت كان يزهو ويفتخـر إلـى درجـة قصوى بانتخابه ضمن قسم الميكانيكا فى ٢٥ ديسمبر عـام ١٧٩٧، عند حصار "جارنو" ؛ ثم أُبعد لأسباب سياسية. وخلال إحدى المآدب الكبرى، يبدو أنه، قد أثار جدًا اهتمام "لابلاس" لمعلوماتـه العلميـة الوفيرة. وها هو يقول فيما بعد: "إننى إذ لم أكن قد حـصلت علـى رتبة القائد الأعلى، فإننى كنت سألقى بنفسى فى مجال العلوم الفعلية. فربما كنت أترسَّم طريق أمثال "جاليليو"، و"نيوتن".. ربما!

لقد اعتادت جيوش "الجمهورية" على الاستعانة بعدد من العلماء والفنانين، لكى يعملوا، فى البلاد التى يتم غزوها، للحصول على كَمٍّ من القطع الفنية من أجل المتاحف الفرنسية. ويتبين أن مثـل هـذه الغزوات (سلب ونهب)، قد تمت ممارستها فى ألمانيا، والأراضـى المنخفضة (هولندا)؛ بل وعلى مستوى هائل فى إيطاليا.. حيث قابـل بونابرت كُلاً من "مونج" و"برتوليه". ولقد انبهر العالمان بهذا الجنرال الشاب؛ فكفلا التحاقه بالمعهد. أما عنه، فإنه أسرَّ لهما بإزماعه القيام بالمشروع المصرى!

إن "برتوليه" قد ناهز الخمسين من عمره. وكان قد اشتهر مـن قبل، بإنجازاته فى مجال علم الأصباغ، والكلور وملح القِلْى. وفـى مجال المعامل، فإن محلول الحَمْض المُتَأَلْـسِج المـستعمل لتبيـيض الأقمشة، قد سُمى، عادة بـ "مـاء برتوليـه"؛ أمـا العمـال، فهـم "البرتوليون". وعن "مونج"، فهو لم يُنحَّ جانبًا: إنه أحد رواد الهندسـة الوصفية. وكان، وهو فى الثانية والخمسين من عمره يُعد من أكبـر علماء الرياضيات فى عصره. ولا شك أن "لجنة العلوم والفنون"، من خلال هذين الرائدين.. لم تكن تفتقر إلى الزهو والفخر. ولقـد عُـين لإدارتها جنرال نابغة، يُدعى "ماكسيمليان دى كافاريللى دى فالجـا"، العضو المشارك بالمعهد. إنه فيلسوف بالملابس الرسـمية.. ينـادى بتطبيق الأفكار والآراء الاجتماعية.

فى ٢٦ فانتوز، بالعام الـسادس (١٦ مـارس عـام ١٧٩٨)، أصدرت حكومة المديرين أوامرها لوزير الداخلية: "بأن يوضع تحت تصرف الجنرال بونابرت المهندسون والفنانون وبقيـة المرؤوسـين بوزارته. بالإضافة إلى مختلف المعدات واللوازم الـضرورية لهـذا القطاع العلمى بالحملة". وعلى الفور، تم استدعاء "جوزيف فوريـه"، البروفيسور بالمدرسة متعددة الفنون: فلم تُترك لـه الفرصـة حتـى لمجرد التفكير. فلا شك أن هذا الرجل ذو قيمة نادرة، وبالتالى، يجب أن يكون ضمن أفراد الرحلة. كما أن أوجه نشاطه السياسية خـلال عهد الإرهاب، سرعان ما توارت بوساطة بعض إنجازات رياضـية مبهرة!!.. وبدوره، أصبح "فوريه" مُجندًا.. وهنـا، سـاد الحمـاس والحمية. ففى خلال بضعة أسابيع، تراءى أن "المدرسة" كلهـا قـد استعدت للرحيل. وفى نهاية الأمر، بقى فقط سـبعة مـن الطلبـة، وخمسة أساتذة (بروفيسور)، وثلاثة وثلاثون من الطلبة القدماء.

وها هى شخصية مهمة أخرى: إنه "نيقولا جاك كونتيـه" إنـه رسام، كيميائى، وإخصائى ميكانيكا. بل إنه، بكل تأكيد مخترع نابغة،

حيث قام، وهو فى العام التاسع من عمره بصناعة آلة الكمان الموسيقية.. بوساطة سكين عادية! كما اخترع ماكينة هيدروليكية، ونوعًا جديدًا من مقياس الضغط الجوى؛ وكذلك، خاصة القلم ذا الرصاص الصناعى: الذى سمح بالاستعاضة عن الهباء الرصاصى الإنجليزى. وعُزيت إليه فكرة الاستعانة بأجهزة طائرة خلال العمليات العسكرية. كما أنه يهيمن على فرقة قائدى المناطيد القائمة فى "مودون". وكان، من قبل، قد ساهم فى تأسيس "كونسرفتوار الفنون والمهن". إنه يناهز الثامنة والثلاثين من عمره. وهو نورماندى الأصل (من منطقة نورماند بفرنسا). وفقد إحدى عينيه خلال إجرائه إحدى التجارب الخطرة المتعلقة ببعض الغازات. ولكن، لم يمنعه ذلك أبدًا، على حد قول "مونج"، من "أن يستوعب كافة العلوم فى عقله؛ وجميع الفنون فى يده"!!

ولقد تقرر أيضًا أن يكون الجيولوجى الشهير "ديودا دى دولوميو" ضمن الرحلة. فلقد وعده "برتوليه" قائلاً: "إن المكان الذى سوف نتوجه إليه.. يتضمن الكثير من الجبال والأحجار". وربما أنه قد همس فى أذنه.. باسم: مصر. وقد جعله يقسم بألا يردد ذلك لأحد مطلقًا. وهناك، سوف يتمكن، فى الموقع ذاته من تفحُّص نظريته الخاصة بنوعية تكوين دلتا النيل. وكذلك، ها هو الكيميائى "جاك بيير شامبى" خليفة "لافوازييه" بإدارة البارود وملح البارود، يغادر منصبه.. لكى ينضم إلى الصفوف المسافرة.

ومع ذلك، فإن كُلاً من "كوفيه" و "لابلاس" لانهماكهما فى أعمالهما.. فقد رفضا فكرة السفر، بالرغم من إلحاح بونابرت. عمومًا، استُعيض عنهما، بتجنيد "إتيان جيوفرى سان هيلير" وهو صديق حميم لـ"كوفيه" وقد شغل، وهو ما زال فى السادسة والعشرين من عمره منصبًا رئاسيًا بقسم الحيوانات فى متحف التاريخ الطبيعى. وإلى هذا الحشد، سُجل أيضًا اثنان من علماء النباتات، هما:

"هيبوليت نكتو"، و"يوليوس قيصر دى سافينى"؛ وكذلك الأمر بالنسبة لـ "هنرى جوزيف ريدوتيه": رسام للزهور بالمتحف. أما عن "مرصد" باريس، فقد تعذّر أن يمثله الفلكيان: "نوى" و"كينو".

قطعًا، لقد تدافع وتزاحم الكثير من الشباب نحو هذا المنفذ الصغير. وبدا الأمر وكأنه "جنون متأجج شبيه بذاك الذى كان قد اجتاح أسلافنا.. فى زمن الحروب الصليبية"! ومع ذلك، فإن المزايا المادية التى وُعد بها العلماء ــ راتب مزدوج، وضمان الرجوع إلى مناصبهم عند العودة ــ لم تكن تبرر كل هذا الحماس والشغف!! فها هو، على سبيل المثال "بروسبير جولوا"، المهندس، الذى يناهز الثانية والعشرين من عمره، يُصرح قائلاً؛ من خلال رسالة بعثها إلى أبيه: بأنه لا يعرف هدف، أو مدة، أو مرمى هذه الحملة. وبل ويضيف قائلاً: "علىّ الآن أن أذكر لك الأسباب التى جعلتنى أعزم على مثل هذا العمل الجنونى.. إذا كان فعلاً كذلك. بداية، كان الأمر يرتبط برغبة فى الترحال كنت أُمنّى نفسى بها منذ أمد بعيد. وقطعًا، لم أتمكن، فى أى حال من الأحوال، أن أحققها.. بمثل هذه الفائدة. وكذلك هناك الرغبة المتأججة فى الحصول على العلم، والتجربة. وأخيرًا: اليقين الشخصى الذى يجيش فى نفسى بأن هذا السفر سوف يعود علىّ بالفائدة". وها هما هذان الزميلان: "لانكريه"، و"ديبوا إيمى"، يعلقان، فيما بعد قائلين: "كنا نجهل إلى أين سيقود بونابرت خطواتنا. ولكن، ماذا يهمنا؟!.. فإن هذا المقاتل الذائع الصيت كان يوحى وقتئذ بحماس نبيل.. وثقة عمياء. وكان كل من "مونج"، و"برتوليه"، و"كافاريللى"، و"دولوميو" يرافقونه، ويودون حقًا مشاركتنا فى أعمالهم.. فهل عسانا كنا نستطيع التردد للحظة واحدة ؟!".

ولكن، على ما يبدو أن الفنانين يبدون أكثر تعقيدًا. فنرى أن الرسام "ديفيد" لا يريد مغادرة باريس. والمؤلف المصنف "ميهول" لا يحب المغامرة. والشاعر "دوسيس" يشعر بأنه طاعن فى السن. أما

"ليجوفيه" مؤلف العقبات والسمع، فإن ارتباطه وثيق جـدًا بعائلتـه. وعن المُغنى "لايز" الشهير بصوته البـاريتونى (مـا بـين الـرخيم والقوى) بالأوبرا.. فهو يخشى نزلات الزكام.. وهكذا جُند بديل لـه: "فيلوتو".

وهناك أيضًا العديد من طالبى السفر قد تقدموا تلقائيًا. فهنـاك: "أرنولت"، مؤلف إحدى التراجيديات التى لاقت نجاحًا؛ و"ماريوس"، استطاع أن يلقى قبولاً. ومع ذلك، فإن "تالليـان"، أحـد الأعـضاء القدامى بنادى اليعقوبيين، لم يُقبل بسهولة. وكذلك كان الحال بالنسبة لـ"دومينيك فيفان دينون"، الذى كان يجد مساندة من "جـوزفين دى بوهارنيه"؛ حيث كان من المعتادين على ارتياد صالونها. وكان هـذا الرجل المثقف الساحر الأخاذ قد قارَب على عامه الحادى والخمسين. وبذا، فإن بونابرت، الذى أشرف لتوِّه على العام التاسع والعشرين من عمره.. يعتبره أديبًا من أدباء النظام القديم.. فإنه لم يكن يدرى كَـمَّ الموهبة والنبوغ والشجاعة التى يدخرها له هذا الأخير.

إجمالاً، لقد تضمنت القائمة التى وضعها الجنرال "كافـارْيللى" ١٦٧ اسمًا. كان بها الكثير من المهندسين والفنيين، ومعهم عدد مـن الفلكيين، والمعماريين، والكيميائيين، والعلماء بالتـاريخ الطبيعـى، والعلماء بالمعادن، والرسامين، والموسيقيين، والشعراء، والطبَّاعين، والمستشرقين.

أما عن علم المصريات، فلم يوجد والسبب واضح جدًا: أن هذا العلم لم يكن قد وُجد بعد. وربمـا كـان يمكـن تجنيـد مـؤرخين، ومتخصصين فى القطع الأثرية، ولكن تم تفضيل بعض العلماء الذين يعملون فى الهواء الطلق عليهم. ويُضاف أيـضًا: الأطبـاء، بقيـادة "ديزجينيت" و"لاراى": اللذين يحق لهما غالبًا أكثر من غيرهما لقب: "علماء". إنه قطعًا لقب خادع ومفرط فى كثير مـن الأحيـان، فـإن متوسط عمر المجندين لا يزيد على ٢٥ سنة. فها هو، علـى سـبيل

المثال الفتى الصغير "جاك أنطوان فيارد" طالب الهندسة.. قد نـاهز، لتوّه عامه الخامس عشر!!

وهناك من سافر مع أحد أفراد عائلته؛ كمثل الأخوين "رافينـو دى ليـل" ـ عالم بالنباتـات ومهندس ـ أو الإخوة الثلاثة "لوبير"، وجميعهم مهندسون. ثم نجد عائلـة "شـامبى": أب وابنـه: وهمـا كيميائيان؛ وعائلة "ديبوا" أب وابنه، وهما جراحان.. وآخرون، قـد يكون لهم شقيق فى جيش الحملة، على غرار "جيوفرى سان هيلير"؛ أو ابن أخ، كمثل "فيفان دينون".

سوف نصطحب معنا ثلث المعهد!!.. هذا ما تكهن به بونابرت فى لحظات حماس وتوقُّد الاستعدادات. وربما أن الرقم المحـدد قـد تعدى الحدود. ولكن لا شك أن عـددًا كبيـرًا مـن الـشباب غيـر المشهورين، سوف تسطع أسماؤهم فى مصر. ولا ريب أنهم، فيمـا بعد، سوف يدمجون "معبد" العلم والمعرفة هذا فى باريس. والآن، هل علينا الإشارة إلى أن قائمة المسافرين لم تتضمن اسم أية امـرأة؟!.. عمومًا، نحن الآن فى عام ١٧٩٨، ولم تكن "صوفى جيرمان"، وقتئذ، سوى طالبة مغمورة فى الرياضيات.

لقد طلب بونابرت من "المطبعة القومية" أعدادًا مـن العـاملين وعدة أدوات. وبشكلٍ متوازٍ، أوعز إلى "مونج" القائم فى رومـا، أن يسلب إحدى مطابع الفاتيكان؛ وكـذلك مجالهـا المـتخم بـالأحرف اللاتينية، والعربية، والإغريقية والسريانية. وأنجز عالم الرياضـيات مهمته هذه بدون أى تأنيب ضمير. وتوجه إلى مقر "جمعية الدعايـة والإعلان" فى الخفاء وقام بفك، وتعبئة وشحن ثلاث ماكينات كاملة، مع كافة المعدات اللازمة. ولم ينس قطعًا أن يُجند فى سِـرِّية تامـة عددًا من مدراء المطبعة وبعض المترجمين. وعلى ما يبدو أن رغبته فى السفر إلى مصر، قد ضعفت وتضاءلت بمرور الأيام.

وفى نهاية الأمر، كتب إلى الرجل العظيم بضع كلمات مُحرجة، قائلاً: "إنك تريد بإصرار شديد، أيا عزيزى الجنرال وأنا فى سنى هذه أن أمارس المغامرات. ولو أننى كنت أكثر شبابًا وصبا، فلن يكون هناك بالنسبة لى أجمل وأروع من الخدمة تحت هيمنتكم؛ وأن أساهم، بكل إمكاناتى الضعيفة فى العمل الطيب الذى تريدون إنجازه من أجل وطننا والعالم أجمع. ولكننى لازم وضرورى لباريس.. فإننى فى هذه الحالة، سوف أترك ورائى زوجة تعدت سن الشباب.. إذًا، دعنى، ضمن البشر الآخرين، أُعجب بكفاءاتكم، وأُقدر خدماتكم، وأتغنى بمجدكم". هنا، أجابه بونابرت بعودة البريد: "إننى أعتمد على مطبعة "الدعاية والإعلان" وعليكم؛ حتى إذا اضطُررت لصعود نهر "التيبر" مرة أخرى بالأسطول لكى آخذكم". عندئذ، تنفس "مونج" نفسًا عميقًا؛ وانشرح صدره؛ وأخذ يُجهز حقائبه. وفى الحين ذاته، كانت زوجته تصفه بأنه: "مُسن مخبول"!!

وباعتباره مكلفًا بكل العتاد العلمى، فقد قام الجنرال "كافاريللى"، بمساعدة الكثير من المختصين بتكوين مكتبة تضم ما لا يقل عن خمسين ألف كتاب.

كما خُصصت ميزانية لشراء المعدات والأدوات المستحدثة جدًا، مثل: مقاييس الضغط الجوى، ومقاييس المساحة، والمناظير الفلكية، والساعات البحرية، ودوائر الانعكاس. كما فُككت وجُزأت معامل كاملة، ونُقلت إلى "طولون" على متن بعض السفن.

ولم يتردد (القائمون بهذه الأعمال) عن التزود من المؤسسات الباريسية الكبرى: فها هو "برتوليه"، على سبيل المثال، يستحوذ، بدون أى عُقد نفسية على معمل الكيمياء من "المدرسة متعددة العلوم". وكذلك، جُمع جهاز منطادى كامل.. تحت هيمنة "كونتيه" وإشرافه!

فوق سفينة "المشرق"

من أجل التعتيم على سُبل الرحلة، وُزعت على العلماء والفنانين عدة أوامر تتعلق بمهام غير محددة وشبه خيالية. ولكنهم، فى النهاية تقابلوا جميعًا فى "طولون": بعد عدة رحلات سريعة على متن سفن، أو على صهوة جواد، أو سيرًا على الأقدام. وفى "طولون"، لم تكـن هناك أية أماكن خالية فى الفنادق والحانات. ولكن، سرعان ما نـام البعض فوق ظهر السفينة. ويتبين أن أعضاء "اللجنة"، قد وُزعوا ما بين عدة سفن: "حتى لا يوضع مصير العلم فى سفينة واحدة". ولقـد حُددت خمسة أقسام متطابقة بالرتب العسكرية: تفسح المجال لتعامـل متباين ومختلف. وهكذا نجد أن أعضاء القسم الأول، يحق لهم كابينة جيدة ولائقة. ولا ريب أن بعض مظاهر عدم التناسق، قد فجرت شيئًا من مشاعر الغيرة وعدم الرضاء. فعلى سبيل المثال، تساءل البعض قائلين: "لماذا عساه عالم الهندسة "كوستاز"، يتناول طعامه مع كبـار القادة؟!.. وفى الحين ذاته، فإن "لانكريه"، مهندس الكبارى والطرق، و"دليل" إخصائى حديقة النباتات.. يجلسـان إلـى موائـد صـغار الضباط؟!!

لقد بدا مرسى طولون وكأنه مُغطًى بغابة مـن الـصوارى!.. خمس عشرة سفينة ضخمة، وبارجة حربية، واثنتى عشرة فرقاطـة، ثم الكثير من السفن الأخرى الأقل ضخامة (قلعيـات، سـحيريات، مدافع، مراكب وحيدة الصارى).. المكلفة جميعها بحماية أكثر مـن ثلاثمائة وحدة نقل، والتى سوف تنضم إليها، فـى الطريـق، ثلاثـة أخرى من خفـر الحراسـة: القادمـة مـن "جنـوة"، و"أجـاكيو"، و"سيفيتافتشيا". ثم هناك ثمانية وثلاثون ألف جنـدى، وعـشرة آلاف بحار منضمين إلى هذا الجيش الفائق للألـوف فيمـا يتعلـق بعـدد ضباطه: الكثيرون منهم تألقوا وتميزوا فى إيطاليا أو بـ"الراين". ولقد زُوِّدت البارجـة الأميراليـة بمائـة وعـشرين مـدفعًا، وتُـسمى

بـ"المشرق". وعلى ما يبدو، أن الأمر لا يعدو أن يكـون.. سـوى مصادفة بحتة!!

والجدير بالذِّكْر، أن لحظة الانطلاق للرحلة كانت قد تأجلت لعدة مرات، بسبب التيارات المعاكسة. ولكنها، نُفذت أخيرًا فـى التاسـع عشر من مايو، بيوم سطعت فيه الشمس بضيائها. وحينئذ، أُطلقـت ست طلقات مدفع لنداء المتأخرين. وقامت مدفعية الحـصون بتحيـة الأرمادا (الأسطول الكبير). وفى الحين ذاته، كانت موسيقى الساحل تعزف ألحانًا مناسبة. وعلى ما يبدو، أن الطالب الـشاب بالمدرسـة متعددة الفنون، المدعو "ديبوا إيميه"، الذى مر بتجربة غراميـة مـع عشيقة أحد الجنرالات.. قد تأخر عن اللحـاق بالـسفينة فـرانكلين. ولكنه، على أية حال، قد استطاع بالكاد أن يلحق بالأخرى "طونان".. وهى تقوم برفع هِلْبها!

إلى أين عسانا ذاهبون؟!.. فهـا هـم خمـسون ألـف رجـل يتساءلون. ويقول البعض: هل وجهتنا سردينيا؟!.. ويعتقد آخـرون قائلين: إلى كريمى. وتجدر الإشارة إلى أن كل قبطان قد تلقَّى خطابًا مقفلاً عليه خمسة أختام: لا يجب فتحه إلا فـى حـالات الـضرورة القصوى؛ أو إذا انفصلت إحدى السفن عن الأسطول. عمومًا، يتبـين الآن، أن الوجهة: الجنوب الشرقى.. فى نطاق هذا البحر المتوسـط المتخم بالأخطار.

ولا ريب أن بونابرت يعلم تمامًا أن البحرية البريطانية بقيـادة "نلسون".. تبحث عنه منذ عدة أسابيع. بل هـو لا يجهـل أبـدًا أن أسطوله هذا، الذى يمتد مداه عبر عدة كيلومترات بـسفنه المحملـة بحمولة فائقة الثقل، لا يتمتع بمقدرة ضخمة فى المناورات الحربيـة. إذًا، ففى حالة مهاجمته.. لا شك أنه سيلاقى مخاطر هائلة!!

هل تُراهم هؤلاء العلماء والفنانون يتوقعون قضاء وقت ممتـع فى البحر؟!.. إن من لم تُواتِهم الفرصة للحصول على كابينة، فـإنهم

ينامون فى فراش معلق ويرتطمون ببعضهم بعضًا. وإلى نقص المساحات، يُضاف أيضًا عدم كفاية الغذاء؛ بالرغم من أن قطعانًا كاملة قد شُحنت بالسفن. وهناك بعض الجنود الذين يقومون ببيع حوائجهم من أجل الحصول على حصص غذاء إضافية. أما المياه العذبة، فهى مخصصة للمشروبات. بل وتجدر الإشارة إلى أن الجنود لا يغتسلون أبدًا.. ولذا، فإن الأنوف الحساسة تتأذى كثيرًا!!

لقد ذكر الطالب بالمدرسة متعددة الفنون "إدوارد ڤلييه دى تيراج" فى مذكراته قائلاً: "إن الجميع يأكلون لحم الضأن وسمك البكلاه واللوبيا والفاصوليا. ومع ذلك، فمن الصعب الحصول دائمًا على هذا الغذاء، الذى يتراءى غالبًا نيئًا وفاسدًا! وغالبًا ما يجتاح المرء لمرات عديدة دُوَار البحر. وعلى متن باخرة "فرانكلين"، كان يتجمع عشرة أشخاص فى حجرة واحدة لا تزيد مساحتها على مائة متر مربع!!.. "ويا لها من رُفْقة وصحبة!!.. ويا له من ضجيج جهنمى!!" ويُرى الجنود وهم يلعبون الكوتشينة، ويغنون غناء نشازًا. أو ربما قد يخترعون عدة كوميديات فجة، تدور دائمًا حول جارية جميلة، سجنها فى حريمه رجل تركى طاعن فى السن. ولكن، سرعان ما يحضر أحد الجنود الفرنسيين لتحريرها، لكى يتزوجها.. ها هنا إذًا نمط من الحس الداخلى.. الهاجس.

وعلى ما يبدو، أن زميلين لـ " ڤلييه دى تيراج" قد سئما من هذه الرحلة، فتحدثا عن العودة ثانيةً إلى فرنسا عند أول توقف للباخرة. ولكنه أثناهما عن ذلك. بالرغم مما أصابه، هو شخصيًا من خيبة أمل. وأخيرًا، استطاع طالب المدرسة متعددة الفنون هذا أن يجد ركنًا هادئًا: خلف إحدى بكرات الحبال. لكى يستغرق فى قراءة كتابه الموجز الذى يتناول موضوع: حساب التحليل اللانهائى.. الصفر. ولقد انهمك أيضًا، بكل اهتمامه لتدريس الرياضيات لأحد قادة الدفة.

وفوق متن هذه الباخرة ذاتها، عكف "كونتيه" علـى رسـم صـور شخصية لرفقائه فى السفر.

أما عن القادة العسكريين، فكـان يـراودهم دائمًـا الخطـر الإنجليزى. فحالما يُشار إلى أى شراع أجنبى، يتم فـورًا اسـتعداد السفن للقتال. وعندئذ، يُلقى بالأمتعة والأسرَّة المُعلقة إلى قاع السفينة، وتُحرر المدافع وتُكشف استعدادًا لإطلاق نيرانها!

وعندما تسنح الحال، يتزاور البعض من سفينة إلى أخرى. ومن خلال إحدى هذه النزهات، سقط "جيوفرى سان هيلير" فى البحر!!.. ولكنه، لحسن الحظ، أُنقذ من الغرق.. وكان هذا العالم بالرياضـيات يلقى معاملة جيدة للغاية من جانب قائد "ألزاس". ولقد دأب على شغل أمسياته فى سرور وانبساط، حيث كان يلعب الكوتشينة مـع كبـار القادة. ولقد شمل البحارة تأثر بالغ، وهم يرونه يقوم بتجربة كَلْفنَة(*) على إحدى سمكات القرش التى تم اصطيادها. وبالنسبة لعالمَى الفلك "نوتيه"، و"كينوت".. فهما أيضًا لم يشعرا أبدًا بالملل: فإنهما، خـلال وجودهما فوق متن سفينة "أكيلون"، منذ بداية الرحلة، قد عكفا دائمًـا على معالجة ساعاتهما البحرية، ومناظيرهمـا المتحركـة، ودائمـة الانعكاس. وبعد وقت وجيز، استطاعا التقصِّى فيما يتعلق بخط طول جزيرة مالطة.

على متن السفينة "أورينت" (المشرق)، كان بونـابرت يـشغل جَناحًا ملكيًا.. ربما قد يغيظ أى شخص جمهورى ويصدمه!!.. وفى معظم الأحيان، بعد العشاء، كان يجمع حوله العلماء الأكثـر شـهرة وذيـوع صيت؛ وبعض كبار الضباط؛ حول ما أسماه بـ "معهـده". وعندئذ، كان هذا القائد الأعلى، يحدد ثلاثة أو أربعة أشـخاص مـن أجل تعضيد ومساندة اقتراح ما؛ وعدد مماثل لدحضه. وكانت هـذه

(*) كلفنة: إخضاع لفعل تيار كهربائى.

المجادلات تتناول أيضًا: أساليب الحكم، أو الـدين، أو مـدى عمـر العالم.. أو تأويل الأحلام!

كان بعض كبار القادة، مثل "كافاريللى"، المُدافع عن الاشتراكية قبل أوانها، يشاركون فى هذه المناقشات مشاركة فعالة. ولكن، كـان هناك آخرون يتعجبون من: أن بعض العلماء الذين كانوا يـصفونهم بالحمير.. قد جاءوا للمشاركة فى حملة عسكرية. وهكذا، ففى إحدى الأمسيات؛ بادر "جانو"، الذى كان يسمح لنفسه بـبعض الوقاحـة.. بونابرت قائلاً: "أيها الجنرال، لماذا لـم يـساهم "لان Lannes" فـى المعهد؟!.. ألم يكن من الأجدى، أن يُقبل اعتبارًا لاسمه؟". (Lannes : يفيد معناها باللغة الفرنسية: حمار). عمومًا، لقد طُلب منه أن يصمت ويقفل فمه.. وبذا، فقد راح فى سُبات عميق، محدثًا شخيرًا مزعجًـا. وأخذ البعض يهزونه: ولكنه برطم ودمدم قـائلاً: "أيـا جنـرال، إن معهدك الخائب الوهمى هو الذى يخمد الجميع.. بخلافك أنت".

مـرورًا بمالطـة

إن هذا الأسطول البطىء، الذى كان يتوقف بصفة منتظمة لعدم توافر الرياح.. لم يصل إلى مالطة إلا بعد اثنين وعـشرين يومًـا. وبالنسبة لبونابرت الذى كان قد خاض معارك أخرى أكثر ضـراوة وعنفًا، فإن غزو هذه الجزيرة، التى يعيش بها حوالى مائة ألف فرد؛ والتى يقوم على حراستها حوالى خمسمائة فارس غالبًـا مـسنون.. فكان مجرد نُزْهة. وهكذا، فإن "مديرى النظام" قد تفهَّموا سـريعًا أن من مصلحتهم: الاستسلام. ولقد ساهمت "لجنة العلوم والفنون" فى هذا المجال: فها هو "دولوميان" على سبيل المثال، هذا الفارس السابق، قد اضطُر للتوجه من أجل التفاوض لتسليم رفقائه السابقين؛ وعلى مـا يبدو، أنه أنجز ذلك، رغم أنفه. أما عن "برتوليه"، فهو، من ناحيتـه، قد كُلف مع مفتشى الجيش، بالاستيلاء على كنوز الفرسان وخزائنهم.

وأن يقدم بها قائمة جرد؛ وكذلك أن يصهر الذهب ليحوله إلى سبائك. وتطلب الأمر إقامة الأفران .. بداخل الكاتدرائية! وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن أحد أعضاء "اللجنة"، ويُدعى "رينيو دى سان جان دانجيلى".. قد بقى فى الجزيرة، ليكون بمثابة مُفوَّض للحكومة.

وخلال ثمانية أيام فحسب، استطاع بونابرت أن يبدل كلية إدارة مالطة. وهكذا محا العبودية، ووطد حرية العبادة، وأعاد تكوين نظام التعليم بأكمله. وربما أن كل ذلك يُعد بمثابة تذوق أوّلى لما كان يعده لبلد الفراعنة. ولقد اصطحب معه عددًا من الفرسان الفرنسيين؛ وأدمج بعضهم بلجنة العلوم والفنون. بالإضافة أيضًا إلى عدة مئات من المسلمين الذين أُفرج عنهم من سجون مالطة؛ وقد استعان بهم بعد ذلك كعناصر دعاية لنشاطه فى مصر.

فالوجهة إذًا كانت مصر. فإن "جيش فرنسا" هذا، قد اكتشف أنه يُسمى جيش "المشرق". وهنا حُرر نداء، تم طبعه على متن السفينة الأميرالية.. وأُعلن فى الثامن والعشرين من يونيو بكافة السفن. إنه يُملى بعض النصائح التى تتعلق بالمحافظة على عدة أمور: "أيها الجنود!.. سوف تستهلون غزوًا، لا يُعد ولا يُحصى على حضارة وتجارة العالم أجمع.. إن الشعوب التى سنعيش معها هى شعوب "محمدية". فلتستعينوا بالنسبة للعبادات التى ينص عليها القرآن، فى المساجد.. بنفس التسامح الذى استعنتم به تجاه الأديرة، والمعابد (اليهودية)، وديانة موسى وعقيدة المسيح عيسى. إن كافة الأجواق والفرَق الرومانية.. كانت تحمى كافة الأديان..".

على متن السفن، كان هواة القراءة يتنازعون هذه الكتب: "رسائل عن مصر" من تأليف "كلود سافارى"؛ و"الرحلة إلى مصر وسوريا" بقلم "فولنى". ونجد أن هذين الكتابين الحديثين، يقدمان، عن وادى النيل، العديد من الرؤى المتعاكسة والمتضاربة. فهل عسانا يمكننا الوثوق بوجهة النظر الباردة الحقودة التى يتسم بها "فولنى"؟!..

أن نرى المناظر الساحرة الفاتنة التى يذكرها "سافارى".. الذى رأى بعينيه، فى النيل.. بعض جنّيات البحر يستحممن وهن نصف عاريات؟!!

لم تكن الإسكندرية تبعد سوى بضعة فراسخ. وها هو "فيفان دينون" بحماسه الفائق، وكأنه نوتى صغير، يُفعم زهوًا وفخرًا، لأنه ضمن أفراد الفرقاطة التى أُرسلت من أجل الاستكشاف. وعند مشرق النهار، اكتشف أمامه فى دهشة بالغة.. ساحلاً قاحلاً أبيض اللون.. يمتد على مدى الأفق!! فلم يكن هناك أثر لأية شجرة.. أو بيت!! وها هو يلاحظ قائلاً: "لم يكن ذلك مجرد طبيعة حزينة مبتئسة.. بل، بالأحرى، تدمير الطبيعة.. بل السكون التام.. والموت!!". وعلى مقربة منه؛ سمع أحد الجنود يقول لزميل له: "انتبه!.. انظر.. ها هى الفدادين الستة من الأراضى التى وعدوك بها!!". وقهقه الجميع ضاحكين.

بالنسبة للضابط الذى بُعث سريعًا نحو اليابسة، فقد رجع بعد غيبة مديدة. وكان يصاحبه ابن أخ قنصل فرنسا، الذى نقل إلينا هذا الخبر السيئ: "إن "نلسون" ما زال يبحث عن الفرنسيين ويقتفى أثرهم. ولقد توقف بسفنه فى الإسكندرية. ثم رجع خائبًا. ولا ريب أنه ما زال يتسكع بأسطوله، فى بعض النواحى. أما عن السلطات المصرية، التى حُذرت من احتمال غزو فرنسى، فقد جهزت نظامًا دفاعيًا..

لم يجد بونابرت أمامه خيارًا: فإن الضرورة تحتّم؛ على وجه السرعة النزول من السفن. وفى منتصف الليل، بتاريخ أول يوليو، من خلال بحر هائج رهيب، أُنزلت القوارب الصغيرة فى الماء، بالخليج الصغير المعروف باسم "مربوط Marabout" (تحريف الكلمة العربية: "المرابط")، بغرب الإسكندرية. وكانت المناورة مخيفة وهائلة، فقد جُرفت الكثير من الزوارق بسبب الأمواج.. وتحطمت

باصطدامها فى السفن أو تكسُّرات الأمــواج والــصخور البــارزة. وتعالت صرخات الجنود الذين أوشكوا على الغرق.. فى جنبات الليل الحالك!!.. ثم سرعان ما تبعها صمت مؤلم عنيف!

قطعًا، إن العلماء والفنانين لم يتوقعوا أبدًا أن مصر ستكون بهذه الشاكلة.. عمومًا، إنهم لم يروا أى شىء بعد!!

(٢)
فى مقـر الأنـــــوار

مصر، أخيرًا!!.. ها هم العلماء والفنانون قـد تجمعـوا فـوق فرقاطة ضئيلة الحمولة، إنها "المونتنوت". وهى قادرة على دخـول ميناء الإسكندرية. إنهم ظلوا منتظرين يومين كاملين فى البحر، بدون أية أخبار عن المعارك الدائرة على اليابسة (مقاومة ضعيفة، بوساطة سُبل ووسائل واهية.. سرعان ما قمعها بونابرت).

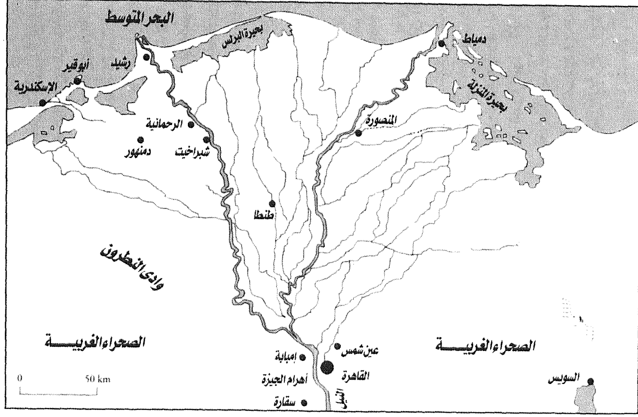
وفى الرابع من يوليو عام ١٧٩٨، صباحًا، بعد قضاء ليلة فوق ظهر السفينة، قام أحد الزوارق بنقلهم إلى الساحل، بخارج الجدران. ولم يكن هناك أية لجان للاستقبال، أو حمالون. وكان على كل منهم أن يجر حقيبته فوق الرمال.. متجهًا إلى ما كان يتراءى، إلى حد ما.. فى هيئة مدينة!!

الإسكندرية؟!.. هل هذه حقًا الإسكندرية؟!.. لقد أخـذ أعـضاء "لجنة العلوم والفنون" يفركون أعينهم!.. وحتى الذين قرءوا كتـاب: "السفر إلى مصر وسوريا" بقلم "فـولنى"، الـذى اتـسم بالمجاملـة واللطف.. قد أصابهم الذهول!.. فإن هذا المركز الثقافى القديم علـى مستوى العالم أجمع.. لا يعدو أن يكون الآن سوى كفـر أو ضـيعة

صغيرة متربة معفرة، يعيش بها حوالى ستة آلاف فرد. وتبدو شوارعها وطرقها ضيقة. وأكواخها متداعية متهاوية. وهذا ما ذكره عنها "شارل نورى"؛ المعمارى الذى ناهز العشرين من عمره: "كنا نبحث عن إسكندرية الإسكندر التى شيدها المعمارى "دينوقراطيس". كنا نبحث عن تلك المدينة التى وُلد بها الكثير من عظماء الرجال؛ وتأهلوا وتكونوا؛ وهذه المكتبة التى جمع البطالمة فى نطاقها مخزون المعارف الإنسانية. وأخيرًا، نحن نبحث عن هذه المدينة التجارية، وشعبها الفعال المُجد، النشيط الحاذق. ولكن، لم نجد أمامنا سوى أطلالٍ، وهمجية، وهوان وفقر فى كافة النواحى".

والآن، كان يُلزَم المرء إيجاد مأوى. وفى هذه الحال، كانت المفاجأة سيئة للغاية!!.. فلم يُتوقع شىء مطلقًا من أجل أعضاء لجنة العلوم والفنون. فلا شك أن الجنرالات كانوا منشغلين فى أمور أخرى. وفى الوقت الذى كان الجنود يسكنون فى أكواخ من سعف النخيل التى أقاموها على مدى امتداد الساحل.. كان هناك حوالى مائة وستين مدنيًا يهيمون كأرواح معذبة.. وقد تبعهم بعض الكلاب الضالة. ونجد، على سبيل المثال أن "فليبه دى تيراج" الطالب بالمدرسة متعددة الفنون.. قد قضى أولى لياليه الأفريقية نائمًا أرضًا، بجوار حقيبته!

كان الأمر يتطلب، بالنسبة للعلماء والفنانين، عدة أيام لكى يتمكنوا، بشكل أو بآخر من أن يسكنوا لدى بعض الأوروبيين، أو بمنزل قنصل إنجلترا.. الذى غادر المدينة قبل وصول الحملة الفرنسية. وكان الغذاء ناقصًا، والماء يُغترف من صهاريج مشكوك فى أمرها. يُضاف إلى ذلك، البعوض، والحر القائظ!.. وهكذا، نجد أن المهندس "بروسبير جولوا" قد اغتاظ وثار "من الإهمال واللامبالاة إزاء مجموعة الشباب الذين انتُزعوا من وطنهم وأهلم، وأصدقائهم.. وكانوا قد وُعدوا بوعود مُبالغ فيها!".


البحر المتوسط
بحيرة البرلس
دمياط
رشيد
أبوقير
الإسكندرية
بحيرة المنزلة
الرحمانية
المنصورة
دمنهور
شبراخيت
طنطا
وادى النطرون
الصحراء الغربيـــة
الصحراء الغربيـــة
عين شمس
إمبابة
القاهرة
أهرام الجيزة
السويس
سقارة
النيل
0
50 km

ومع ذلك، فبسرعة فائقة، استيقظ الذهن العلمى. وأزاح، إلى المرتبـــة الثانيـــة الكثير من الصعوبات المادية: التى على ما يبدو، من جهة أخرى قد تضاءلت بمرور الأيام. وفى صباح يوم ما، فى حوالى الساعة الخامسة، توجه الكثيرون من أعضاء "اللجنة"، تحت حماية مجموعة حراسة؛ ومعهم "لويس بونابرت"، الأخ الصغير للقائد الأعلى؛ لفحص عمود "بومبى".. الذى يهيمن على المدينة من فوق ربوة. ومن أجل التسلق إلى قمة هذه القطعة الجرانيتية الحمراء اللون، الناعمة الملمس.. استُعين بطائرة ورقية مزودة بقطعة حبل متدلية. وتم لف هذه الأخيرة فوق الرأس؛ وكأنها بكرة؛ وذلك قبل أن يحل مكانها عدة حبال غليظة: آخرها كان مثبتًا فوق الأرض: وبذلك، استطاع بحار شاب أن يصعد هذا النُصُب؛ ويقوم بإعداد جهاز كفيل برفع بعض الأشخاص الجالسين فوق دكة معلقة.. ولقياس العمود، لم يكن الأمر يقتضى سوى ميزان بناء. وهكذا، فإن التحقق بوساطة آلة قياس الزوايا، قد أثبت: أن ارتفاعه: ٨٨ قدمًا و٦ بوصات، أى ٢٨,٧٥ متر.

ولقد جذبت الانتباه عدة نُصب أخرى: مثل الإبرتين الضخمتين (أى المَسلّتين) الخاصتين بـــ"كليوباترا". وهما مُغطّاتان تمامًا بالهيروغليفية. وتبدو إحدى هاتين المسلتين واقفة. أما الأخرى، فهى راقدة؛ وقد دُفن نصفها: وكذلك تم فورًا أحد التنقيبات، من أجل استخلاصها. كما يحلو للمرء.. أن يتأمل أيضًا، فى فناء المسجد الكبير تابوتًا رائعًا من الجرانيت، يرجع إلى العصر الفرعونى. وأخيرًا، فها هو "بروسبير جولوا" وعدد من شباب المهندسين، يتوجهون فيما بين زيارة وأخرى، لممارسة رياضة الغطس فى البحر.. على مقربة من حمامات كليوباترا!

قطعًا، كان الأهالى ينظرون فى رعب وخوف إلى هؤلاء المتحركين المضطربين.. القادمين من كوكب آخر!!.. وفى واقع الأمر

أنهم قد احتاروا وتبلبلوا أمام الإعلان الذى أصدره بونابرت، المطبوع باللغة العربية. حيث، فسره بصوتٍ عالٍ من يجيدون القراءة. إنه بمثابة نقـد لاذع عنيف ضد المماليــك، المتهمين بتعذيب الشعب المصرى وتحويله إلى شهداء. ولكن، كيف عساهم يعتبرون هؤلاء الغزاة، بمثابة أفراد يعتنقون دينًا واحدًا؟! فإن المدنيين منهم، وكذلك العسكريين، لم يوحوا لهم بأية ثقة. وهذا ما لاحظه "قلبيه دى تيراج" فى مذكراته اليومية، حيث قال: "إن شعورنا المسترسلة وملابسنا الخضراء اللون، كانت تصدم المسلمين كثيرًا. فإن الأخضر بالنسبة لهم، قد خُصص فقط لذرية "محمد". إن لم يكن ذلك فقط..

وتقرر أن ينقسم كل من العلماء والفنانين إلى ثلاث مجموعات. الأولى، تتكون من "مونج" و "برتوليه"؛ وترافق بونابرت عند نزوله إلى القاهرة. أما المجموعة الثانية، فسوف تتوجه إلى رشيد، تحت قيادة الجنرال "مينو"، الذى كان قد جُرح أثناء عمليات النزول من السفن. أما عن المجموعة الثالثة، فإنها ستبقى فى الإسكندرية مع "كليبر"، حيث جُرح هو الآخر، وفى حاجة لفترة نقاهة.

سراب على طريق الأهرام !

من أجل الوصول سريعًا، قرر بونابرت أن يسلك طريق الصحراء. ولا شك أن هذه الرحلة، مشيًا على الأقدام، خلال أشد فترات العام حرارة.. تُعد بمثابة ألم وعذاب معنوى. فها هم الجنود، مراقبون تمامًا من جانب البدو، الذين يوقعون أقصى أنواع العقاب والتأديب على المتأخرين منهم؛ الذين يكادون أن يُصابوا بالاختناق بسبب ملابسهم الرسمية، المصنوعة من قماش سميك!! بل ويوشكون أن يهلكوا من الظمأ. وبين وقت وآخر، كانت تتراءى من بعيد بعض باقات أشجار النخيل، والبحيرات. وعندئذ، تتعالى الصيحات فرحًا ومرحًا.. ويجرى

الجميع مهرولين!!.. وبالنسبة لهذا السراب، فقد خصص "مونج"، بعد ذلك بعدة أسابيع دراسة علمية رائعة.

لقد أوشك الجيش على العصيان والتمرد!.. ومع ذلك، فلم يكن أمامه سوى خيار واحد: أن يتقدم. ولشدة بأسهم، فقد فجر أكثر من جندى رؤوسهم بطلقات الرصاص. ولكن، كيف عساهما كل من "مونج"، و"برتوليه" كانا يجدان القوة للاهتمام بعدة آثار؟!!.. ولذا، فإن الجنود، وهم ينظرون إليهما أثناء تنقيبهم، قد اقتنعوا بأن العلماء قد أثاروا فكرة هذه الحملة إلى مصر.. لمجرد البحث عن آثار!!.. وها هم يُشار إليهم بالإصبع!.. بل ويُتهمون بكل المصائب والكوارث التى لحقت بجيش "المشرق"!..

ويُرى الجنرال "كافاريللى"، وهو يجر ساقه الخشبية، ويجوب صفوف الجنود من أجل تهدئة العقول والنفوس. وهو يذكر قائلاً، إن مصر كانت فى الماضى مخزن غلال روما. ويؤكد أن هذا البلد ينعم بثراء فاحش؛ لم يُر له مثيل أبدًا. وأن كل هذه المعاناة، سرعان ما ستصبح فى غياهب النسيان.. هنا صاح فيه أحد جنود فرقة الدرينادية (قاذفو القنابل)، قائلاً: "طبعًا أنت تهزأ بكل ذلك، أيها الجنرال.. وقد تركت إحدى ساقيك فى فرنسا!!". وعلى ما يبدو، أن هذه العبارة، التى رُددت من مخيم إلى مخيم، قد أشاعت شيئًا من البهجة والمرح. ولكن الجيش الذى كان يتأسى على المناظر الريفية الخضراء اليانعة النضرة فى "لومبارديا".. قد أصابه شىء من السأم القاسى العنيف.

ها هم، قد وصلوا أخيرًا إلى ضفاف النيل عند الرحمانية. وألقى الجنود بأنفسهم، وهم بكامل ملابسهم فى النهر: معرّضين أنفسهم لتجرع المياه الملوثة، أو لأن يمزقوا إربًا إربًا بين أسنان التماسيح!!.. وفى الحقول المجاورة، انطلقوا بقوة فى التهام كميات من البطِّيخ.. بما يستتبع ذلك من متاعب معوية خطيرة!

لقد حرص بونابرت على رعاية "مونج" و "برتوليه"؛ ولذلك، فقد عهد بهما إلى إحدى السفن المزمع صعودها للنهر. ولكن، واأسفاه!.. فسرعان ما هوجم الأسطول الصغير من جانب عـدة سفن خاصـة بالمماليك. وشُنت معركة ضارية على مقربة من بندر شبراخيت (والتى عُرفت بـChebreis عند المؤرخين الفرنسيين). وخلالها، قام العالمان، بكل شجاعة وبسالة بتصويب طلقاتهما. وفى إحدى اللحظات الحرجة، رأى "برتوليه"، أنه قد يقع صريعًا.. فلجأ إلى ملء جيوبه بالطوب.. حتى يغرق، ولا يؤسر. ولكن، كُتبت له النجاة من هذه النهاية..

لم يشارك أى عالم فى موقعة إمبابة الشهيرة.. المعروفة باسم معركة الأهرام. وخلالها، كان المماليك يمتطون صهوة أجمل جياد العالم. وأُوقعت بهم الهزيمة بوساطة مربعات بونابرت. ويتبين أن هؤلاء الفرسان المتباهين بأنفسهم، بجيادهم ذات السروج المُوشّاة بالذهب.. قد أفرغوا سريعًا طلقات بنادقهم الصغيرة، وطبنجاتهم، وغدّاراتهم الأربع.. قبل أن يهجموا بسيوفهم المعقوفة، على مشاة بسطاء!.. وانهمرت طلقات الرصاص على مسافة عشرين قدمًا؛ وأحيانًا عشرة أقدام.. وساد التشتت والشغب!!.. وهكذا، أنهى جزء من المماليك عَدْوَهم وركضهم فى مياه النيل؛ أو فروا هاربين. وآخرون قُتلوا فى أرض المعركة.. وانتُزعت منهم يطاقانهم(*) المُعرقة بالذهب والفضة؛ وكذلك ركائب أسراجهم الفضية أو القرمزية.

إن هذه الواقعة الدموية، التى حُولت فورًا إلى أشعار فروسية، قد أثمرت، فى فرنسا ما لا يقل عن ألف سرد، ورسم، ولوحات.. على مدى عشرات السنين. ولقد قال بونابرت لجيوشه، قبل المعركة: "هيا، واعلموا أن أربعين قرنًـا تنظر إلينا من عليـاء هذه النُصُب".. ولكن،

(*) "يطقان": سيف تركى محدب.

ها هم المؤرخون يُترجمون ترجمة طريفة: "من فوق هذه الأهرام.. أربعون قرنًا تتأملكم".

عندما دخل القائد الأعلى لجيش المشرق إلى العاصمة.. كانت قصور المماليك الفارين قد سُلبت إلى أقصى مدى. ولكن، سرعان ما ساد النظام الفرنسى. ولقد صرح بونابرت من خلال بيان باللغة العربية؛ فقال: "أيا شعب القاهرة.. لقد غمرنى السرور لسلوككم. لقد أحسنتم بعدم التصدى لى.. فأما من يتفهمون ذلك.. فسوف يعرفون ما ينتظرهم". ولقد ذكر المنتصر فى معركة الأهرام، للجنرال "مينو" فى الحادى والثلاثين من يوليو: "أن الأتراك لا يمكن أن يُقادوا إلا بمنتهى الصرامة والقسوة. فإننى كل يوم، آمر بقطع خمسة أو ستة رؤوس فى شوارع القاهرة. وكان علينا، قبل ذلك، وحتى الآن، مُداراتهم حتى نمحو شائعة الإرهاب التى سبقت حضورنا: أما الآن، فبالعكس.. علينا أن نتخذ النبرة اللازمة لكى ترضخ هذه الشعوب وتُطيع.. والطاعة، بالنسبة لهم.. هى الخوف".

استُدعى "مونج" و"برتوليه" لكى يقوما بمهام لا صلة لها كثيرًا مع علوم كل منهما. فقد كُلفا بوضع الأختام على ممتلكات المماليك. وأيضًا، بأن يقدما عنها قائمة جرد بمساعدة بعض البوليتكنيين الشباب. ثم، بعد ذلك عُينا مفتشيْن للمالية. وفيما بعد، عندما كون بونابرت مجلس الأعيان والوجهاء المحليين، "الديوان"، طُلب منهما أن يكونا وكلاءه الفرنسيين.

جيش سجين غزوته

من جانبها، فإن المجموعة الثانية من العلماء والفنانين، التى سافرت إلى رشيد بصحبة الجنرال "مينو"، قد اكتشفت صورة أخرى مغايرة تمامًا عن مصر: "حدائق ساحرة الجمال من أشجار البرتقال

والليمون.. وعنب أسود رائع !"؛ فهذا ما كتبه " ڤلبيه دى تيراج"؛ الذى أقـام عنـد تاجر فرنسى. فلا شك أن هؤلاء الجمهوريين ينعمون بالرفاهيـة والترف، ويقدرون، بدون أى تعقيـد ما تقدمـه الجاريات المالطيات من خدمة ورعاية!.. كما نجد أن "جيوفروا سانت هلير"، قد حظى لنفسه بحراسة خاصة لكى يذهب فى رحلة صيد إلى الدلتا، حيث جمع عددًا كبيرًا من الطيور، أمر بإعدادها للمزيد من دراستها!.. وكان علماء النباتات يجمعون الأعشاب، عن طريق الصدفة البحتة: فإن ورقهم قد تلاشى، وكذلك الأمر بالنسبة للكثير من الأدوات العلمية، لحظة غرق السفينة "باتريوت" عند النزول إلى الإسكندرية. عامة، كان كل يشغل، بقدر الإمكان وقته. فها هو عالم الزراعة "نكتو"، يراقب الفلاحين ويتأملهم. أما عن "ڤيفان دينون".. فهو يرسم كل ما يراه. فى حين أن " ڤيوتو" الباريتون(*) السابق بأوبرا باريس، كان يقوم بدور سكرتير الجنرال "مينو". كما كُلف ثلاثة أعضاء من "اللجنة" بمهمة شراء المواد الغذائية من أجل الجيش والبحرية.

وهذه البحرية، قُدر لها ألا يتبقى منها شىء بعد ذلك. وها هم بعض العلماء والفنانين يشاهدون، فى رعب وهلع، المعركة البحرية فى "أبو قير"، بتاريخ أول أغسطس، وهم ماثلون بأعلى برج "دير أبو مندور".. حيث كانوا قد توجهوا فى نزهة سريعة!.. فمن الواضح أن الأسطول الفرنسى، لم يستطع أن يتخذ مكانًـا آمنًـا متواريًـا فى الإسكندرية. كما أن الأميرال "برويس" كان يجهل مدى عمق مضايق الميناء القديم؛ ويخشى عنف الرياح التى تكتسح الميناء الجديد.. فقرر، أن يقف منتظرًا، مُركِّزًا أسطوله فى خليج "أبو قير". وهكذا، تراصت السفن، وقد ثُبتت بالهلب.. بعيدًا عن الساحل. عندئذ، قام "نلسون"، بكل

(*) "باريتون": ذو الصوت الذى يتراوح ما بين الرفيع والغليظ.

جسارة وجرأة بدفع عدة سفن من أسطوله.. بداخل الثغرة: وهكذا أطبق على الأسطول الفرنسى.. مثلما تطبق الكماشة!!..

بدا الأمر فى صورة مذبحة بشعة!.. وعلى متن السفينة (الفرنسية) أورينت، أُصيب "برويس" بجرح فى وجهه، واستُؤصلت إحدى يديه. ولكنه كان يقاوم بكل بسالة وشجاعة.. حتى لحظة إصابته بقذيفة مدفع شطرته إلى نصفين!!.. أما عن مساعده "دوبتى توار"، فقد تمادى فى استبساله إلى درجة اللامعقول: يُقال، إنه بعد أن فقد ذراعيه وساقيه، طلب أن يوضع بداخل برميل ملىء بالنخالة، الذى امتص دمه كله. ولكنه، مع ذلك، استمر فى قيادته للسفينة تونانت!.. ولقد وصلت الخسائر الفرنسية إلى ألف وسبعمائة قتيل أو غريق؛ وألف وخمسمائة جريح؛ وثلاثة آلاف أسير؛ وغرق أربع سفن؛ وتسع بوارج أخرى وقعت فى براثن القوات الإنجليزية!

بعد مُضىّ شهر، عندما عاد الرسام "ريدوتيه" إلى ساحل "أبو قير"، قدم هذا الوصف الكئيب: "كان الساحل بأكمله مغطى بالحطام، المغروس إلى منتصفه فى الرمال. والبقية الباقية من هذا الدمار.. كانت لا تزال تطفو فوق سطح الماء. وبدا الحال وكأنه ساحة صناعة وبناء بحرى فسيحة الأرجاء. فها هنا صارٍ محطم؛ وهناك زورق قد دُمر نصفه. كما تراءت أيضًا إحدى الدفات، والدكك، وأقفاص الدجاج، وصناديق ضخمة، وخزائن.. ثم أخيرًا جثث ضحايا المعركة البائسين.. حيث كان البحر قد لفظهم فوق شطآنه !!..".

"ولقد وُزعت هذه البقايا الموجعة على مسافة مداها حوالى أربعة فراسخ". وبدا بعض هؤلاء الموتى عرايا تمامًا. وعلى ما يبدو، غير مشوهين .. وهم ممددون فى وضع بقدر ما هو خلاب فإنه مرعب ومخيف!!.. ومن الواضح أن الكثيرين منهم، قد التهمتهم الطيور

الجارحة.. فلم يتبقَّ منهم سوى هياكل عظمية اكتسبت لونًا أبيض بفضل مياه البحر المالحة".

كان الفرنسيون عاجزين عن مغادرة مصر. فهم سجناء غزوتهم. ولم يُحط بونابرت علمًا بالكارثة، إلا بعد مرور اثنى عشر يومًا.. لأن الاتصالات بالقاهرة كانت فائقة الصعوبة. وأمام كبار ضباطه، الذين أصابهم الانهيار، صاح قائلاً: "حسنًا، ها نحن مضطرون للقيام بمهام كبرى؛ وسنقوم بها؛ وأن نؤسس إمبراطورية عظمى، وسوف نؤسسها. وهناك بحار، لا نهيمن أو نسيطر عليها، تفرق ما بيننا وبين وطننا؛ ولكن لا يمكن أن يفصل أى بحر بيننا وبين أفريقيا أو آسيا. إن أعدادنا هائلة: ولن ينقصنا الرجال للتجنيد فى نظامنا. ولن نعانى من نقص الإمدادات الحربية، فلدينا الكثير منها؛ وإذا لزم الأمر، فإن كلاً من "شامبى"، و"كونتيه"، سوف يصنعان لنا منها الكثير".

فى واقع الأمر، أن كارثة "أبو قير" قد حثت ودفعت المهندسين والتقنيين لمضاعفة مهاراتهم ونبوغهم. ففى الإسكندرية، حيث استقرت المجموعة الثالثة، حول الجنرال "كليبر"، كان "كونتيه" الذى لا يُضاهى، يصنع، بسرعة فائقة أفرانًا خاصة بإضفاء الاحمرار على الكرات الحديدية اللازمة للمدافع؛ وكذلك مضخة حريق عائمة.. تحسبًا وتخمينًا من هجوم إنجليزى جديد. أما العلماء الآخرون، فكانوا يبذلون أقصى جهدهم فى أعمال أكثر سلامًا، مثل: رسم تخطيط المدينـــة، تفقد الصهاريج؛ أو إصلاح إحدى القنوات المرتبطة بالنيل.

فى يوم ١٠ سبتمبر، صاحب اثنا عشر عضوًا من أعضاء "اللجنة"، كُلاً من القادة: "مينو"، و"مارمونت"، للقيام برحلة فى الدلتا. ونجد أن هذه الجولة العسكرية، التى تضمنت ما لا يقل عن مائتَىْ حارس.. قد شابتها بعض الدراما!!.. فقد سقط "ديدونيه" فى مياه النيل.. وفقد حوالى أربعين من رسومه بالألوان المائية!.. وعلى مقربة من قرية شاباس

بمنطقة غمرتها مياه الفيضان.. استُقبلت الفرقة الصغيرة بسيل من النيران المتتابعة. وسقط "دولوميو" من فوق ظهر جواده، وكاد أن يموت غرقًا. أما بالنسبة للرسام "جولى"، فقد استولى عليه الرعب والفزع، بدءًا من لحظة انهمار طلقات الرصاص: وهكذا، راح فى حال من الارتجاف والذعر، ورفض أى إنقاذ:. ولقى حتفه فى مكانه ذاته!!..

بدعوة من بونابرت، استُدعى الجميع إلى القاهرة، فى خلال شهر سبتمبر. وعلى ما يبدو أن "مينو" و "كليبر" قد أرادا استبقاء "علمائهم". ولذا، أرسل الأول خطابًا متباكيًا إلى "كافاريللى" قائلاً: "أيها الجنرال، فلترحم رجلاً فى حاجة إلى شخص يلم باللغة الفرنسية، ويمكنه أن يتحادث معه، ويتسامر فى المساء.. بعد أن تعب وكد طوال النهار". أما "كليبر"، فكان أكثر تعقُلاً واعتدالاً. وكتب إلى بونابرت؛ الذى يرفض مناقشة أوامره: "إننى آسف للغاية على هؤلاء الفنانين. فلقد عملوا دائمًا على توضيح وجلى أفكارى الفائقة القتامة والعتامة".

عن العاصمة، فهى لا تتماثل مطلقًا بالإسكندرية أو رشيد. إنها مركز تجارى ضخم. يعيش بها مائتان وستون ألف مواطن. وبها تتجمع قوافل بلاد العرب، والحبشة، وسوريا. وتمتد متاريسها إلى مدى ٢٤ كيلومترًا طولاً. ولا ريب أن اكتشاف هذه المدينة العالمية، التى تستوعب فى جنباتها، إغريقًا، وسوريين، ويهودًا، ومغاربة، وأرمن، فقد تركت لدى العلماء والفنانين انطباعات متضاربة للغاية. فها هو "فيفان دينون" يقول: "ليس بها أى شارع جميل، ولا نُصب بديعة". وكذلك يؤكد "ڤلييه دى تيراج" بقوله: "الشوارع ضيقة، متعرجة ملتوية، وبلا تبليط [.. ..] مثيرة للاشمئزاز". ومع ذلك، فإن هذا الأخير نفسه، قد اكتشف، منبهرًا مسحورًا؛ من فوق قمة القلعة، الثلاثمائة مسجد بالقاهرة؛ والأهرام، والصحراء.. وبالنسبة للرسام "ديدونيه"، فليس لديه

كلمات قوية للتعبير عن دهشته وانبهاره أمام التعاكس ما بين المساكن القاتمــة اللـــون.. والمساجد البيضاء، "والمآذن الرشيقــة المَشِيقَة التى تشرئبُ فى الفضاء وكأنها عدد من السهام".

فى هذه الفترة من فيضان النيل، يُرى أن ميدان الأزبكية الشاسع المدى، الذى تحيط به الكثير من المنازل الفاخرة، تغمره المياه تمامًا.. وحيث تُبْحِر به عدة مراكب ضخمة: فها هنا إذًا "ڤينيسيا" شرقية. وبها اتخذ بونابرت مقره، فى القصر الفخم الخاص بــ"الألفى بك"، أحد المماليك الفارِّين. ولقد ألحق به المعمارى "جان بابتيست ليبير" شرفة، وسلمًا ضخمًا. بل وأعاد تنظيم بعض غرفه وفقًا للأسلوب الأوروبى.

عشيقة الجنرال المفضلة

هناك أربعة قصور متجاورة، تحيط بها بساتين بديعة، قد تم الاستيلاء عليها، فى حى الناصرية؛ وذلك من أجل تحقيق المشروع الضخم الخاص ببونابرت: أى: "معهد فى مصر"، على غرار "المعهد القومى" (بفرنسا). فالأمر كان يتعلق إذًا بممارسة العمل على ضفاف النيل وفقًا لما يتم على ضفــة نهر السين. ويبدو، أن العلوم الفرنسيــة لا تعتمــد، إلى حد ما على المركــز. وبذا، فإن هذه الأكاديميــة الاستعمارية، سوف تكون: "العشيقة المفضلة للجنرال"؛ فهذا ما أطلقــه مازحين، بعض العسكريين!!

كانت جلسات المعهد تُعقـد فى الصالون الكبير لحريم حسن الكاشف: وقد زُيِّن بأثاث نادر ثمين، عُثر عليــه هنا أو هناك. ولقد تم اختيار الأعضاء السبعة الأوائل من جانب بونابرت. وهؤلاء الأخيرون بدورهم كُلفوا بانتخاب التسعة والعشرين عضوًا الآخرين. ومعظمهم كانوا ينتمون إلى "لجنة العلوم والفنون". كما أُضيف إليهم عدد من العسكريــن (منهم: بونابرت، وأندريــوسى، وكافاريــللى)، وبعض

أعضاء الإدارة وهيئـة الصحة. بالإضافـة إلى رجل دين سورى، كاثوليكى الديانة (أنطوان زكور) الذى يجيد العربية إجادة فائقة. ولم يكن هناك مصريون: فإن عائق اللغة والثغرة الثقافية كانا من الصعب تخطيهما أو عبورهما. ومع ذلك، فإن مساهمة بعض المثقفين المحليين، كانت ستضفى، قطعًا أبعادًا أخرى على المشروع.

لقد أُوكلت مهمة ثلاثية لــ"المعهد": دراسة مصر من كافة أوجهها، ونشر "الضياء"، والإجابة عن الأسئلة التى تقدمها "الحكومة". ولقد تم تكوين أربعة أقسام: رياضية، وفيزيائية، واقتصادية سياسية، وثقافية فنية. وبعد شىء من التمنُّع، قبل "مونج" أن يكون رئيسه، فى الأشهر الثلاثة التالية.

بدءًا من الجلسة الأولى، بتاريخ الثالث والعشرين من أغسطس، طرح القائد الأعلى ستة أسئلة عملية على زملائه: كيف تتحقق إجادة إعداد الخُبز؟.. وهل يمكن إيجاد بديل لزهر الحمل، لصناعة الجِعَة؟.. وهل يمكن تنقية ماء النيل وإصلاحه؟.. وهل يجب أن تُقام فى القاهرة طواحين مائيـة أو طواحين هوائيـة؟.. وكيف يمكن صناعة البارود بوسائل محلية؟.. وما التعديلات التى يحتاجها كل من النظام القضائى والتعليمى فى مصر؟

وكان بونابرت ينتظر ردودًا سريعة. وعلى الفور، تم تكوين عدة لجان متعددة الاختصاص: تستطيع أن تدلى برأيها بداية من الجلسات التالية .. بفاعلية رائعة. فعلى سبيل المثال، اقتضى الأمر مجرد خمسة أيام، لإيجاد الوسيلة من أجل أن يُنتج البارود محليًا: لأن النوع القائم وقتئذ فى البلد، كان يتسبب، بدرجة غريبة فى سد البنادق. بالإضافة إلى أنه كان لا يسمح للطلقات بالانطلاق لمدى لا يزيد على عشر خطوات. وهنا أوضح رئيس "اللجنة" أن مصر لديها فحم مستمد من خشب الترمس؛ كما أن مناخها مثالى للغاية من أجل إعداد ملح البارود.

ولا ينقصها سوى الكبريت، الذى يمكن استيراده من صقلية. وتقنيًا، يمكن مضاعفة قوة البارود المحلى.. بتقليل مقادير الكبريت. وبعد مُضى سنتين، لُوحظ، بكل فخر واعتزاز: أن البارود المُصنَّع فى القاهرة: "عند التجربة، تُطلق قذيفة المدفع إلى مدى أربع قامات وقدم.. أكثر فى ذلك من بارود فرنسا"!

وخلال جلسة السابع من سبتمبر، قدمت لجنة الأفران الخاصة بالخبز استنتـــاجاتـــها: حيث أكدت، أن عيـــدان العصفر والقـــرطم، والبوص، وقش الذرة، توفر وقودًا غزيرًا: يقل بحوالى ٢٠% عن ذاك المستعمل فى فرنسا!.. وربما أن الاستهلاك قد يتضاءل بفضل بناء (أفران) حديثة، تسمح بزيادة سرعة سريان الهواء. إذًا، فمن قال إن اللجان قد كُونت لمجرد دفن الملفات ؟!

قطعًا، إن التسرع قد يؤدى إلى وقوع أخطاء. فقد تبين أن اللجنة التى أيدت فكرة الطواحين المائية ــ سهلة التصنيع، وأكثر اقتصادًا من الطواحين الهوائية ــ لم يكن لديها الوقت الكافى لدراسة تأثيرات فيضان النيل!! فلا شك أن التغيرات الهائلة فى مستوى النهر، كانت ستعمل على إعاقة تشغيل العجلات ذات الشفرة. وبعد عدة حوادث مزعجة.. فُضلت صناعة طواحين هوائية.

كان بونابرت يثابر جدًا على حضور الجلسات. ولم يكن يعتبر نفسه مجرد ضيف شرف بالمعهد. وهذا ما قاله، فى يوم ما لـــ"مونج": "أريد أنا أيضًا أن أكتب مذكراتى، مثل الآخرين؛ وسوف أقرؤها عليكم". وهو بذلك، قد وضع عالم الرياضيات هذا فى حرج شديد. ولكن، ها هو "برتوليـــه"، يجد الكلمات الملائمـــة (للرد عليـــه): "أيها الجنرال، إنك أعظم كثيرًا فى أوروبا وفى كل مكان. بل إنك فوق مستوى الجميع؛ ولا يُعقل، فى هذا الوقت خاصة.. أن تنكبَّ على كتابة مذكرات. فلا ريب، أن كل فرد، قد يزج بنفسه لمناقشتها والحكم عليها!!.. وأكيد، قد يكون هناك من سيستعينون بـــ "بلوتارخ"، أو

ينبشون عن الشيطان فى مكمنـــه.. لكى يؤكـــدوا أن هذه المذكـــرات لا تساوى شيئًا مطلقًا!!.. وهكذا، فإنك ستضع نفسك فى موقف سيئ للغاية.. وقطعًا، سوف يسوؤنى ذلك جدًا، أيها الجنرال".. وبذا، فقد عدل بونابرت عن كتابة مذكراته.

ها هى مدينة علمية بكل معنى الكلمة، تتراءى فى حى الناصرية: زُوِّدت بمكتبة كبرى، ومعامل فيزياء وكيمياء، وقاعة خاصة بالتاريخ الطبيعى، وورش من أجل الميكانيكا، ومرصد، ومكان لحفظ الوحوش. بل وكذلك، متحف أثرى صغير. وبذا، فإن معظم أعضاء المعهد ــ بل وكذلك العلماء الآخرون والفنانون باللجنة، المتصلون بأعمالهم ــ كانوا يكادون أن يطيروا من الفرح. وها هو "جيوفروا سان هلير" فى خطاب أرسله بتاريخ الثالث من أغسطس، يصف: مساحات شاسعة المدى تنبثق فى أنحائها زراعات بديعة: "ها هى حظيرة الطيور قد أُنجزت تمامًا. وسرعان، ما سوف تكون، فى هذا الصدد، أفضل حالاً مما تبدو عليه حديقة النباتات". وفى العاشر من سبتمبر، كتب أيضًا لبيه: "إننى أنعم هنا برفاهية أكثر مما كنت أجده فى باريس. إننى قائم بمركز من الضياء، أحاول الاستفادة بها. ويحيط بى الأصدقاء من كل جانب. ويبهجنى كثيرًا أن أصاحب الشخص المرموق القائم هنا على أمور طعامنا. وغالبًا ما أُمضى وقتى معه".

بدت هذه الأجواء أكثر ملاءمة من خلال أحوال مادية استثنائية. وها هو "جومار" يحكى قائلاً: "كنا نحظى، بالجانب الآخر من قصر حسن الكاشف، وبالبستان المترامى المدى الخاص بقاسم بك من أجل نزهة المساء. وكان حديث "فورييه"، يضفى سحرًا على حواراتنا.. أما روعة السماء، وعبق أشجار البرتقال، ورقة ونعومة حرارة الجو، فكانت تُضفى المزيد من اللذة والمتعة على هذه الاجتماعات.. التى كانت تمتد إلى منتصف الليل. إن حديقة "قاسم بك" هذه، كانت، بالنسبة لنا، بمثابة "بستان الأكاديمى"؛ أما أشجار السنط الباسقة، به فهى أشجار

الصنار عندنا. فهناك، تولد أكثر من رأى عظيم، وأكثر من فكرة فلسفية حقًا، وأكثر من اكتشاف علمى. وعندئذ، كنا نزهو ونفتخر؛ بأننا نعمل على إرساء أُسس "مدرسة الإسكندرية" جديدة، من منطلق أكثر تقدمًا وتطورًا.. قد تمحو وتطمس معالم القديمة".

كان عدد من المعماريين يتجادلــون مع بعض علماء التــاريخ الطبيعى. وفيزيائيون أو فلكيون يتعاونون مع جغرافيين. وبالقطع، كان العمل المتعدد التخصصات يتطابق مع روح العصر. والقليلون جدًا، هم الذيــن ينغلقون بداخل تخصصاتــهم. والجدير بالذكــر، أن عالــم الرياضيات "فورييــه"، الذى كان قد تولى منصب "السكرتير الدائــم" لمعهد مصر، كان قد استهلَّ مهنته من خلال تدريس الآداب والفلسفة!!

يُلاحظ أن الجلسات التى تُعقد فى قصر حسن الكاشف كل خمسة أيــام، منذ الصبــاح البــاكر، كانت تــثير الاهتمام والدهشة بسبب اختياراتها: فعلى سبيل المثال، خلال جلسة الثانى عشر من سبتمبر، تعلَّق الأمر، على التوالى، بأفران الخبز، وبوضع تقويم فلكى، وتقديم حل عام للمعادلات الجبرية. وخلالها، كان الشاعر "بارسيفال جراند فيرون" يقرأ ترجمة من أحد أجزاء "تاس". وفى ذات الحين، كان رئيس الأطباء "ديزجينت"، يتحدث عن الوقاية من بعض الأمراض المنتشرة غالبًا فى مصر. مثل الدوسنتاريا، والتهابات العيون والرمد.

مجلة علمية وجريدة

وفى نطاق هذا الوسط المُفعم بالعمل، يُرى تلاميذ المدرسة متعددة الفنون الصغار، الذين كانوا قد اضطُروا للتوقف عن دراساتهم؛ وهم ينكبُّون على دفاترهم الخاصة.. بحساب التفاضل؛ والمعادلات اللفظية، وحساب مساحة المثلثات. وتقوم لجنة يرأسها "مونج"، بامتحانهم. وكان عليهم انتظار النتيجة طوال عدة أيام.. بنفس الحمية والاضطراب لدى

زملائهم الذين مكثوا فى فرنسا. وبعد أن نجحوا جميعًا فى امتحان التخرج؛ قاموا باختيار مواقع تعييناتهم: حيث تحددت ما بين "الكبارى والطرق"، أو الهندسة العسكرية والمدفعية.

ويرتبط معهد القاهرة مع المعهد القومى (بفرنسا). وهكذا، فإن كافة البحوث التى تتم فى القاهرة، تُوجه إلى الأكاديمية الأم؛ التى تبعث إليها، من جانبها بعض النصوص. ولكن، وبسبب تدمير الأسطول، وهيمنة الإنجليز على البحر المتوسط، كانت الاتصالات غير منتظمة. وبذا، فقد لزم الأمر الاستعاضة بالكتب والجرائد، فى مصر. وهذا هو الدور الذى قامت به المطابع التى نقلها إلى مصر جيش "الأورينت" (المشرق).

ولقد وُلدت المجلة العلمية "عشرة الأيام المصرية، "La Décade égyptienne فى شهر أكتوبر من عام ١٧٩٨. ورأى البعض أن عنوانها يثير السخرية؛ خاصة أنها لا يمكن أن تصدر كل عشرة أيام. عمومًا، لقد استُهلت من عشرة الأيام الفلسفية. ومن خلال مقال افتتاحى بها، لتقديمها، ذكر "تالليان" محددًا: "إن هذه الجريدة التى نشرع فى تقديمها سوف تكون ثقافية وأدبية بحتة. ولن يوجد بها مكان، لأى أخبار، أو أية مجادلة سياسية. بل كل ما يتعلق بمجال العلوم، والفنون، والتجارة، من كافة جهاتها العامة والخاصة؛ وبالتشريع المدنى والجنائى، وبالنُظُم الأخلاقية أو العقائدية، سوف يُقبل بكل ترحيب". وبالفعل، يمكن أن تقرأ فيها.. تقارير وبيانات عن أكثر المواضيع تباينًا وتنوعًا؛ وقوائم إحصائية؛ بل وقصائد وأشعارًا؛ مع بعض المقتطفات باللغة العربية.

وهناك منشور آخر مختلف النمط: "Le Courrier de l'Egypte" ("أنباء مصر"). إنه موجه لجهاز الحملة ذاته. وهو بمثابة أداة دعاية؛ تهدف خاصة للحفاظ على معنويات الجيوش. بل ويُعتبر أيضًا نشرة للغلاف ــ أربع صفحات صغيرة ــ تقدم أخبارًا عن أوروبا، وتُعطى

تقريرًا عن أوجــه النشاط اليــومية الخاصة بالفرنسيين فى مصر. وعامة، لا يُعتبر نموذجًا يُحتذى به فى مجال الصحافة: فإن إصداره غير منتظم. كما أنه ملىء بالأخطاء المطبعية الفائقة العدد.. وكذلك، فإن عنوانه ذاته، قد كُتب: "Courrier" "أنباء" فى معظم الأعداد.. وعلى ما يبدو، لم يزعج ذلك أحدًا!!

كان المنشوران، اللذان يديرهما بعض أعضاء "المعهد"، يصدران طوال فترة "الحملة". بداية، من خلال مطبوعات الطبَّاع "مارك أورل"، الذى رافق جيش "المشرق" بصفته الشخصية وبمعداته الخاصة. ثم، بعد ذلك، بالمطبعة الرسمية، التى أوكلت للمستشرق "جان جوزيف مارسيل".

على ما يبدو، أن مشاعر الغيرة التى كانت قد تبدو خلال الرحلة فى البحر المتوسط، قد ازدادت وأُثريت فى القاهرة؛ رغم رفاهية الإقامــة وفخامتها. فلقــد اتُّهم "كافاريللى" بأنــه يفضل المهندسين العسكريين على حساب المهندسين المدنيين. وكان البعض يلومون "فورييه" لأنه يبدى الكثير جدًا من التسامح والتساهل لتلاميذه أو قدامى تلاميذ المدرسة متعددة الفنون. ومن ناحيته هو شخصيًا، فإنه كان يسخر من علماء التاريخ الطبيعى.. ونجد أن كل هذه النزاعات، كان يراقبها بونابرت بنظرة ساخرة!.. فها هو، فى يوم ما يُصرح قائلاً لــ"ديزجنت": "إنهم يتشابهون كثيرًا بالنساء.. أليس كذلك؟!". فأجابه الطبيب: "أيها الجنرال.. قــد يمكن اللهو قليلاً مع النساء". فيــرد بونابرت: "أوه!!.. إننى أقصد الهمس والوشوشة؛ وكذلك النزاعات والغرور والتباهى".

فى التاسع عشر من سبتمبر، عرض الجنرال الأعلى على بعض الأفراد المميزين، مدنيين وعسكريين، القيام برحلة سريعة إلى هضبة الجيزة.. من أجل التأمل عن قرب للهرم الأكبر. وها هما عالمان شابان، لا ينتميان إلى "المعهد" "ديبوا إيميه"، و"فلييه دى تيراج"، قد

نجحا فى الانضمام إلى المجموعة: فقد أمضيا الليلة على إحدى المراكب التى توشك على عبور النيل. وأكملا بقية الطريق سيرًا على الأقدام.

أمام النُصب الهائل الضخامة.. لم يستطع أىٌّ من أفراد الرحلة النطق بأية كلمة.. إعجابًا وانبهارًا!!.. وقال بونابرت: "من الذى سوف يصل الأول إلى أعلى؟!". وبدا الاندفاع نحو تلك الأحجار الشاهقة الارتفاع. وعنه هو شخصيًا، فقد بقى بالأسفل؛ بمصاحبة الجنرال "كافاريللى"، الذى لا تسمح له ساقه الخشبية بهذا النوع من التدريب!!.. ومع ذلك، كان بونابرت يُحمس بصوته، الكسالى والرعاديد. وكان "مونج" هو أول من وصل للقمة؛ وهو يحمل زمزميته المليئة بمشروب كحولى حلو. وقد تصبب عرقًا.. ولكن يبدو أكثر توثبًا ونشاطًا من أى شاب يافع!!

كان عالم الرياضيات هذا يتوثب حمية وحماسًا خلال خريف عام ١٧٩٨. وبالنسبة لزوجته، التى كانت تصفه بأنه "عجوز مُخرف"، عندما كان يتحدث عن إزماعـه مرافقـة بونابرت إلى مصر، فها هو يكتب إليها بكل فرح وبهجة: "عندما يتم تشييد هذا البلد وتعميره ؛ وزراعته، واكتشافه على مدى خمسين عامًا بفضل الفرنسيين.. فسوف يكون جنة من جنات الأرض!.. وأكيد أن المُلاك سوف يحضرون لقضاء الشتاء ليصلحوا ويطوروا ممتلكاتهم.. وسيهرولون فى الربيع، لكى يلتهموا مكاسبهم فى باريس".

بالإضافة لذلك، يتطلب الأمر أن يوافق المصريون على هذه الخطة الخمسينية.

(٣)
النبىُّ والسَّحَرة

بونابرت ليس "سان لويس". بخلاف "الملك شديد المسيحية" الذى غزا مصر منذ خمسة قرون، على رأس حملة كبرى.. فإن القائد الأعلى لجيش "المشرق"، يبدو معجبًا ومولعًا بالإسلام.. فإن أول بيان لـه باللغة العربية، الذى كُتب بمساعدة المستشرق "فانتور دى بارادى".. يبدو مذهلاً ومدهشًا!.. فمن خلاله، لم يقدم نفسه كشخص جاء لتحرير البلد من طغيان المماليك فحسب.. "هؤلاء الحثالة المكونة من عبيد تم شراؤهم من القوقاز وجورجيا". بل باعتباره مُريدًا ومُواليًا للنبى!!.. ولقد طُبع النص بتاريخ السابع والعشرين من يونيو عام ١٧٩٨ على ظهر سفينة "المشرق". وهو يُستهل بهذه الكلمات: "بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، ليس له ولد ولا شريك له فى مُلْكه". ثم بعد ذلك: "أيا أيها المصريون، قد يُقال لكم إنى قد حضرت لكى أدمر عقيدتكم. فها هى كذبة، ولا تصدقوها أبدًا!.. بل أجيبوا، بأننى قد جئت لأُعيد إليكم حقوقكم، ولمعاقبة المغتصبين. وإننى، أفوق المماليك، فى تبجيلى لله، ونبيه محمد والقرآن الكريم".

• ويتبين أن تكملة البيان تبدو أكثر توضيحًا وإفصاحًا: "نحن مسلمون حقًا. ألم نقم نحن بتدمير البابا الذى قال إن الضرورة تُحتم محاربة المسلمين؟!". ومن خلال عبارات لاحقة موجهة لوجهاء القوم المصريين، أعضاء "الديوان"، لجأ بونابرت إلى تقديم نفسه باعتباره "الكائن الأعلى" المنتظر قدومه من الغرب.. لتكملة إنجازات "الرسول". حيث قال بعدئذ: "إن المُفوَّض من محمد.. هو أنا".

سارع أساتذة الشريعة فورًا إلى تفكيك هذا الكلام وإفساده. ووصفوه بالإلحاد والزندقة. حيث وجدوا أمامهم نمطًا غريبًا من الرطانة: من خلالها، تُخلط المبادئ الجمهورية والقواعد الإسلامية؛ ويُضاف إليها بعض الأخطاء الفجة فيما يتعلق بتركيب الجُمل أو المفردات!.. إن التحدث عن "الله" بلغة عربية تقريبية لا يُعتبر مجرد ذنب عَرَضيّ أو بسيط!.. عامة، إنهم لم يطمئنوا أبدًا لهؤلاء المسيحيين الذين يهاجمون المسيحية؛ فهم يتراءون بذلك كزناديق كفرة..

وبدون أى توهم أو ظاهرة كاذبة، قرر العلماء دعوة بونابرت إلى اعتناق الإسلام، هو وجيوشه. ولكنه عارضهم بصعوبة مزدوجة: إجراء الختان ـــ فلا يُعقل أبدًا أن تُجرى لحوالى خمسة وثلاثين ألف جندى من جنود الجمهورية.. مثل هذه العملية!.. وكذلك، العمل على منع الجيش الفرنسى من احتساء الخمر. وأخذ أساتذة الشريعة يتناقشون فيما بينهم. وبكل مهارة وبراعة ـــ بوساطة فخ ينصبه المستعمَرون للمستعمِرين ـــ أصدروا مرسومًا يقول: إنه من الممكن استثناء هاتين الحالتين؛ خاصة أن هؤلاء المهتدين، لن يحظوا، عندئذ بكافة أنواع النعيم فى العالم الآخَر!.. وهنا أخذ بونابرت ينسحب ويتوارى. ولم يعد أحد يسمع كلمة واحدة عن موضوع اعتناق الإسلام. ولكن، ها هو الجنرال "جاك مينو"، قد تَسمَّى باسم "عبد الله" ويقوم بخطوة مهمة.. ويتزوج امرأة مسلمة: وتعرض للكثير من المزاح والنِّكات من جانب

مواطنيه!.. وفى الحين ذاته، لم يَلْقَ الكثير من الاعتبار لدى من شاركهم حديثًا فى عقيدتهم!!

من خلال إحدى رسائله لصديق له، أكد بدون مراوغة الجنرال "ديبوى" قومندان القاهرة، قائلاً: "إننا نُغرِّر بالمصريين من خلال تعلقنا المصطنع الخادع بديانتهم، التى لا يؤمن بها بونابرت ونحن أيضًا.. تمامًا مثل عدم إيماننا بالاعتقاد بعمل المُتوفَّى الصالح". ألا يُعد الأمر برمته حقًا، مجرد كوميديا من جانب هذا الإمبراطور المقبل؟! وأن الإسلام يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالدور الـذى يؤديــه "أمير المشرق".. ويتقولب فى نطاقه. ولقد تقبل بكل فخر وزهو لقب "السلطان الكبير". بل استعان به هو نفسه، بشكل دارج فى "مذكراته". وفى القاهرة، بعد وصوله بفترة وجيزة، أمر بأن يُفصَّل له رداء تركى النمط غير مألوف؛ ولم يتخل عن ارتدائه إلا بعد أداء مراسم الجمهورية. وحتى آخر لحظات حياته، لم يسمع منه أحد أى لفظ سيئ ضد الإسلام: رغم أن تحوله ثانيًا إلى الكاثوليكية، بعد "المعاهدة البابوية" قد جعله، كما جاء بمذكراته التى دوَّنها فى "سانت هيلين".. يخفف كثيرًا من عقيدته المحمدية!

بعد وقت وجيز من الاستيلاء على القاهرة، وفقًا لنصائح علمائه المستشرقين، استحوذ القائد العلى على تنظيم الأعياد المحلية الكبرى.. سواء كانت إسلامية أو مصرية النمط. ولقد أراد أن يُضفى عليها أقصى ما يمكن من تألق وإبهار..

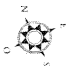
ووفقًا للتقاليد المتبعة، فإن الافتتاح الرسمى للسد الذى تنهمر منه المياه نحو القناة العابرة للعاصمة فى وقت فيضان النيل.. كان يُعلن عنه من خلال طلقات المدافع، والصواريخ، وسيل من العملات النقدية التى يقذفها (المحتفلون) نحو السفن. وفى جزيرة "سانت هيلانه" احتفظ نابليون، عن هذه المشاهد.. بذكرى فائقة الشاعرية؛ حيث قال: "لقد

أعلن النيل عن فيضان أكثر قوةً وعنفوانًا من ذاك الخاص بالسنوات السابقة. وسادت الاحتفالات والأفراح فى المدينة المتلألئة ضياءً ونورًا، طوال هذه الليلة، والليالى التالية..".

بعد فترة وجيزة، سرعان ما تحولت الميادين العامة فى القاهرة إلى بحيرات!.. أما بعض الشوارع، فقد أصبحت بمثابة قنوات. وعن الحدائق والبساتين، والمروج والمراعى، فقد غمرتها المياه.. وقد انبثقت من أعماقها عدة أشجار. وعلى مدى شهر سبتمبر كله، بدت مصر قاطبة.. وكأنها بحر فعلى !.. خاصة، عند النظر إليها من فوق قمة الأهرام، أو المقطم، أو قصر صلاح الدين. كان هذا المشهد بديعًا رائعًا!!.. وكذلك بدت المدن، والقرى، والأشجار، ومقابر الأولياء، والمآذن، وقُبَب المدافن.. وهى طافية فوق بركة المياه هذه؛ التى كانت تمخر عبابها، بكافة الاتجاهات الآلاف من الأشرعة البيضاء الكبيرة والصغيرة ..

وفى واقع الأمر، إن الشيوخ لم يرحبوا كثيرًا برؤية الكُفار غير المؤمنين وهم يُعدون ويُنظمون عيد مولد الرسول. ومع ذلك، فقد كانوا يدَّعون نقص الأموال اللازمة لإقامة الاحتفالات. ولكن، ها هو بونابرت يسارع إلى فك الحَظْر عن بعض الاعتمادات المالية. وهكذا، توجهت فرق للموسيقى العسكرية لتصدح بنغماتها أسفل نوافذ الشيخ "البكرى": أحد الأعضاء الرئيسيين بـ"الديوان".. وهكذا، شعر هذا الأخير باضطراره لإقامة مأدبة كبرى.. تكريمًا لسيد مصر الجديد!

ولم يكن هذا الأخير يتوانى عن أية فرصة سانحة لتملق كبار موظفى الدولة ووجهائها وعلماء القانون الجهابذة. ومن خلال "مذكراته"، نجده يقص، بشيء من التجميل: "كانوا شيوخًا مُبجلين، لتقاليدهم وأعرافهم، وعلومهم، وثرائهم.. بل ولمنبتهم. وكل يوم، عند مشرق الشمس، اعتادوا هم وعلماء جامعة الأزهر على التوجه إلى القصر، قبل موعد الصلاة..


قصر
حسن الكاشف
Canal du Nil
Boulaq
القاهرة
Citadelle
Ile de Boulaq
Ile de Roda
Aqueduc
Nil
Le Vieux Caire
Guiza
N
E
S
O

كان ميدان الأزبكية بأكمله يغص بموكبهم هذا. فها هم يقبلون وقد اعتلوا صهوة بغالهم المُسرجة تسريجًا فخمًا. وأحاط بهم خدمهم وعدد كبير من "حملة العِصِيّ". وأخذت فرق الحرس الفرنسية تتقلد أسلحتها وتقوم بتحيتهم أعظم تحية. وعند وصولهم إلى القاعات، كان مساعدو المعسكرات والمترجمون يستقبلونهم بكل توقير واحترام، ويأمرون بأن تُقدم لهم القهوة. وبعد لحظات، دخل الجنرال. وجلس بينهم على الديوان ذاته. وكان يحاول جاهدًا أن يوحى إليهم بالثقة.. من خلال حديثه معهم عن القرآن. وطلب منهم أن يشرحوا لــه فقراتــه الرئيسية.. ويُبدى إعجابًا كثيرًا بالرسول.

تجاهل التقنية الفرنسية

تمت تعبئة العلماء والفنانين من أجل تنظيم الاحتفالات الجمهورية، التى سوف تؤثر كثيرًا على المصريين.. من خلال الأُبهة والفخامة، والمهارات التقنيــة! وها هو العــالم الفيزيــائى "ماللوس"، بمساعدة مهندسين شابين، "جولوا"، و"لانكريــه"، يقوم بإعداد الاحتفال القومى وتنظيمه فى ٢٢ سبتمبر ١٧٩٨. وبوسط ميدان الأزبكية، نُصبت مسلة خشبية أكثر تشابهًا بالجرانيت الوردى اللون، وساحة مستديرة الشكل تحيط بها مائة عمود: فوق قمة كل منها علم ثلاثى الألوان. وها هو قوس قُزَح قد زُين برسوم بريشة "ريجو": تمثل معركة الأهرام. وفى الحين ذاته تمتد إحدى الكتابات باللغة العربية: "لا إله إلا الله محمد رسول اللــه". وقد قــام عضوان من "معهد مصر"، هما: الموسيقار "ريجل" والشاعر "بارسيفال" بنظم موال، أُنشد بوساطــة كورس من الجنود. وخلال مأدبــة لا يقل عدد طقمها عن مائــة وخمسين، أخذ بعض المستعربين يترجمون الحوارات التي تفيض لطفًا وظرفًا بين بونابرت وكبار موظفى الدولة؛ وكذلك النَّخب الذى رفعه قائلاً: "فى صحة اكتمال ورُقى العقل البشرى، وتطور الأنوار!".

كان من المُزمع أن يطلق "كونتيه" منطادًا.. ولكنه، لم يكن قد جُهز بعد. ولم يقدم إلى سكان القاهرة إلا بعد شهرين كاملين؛ حيث شابته بعض الصعوبات. وكان المسئولون قد علقوا إعلانًا فى الأسواق، معلنين ما يلى: "سوف تحلق من ميدان الأزبكية آلة طائرة ضخمة" اخترعها الفرنسيون. وبتاريخ الثلاثين من نوفمبر، تجمع حشد كبير بالمكان المحدد. وأخذ المنطاد يرتفع فى الهواء.. ولكنه سرعان ما سقط. وانتاب الذعر الكثير من المشاهدين، ففروا هاربين. وها هو المؤرخ المصرى "الجبرتى"؛ وكان حاضرًا وقتئذ، يُعلق فى سخرية وتهكم: "لا ريب أن سقوط هذا البالون قد ضايق الفرنسيين. فإن ما كانوا قد أعلنوه.. لم يتحقق!!.. فقد ذكروا أن مركبة سوف تنتقل فى الهواء، بفضل روعة التقنية. وعليها استقر بعض الركاب، يتوجهون إلى أماكن نائية؛ لكى يقوموا فيها بعدة اكتشافات.. ويحضروا معهم الكثير من المعلومات. وفى واقع الأمر، لم يكن الأمر يتعلق إلا بطيارة ورق.. مثل تلك التى يصنعها الخدم فى أيام الأعياد العامة واللهو والتسرية.

بعد مرور حوالى شهر ونصف الشهر، وفى مناسبة ذكرى "انتصار ريفولى"، تمت تجربة ثانية.. وكانت قاطعة باتّة!!.. فإن هذا المنطاد، قد حلق حقًا طوال نصف ساعة فوق المدينة.. قبل أن يهوى أرضًا!.. وكان عدد من أهالى القاهرة يرمقون هذا البالون الضخم، الملون بالأزرق، والأبيض والأحمر.. بلا مبالاة واضحة. وعلى ما يبدو، أن لا مبالاتهم قد خذلت كثيرًا الفرنسيين. فقد علق على ذلك رئيس الأطباء "ديزجينيت" قائلاً: "هذه الاحتفالات لم تؤثر كثيرًا فى سكان القاهرة؛ بالرغم من روعتها وفخامتها". وها هى النغمة ذاتها يرددها الجيولوجى "دولوميو" بقوله: "هذا الشعب لا يتسم بحب الاستطلاع أو الميل للمنافسة. فإن لا مبالاته التامة أمام كل أمر غريب عن أحواله، أو عقيدته، أو أعرافه.. ربما كان أكثر ما أثار عجبى

ودهشتى فى أسلوب وجوده!.. فلا شىء يثير استغرابه.. لأنه لا يُولِى أى اهْتمام لما لا يعرفه".

بصفـــة عامة، لم تكن العلوم أو التقنيات الفرنسيـــة، تثير، لدى المصريين، الإعجاب أو حتى الدهشة المرتقبـــة! ويبدو واضحًا أن المسافة الثقافية بين الشعبين تتراءى شاسعة المدى. فها هم منذ أمد بعيد طلبة جامعة الأزهر العريقة أو سوريُو المشرق.. لا يدرِسون سوى اللغة العربية والمواد الدينية. وهناك بعض الجزئيات الضئيلة من الحساب، تسمح لهم بمجرد معالجة مبدأ تقسيم الميراث. كما أن القدر اليسير من علوم الفلك التى تُدرس لهم.. لا تهدف إلا لتحديد أوائل الأشهر القمرية، وأوقات الصلاة بوساطة بعض الأدوات البدائية. وفى هذا الصدد، يومئ المهندس "شابرول" قائلاً: "إن المصريين الحديثين، يهملون العلوم الفعلية.. رغم أن أسلافهم قد طوروها ونَمَّوْها". ففى نطاق مصر الخامدة هذه منذ قرون عديدة، لم يتبقَّ الكثير من العلوم العربية المُبهرة.. ولا حتى حب استطلاع فعلى وحقيقى!

لقد وُجهت الدعوة لكبار الموظفين المصريين لحضور جلسات "المعهد". كما تُرجمت للشيخ "المهدى" تجربة "جيوفروا سان هيلير" على "الفهقة" (سمكة نهرية)، غريبة الشأن. فإنها، لكثرة ما استنشقته من الهواء، قد فقدت توازنها؛ وانقلبت على ظهرها. ثم غيرت شكلها لكى تقارب شبهًا الكرة. وهنا، تعجب الشيخ المصرى قائلاً: "ماذا؟!.. كل هذه العبارات من أجل سمكة واحدة؟!.. إننى أُشفق حقًا على المؤلف، إذا كان مُلْزمًا بأن يقول كل ذلك بالنسبة لكل نوع من الأسماك التى تعيش فى المياه". ثم أفاد قائلاً: "إن "القادر على كل شىء" قد خلق فى العالم الفسيح المدى أكثر من خمسين ألف نوع متباين من الأسماك". ولكن، بالنسبة للشيخ "البكرى"، فقد بيَّن عن لا مبالاة واضحة عندما قام "برتوزليه" بتقديم عدة تجارب كيميائية وكهربائية استاتيكية أمامه. فعندئذ، وجه سؤاله لهذا العالم الفرنسى، عما إذا كان علمه يسمح له،

بأن يكون، فى آنٍ واحد.. بمصر ومراكش!!.. وقد رأى "برتوليه" أن هذا السؤال يتسم بعدم المعقولية. وعبر عن رأيه هذا بهزّة من كتفيه. وهنا، صاح الشيخ، مسرورًا: "ها أنت ترى إذًا.. إنك لست ساحرًا بكل معنى الكلمة!..".

هذه إذًا مقابلـــة ناقصة.. أو بالأحرى حـــوار الطُّرْش. وأمام الإثباتات والبراهين العلمية من جانب الفرنسيين.. التى تُعد، بالأحرى إثباتات وبراهين القوة.. لم يكن أمام كبار موظفى الدولة المصريين، سوى ملجأ واحد فقط.. الإسلام. وأكيد، أن عدم مبالاتهم الظاهرية، كانت مجرد طريقة للحماية.. وكأن هذه العلوم المستوردة تهدد هويتهم!

الكتب خاصة، لتقاربها من ثقافتهم المكتوبة، كانت تثير اهتمامهم. ولم يكن يسعهم سوى أن يُعجبوا بمكتبة "المعهد"، وأن يُحدقوا بعيونهم فى أجهزة المطبعة. وعندما علم الشيخ "البكرى" أن هذه التقنية تسمح بنشر عدد كبير من نُسَخ كتاب واحد.. أبدى ملاحظته قائلاً، إن الكثير من الكتب العربية التى يجهلها الجمهور.. تستحق أن تُطبع! ثم أردف موضحًا: "أن كافة العلوم مصدرها الله. وأن الله عندما يريد، لن يكون هناك أى شيء مطلقًا لا يمكن أن يباشره الإنسان، وألا ينجح فيه". ولم يتوانَ المستشرق "مارسيل"، الذى يدير المطبعة الرسمية فى القاهرة، عن ترجمة ونشر الكثير من الكتب العربية؛ ومنها "قصص الحكيم لقمان". كما نشر أيضًا كتاب: "تمارين قراءة عربية حرفية، مقتطفة من القرآن، لمن يهتمون بدراسة هذه اللغة". بل إنه، بعد أن عمل على سبك أحرف خاصة، أصدر كتاب: "الأبجدية العربية، والتركية والفارسية".

تُرى، ما رأى المصريين حقًا فى هذا الغزو التقنى؟!.. فى واقع الأمر، إن المصادر الوثائقية المحلية المتاحة ـــ وربما الوحيدة ـــ هى حوليات "نيقولا تورك" و"عبد الرحمن الجبرتى". وأولهما مسيحى سورى؛ وربما أن ذلك قد يحدُّ من مدى شهادته. أما عن الثانى، فهو برجوازى مسلم من أهالى القاهرة، وينتمى إلى عائلة من العلماء

والبحَّاثة؛ وقد ترك وراءه مجملاً ذا قيمة لا تُقدر!!. وكان "الجبرتى" يُلاحظ "الفرنسيين من منظور ومفهوم عالم السلالات. كما أن حولياته تتسم بالأهمية؛ خاصة أنه طبع منها ثلاث طبعات متتالية: الأولى، أثناء الأزمة؛ أما الثانية، فهى فور انسحاب المستعمرين؛ وعن الثالثة، فهى لاحقة، وتتميز بالبعد والاعتدال. ولكن، نجد أن هذا البرجوازى الكبير يقدم فى كتاباته مرآة مشوهة لعقلية المصريين. فربما كان "الجبرتى" يفتقد سمة الشعبية!

ورغم صرامته تجاه الفرنسيين، فإن هذا المؤرخ لم يخص مطلقًا إعجابه بهؤلاء العلماء الذين يمضون أيامًا وليالى.. لتعلم اللغة العربية. وهكذا أيضًا، كان يُفتن ويُسحر أمام أية آلة بسيطة مثل عربة اليد ذات العَجلَة الواحدة. أو كما قال: "هذه العربات الصغيرة ذات الأذرع المستطيلة من الخلف". وفى إثر زيارته إلى معمل الكيمياء بالمعهد، توصل "الجبرتى" إلى هذا الاستنتاج: "أن هؤلاء القوم يُلمون بكَمٍّ كبير من الأمور، والتركيبات والاستنباطات غريبة الشأن. وهم يصلون إلى حيثيات لا يمكن تصورهـا". وها هو يُدون هذه الجملـة الرهيبـة لمواطنيه: "لقد أجْرَوا أمامنا أيضًا تجارب أخرى، تتشابه تمامًا مع السابقة فى غرابتها.. ولا تستطيع مداركنا أن تتفهمها.. فيالها من بائسة هذه العلوم العربية، لقد سقطت إلى أسفل دَرْك.. بعد كل مجدها وعظمتها!".

صراع الثقافتين

لقد تأثر شعب القاهرة بالتقنية الفرنسية، بوساطة ورش وأتيليهات "كونتيه". ومنذ ذاك الحين، تراءت عدة مسابك حدادة، وورش نجارة، وأماكن لصناعة الأسلحة، والساعات، والصياغة، وآلات دقيقة جدًا. وبمساعدة الكثير من المهندسين، والفيزيائيين، والفنيين، استطاع رئيس قائدى المناطيد أن يُنتج أيضًا: طواحين هواء، وماكينات لتنقية الحبوب،

أو آلات خاصة بعلم الفلك. وكانت كل ورشة تستعين بما لا يقل عن ثلاثمائة شخص. منهم عدد كبير من العمال، والمتدربين المصريين. وكانت بعض المنتجات تُعالج لدى صُناع محليين يتعاقدون من الداخل. هكذا إذًا، نرى أن "كونتيه" الأعور ذا العصابة هذا، كانت تنهال تجاهه عبارات المباركة.. أثناء تنزُهه فى شوارع القاهرة!

ولكن، نجد أن الأهالى، كانوا لا يُحبذون كثيرًا مظاهر شغل وقت الفراغ الجديــدة التى أدخلها المستعمر إلى بلدهم. حيث كان بعض المسيحيين قد فتحوا عــدة خمَّارات لاحتساء المشروبات بالطريقــة الأوروبية. وبها، كانت تُستهلك، ضمن الكثير غيرها، الجعَة الخالية من نبات الحنجل؛ التى صُنعت وفقًا لطريقة "المعهد". وكذلك افتُتح، فى نوفمبر عام ١٧٩٨، بإحدى الحدائق البديعة فى قلب المدينة، حيث تنبثق أشجار البرتقال والليمون مكانٌ للعب الميسر والمقامرة، على غــرار "التيفولى" الباريسى. وفى داخلــه، يحظى المشتركون بعدة صالونات، ومطعم، وقاعة قراءة؛ بل وكذلك بحمامات على الطريقة الأوروبيــة. وفى مكان البهجــة والسرور هذا، يتقابل بونابرت مع عشيقته المقبلة. إنها "بولين فوربس"؛ واسمها الأول "بليل". وهى زوجة شابة لأحد كبار الضباط بفرقة القناصة رقم (٢٢). وسرعان، ما أُسندت مهمة بعيدة المدى لهذا الشخص!!.. وقد اشتهرت هذه المرأة باسم "الجنرالة بليلوت". وكانت، من قبل تعمل تاجرة قبعات فى منطقة كاسكون بفرنسا. ولقد أطلقت على نفسها اسم "كليوباترا".. خاصة، بعد أن مرت من بين ذراعَىْ بونابرت.. إلى ذراعى خليفته "كليبر"!!

كما قامت بعض فرق الهواة بإخراج عدة تمثيليات مسرحية. وكُونت مراقص عامة أو خاصة. وفى الحين ذاته، كانت تُقام يوميًا بالمدينة حفلات موسيقى عسكرية. وتبعًا لما أمر به القائد الأعلى، كانت تُعزف كل يوم، ظهرًا أمام المستشفيات: "مختلف اللجان التى

توحى للمرضى بالبهجة والسرور، وتُصور لهم أجمل لحظات المعارك الماضيةْ".

ولكن، بدا نقص عدد النساء الأوروبيات قاسيًا على المشاعر. فإن اللاتى حضرن مع الحملة ــ أحيانًا بشكل مستتر، متخفيات فى هيئة رجال، مثل "بولين فوربس"، ــ يقل عددهن عن ثلاثمائة وخمسين امرأة. ولوحظ أن الاستعانة بالبغايا المحليات، يشكل خطرًا. بل إنهن، أنفسهن يستوجبن القتل غرقًا.. فى حالة "تعاملهن" مع الكُفار!!.. وعلى ما يبدو، أن هذه العقوبة قد طبقتها بدورها السلطات الفرنسية فى القاهرة: على الأقل مرة واحدة فقط، لدواعٍ صحية!

وأخيرًا، بقيت إمكانية شراء رفيقة محلية. ولكن، سرعان ما تراءت خيبة الأمل؛ خاصة إذا صدقنا "أنطوان جالاند" المصحح بإحدى المطابع. فهو يقول: "إن المصريات متأججات وشَبِقات. ولكنهن، مع ذلك،لا يعرفن كل هذه التوافه الجميلة الصغيرة.. هذه المقدمات الساحرة، التي تشع متعة وجاذبية؛ التى تضاعف من مشاعر اللذة ما بين عاشقين. فإن كل ذلك، لا يعدو أن يكون، فى نظرهن، سوى هراء.. بل إن الأمر يقتضى الوصول فورًا إلى الهدف. إنهن قد اعتدن اعتبار الرجل بمثابة سيدهن، أو لنقل: مخلوق أعلى. ولذا، فنادرًا ما يقاومن فى لحظات الانفراد".

لقد تم التأقلم بمصر رويدًا رويدًا. فها هم الكثيرون من العلماء والفنانيــن، اختــاروا احتساء القهوة التركيــة ويُدخنون النرجيلــة (الشيشة). وأطلقوا لِحَاهم وشواربهم. فقد اكتشفوا، مثل "جيوفروا سان هيلير": "أن الذقن العارية.. هى علامة العبودية". وقد كتب عالم الحيوان هذا لزميله "كوفييه" فى شهر يونيو ١٧٩٩ قائلاً: "إننى أعيش فى هدوء تام. وأنشغل، على التوالى بالتاريخ الطبيعى، وبجيادى وبأسرتى الصغيرة السوداء: التى أوليتها مؤقتًا حنانى.. غير اللازم بعائلتى الأوروبية. فقد اشتريت بحوالى مائتين وخمسين فرنكًا طفلاً

فى الحاديــة عشرة من عمره. ودربتــه على العنايــة بمجموعاتى، وتصبير بعض الحيوانات. ومنذ ذاك الحيــن، مُنحت امرأة زنجيــة ماهرة للغاية فى أعمال المنزل. وها أنا أقول، لكى أطمئن أصدقائى الجمهوريين فى باريس: إن العبودية تختلف هنا عما تبدو عليه فى أمريكا. إنها نمط من التبنّى الفعلى".

يجدر القول، أن الوجود الفرنسى كان يلقى استحساناً من جانب الأهالى. ففى إطار المناطق التى يُهيمن عليها الجيش، كان الفلاحون يحظون بالحماية ضد غزوات البدو وهجماتهم. وفى القاهرة، كان التــجار ينعمون ويسعدون بهذا النــمط من الزبائــن ذوى المقدرة الشرائية الجديدة. أما الفرنسيون، فكانوا يستعينون بمجموعات خدم وعاملين ويعطونهم أجورًا مناسبة. ومع ذلك، كانت هناك أسباب كثيرة تسبب الضيق أو الصدمة.. بسبب عادات المستعمر وتقاليده. فها هم، على سبيل المثال، بعض الجنود الصاخبين الكثيرى الصياح، يكونون سباقات حمير فى قلب المدينة! أما النساء الفرنسيات فكن يخرجن إلى الشوارع "مكشوفات الوجه"؛ وهن يمتطين حميرًا أو جيــادًا ويــطلقن ضحكات صاخبــة بأعلى أصواتهن، ويمزحن مع مُؤجِّرى الركوبات والأشخاص السوقيين (الجبرتى). ومما يزيد الأمر سوءًا: أن نساء البلد قد بدأن يقلِّدنهنَّ!!

لقد ثــار الأهالى خاصــة بسبب سلسلــة من الإجراءات التى لا يستوعبونها، ويجدونها تنم عن التمييز العنصرى، وفاضحة شائنة. إن بعضها كان ذا سمة سياسية بحتة: مثل ضرورة وضع شارة أو وردة حريرية ثلاثية الألوان؛ حيث كانت قد فُرضت؛ بدون أى نجاح، فى سبتمبر عام ١٧٩٨ وأبدى كبــار الموظفين المصريــين امتعاضهم ورفضهم لوضع "إيــشارب" ملون بالأزرق والأبيــض والأحمر.. حيث كان يُقدم لهم بمثابة تكريم. وحتى إذا كانوا يرتدونه خلال جلسات "الديوان".. فإنهم يُسرعون إلى خلعه، وهم ينصرفون!

وتراءى أن بعض الإجراءات الأخرى قد اتُّخذت لدواعٍ صحية، مثل: التنظيف الإجبارى للشوارع مرتين يوميًا؛ ورفع القاذورات. وحُظر تمامًا دفن الموتى بداخل المدينة. كما اتُّخذت إجراءات مراقبة وتفتيش "كونترول" بداخل المنازل للتأكد من اتخاذ الاحتياطات ضد الطاعون. قطعًا، إن كل ذلك، من وجهة نظر المسلمين.. يُعد بمثابة انتهاك غير مقبول للحياة العائلية!!

بالإضافة لذلك، فإن إجراءات الأمن والأمان، لم تُستقبل استقبالاً حسنًا. خاصة، إذا كانت تتجسد من خلال هدم أبواب الأحياء، أو النقل الإجبارى لبعض السكان القاطنين قريبًا من "القلعة": حيث كان من المُزمع تنفيذ بعض أعمال التحصين والتسليح.

ولكن، بوجه خاص، نجد أن التنظيمات الاقتصادية، هى التى أثارت القاهريين. فلقد تم الاستيلاء على أعداد من الجياد والجمال والبغال وتسخيرها لمتطلبات الجيش الفرنسى! وكذلك، من أجل مراجعة حقوق التسجيل وفحصها، استطاعت السلطات الاطّلاع على الوثائق والمستندات الشخصية: المتعلقة بالميراث أو المنشآت الدينية، المنبثقة من القانون الإسلامى.

ويتبين أن مشاعر السخط والغيظ، قد استُغلت بكل مهارة من جانب العملاء العثمانيين. فإن الرواية الخيالية عن أن بونابرت قد جاء لتحرير مصر من طغيان المماليك وجبروتهم.. لم تعد تُقنع أحدًا. فمن الواضح أن الفرنسيين، الشديدى الثقة فى سيطرتهم العسكرية؛ أو لأنهم غير قادرين على تفهُّم حقيقة ما يحدث.. سوف يدفعون الثمن باهظًا.

بتاريخ الحادى والعشرين من أكتوبر عام ١٧٩٨؛ ومن خلال عظات ومواعظ ملتهبة ومتأججة، أخذ بعض العلماء الثانويين يدعون الشعب للتمرد والثورة ضد الكُفار. وفى تمام الساعة السادسة صباحًا، وعلى نداءات تقول: "نصر اللـه الإسلام" اندفعت جماهير حاشدة

مسلحة بالعِصِىّ والهرّاوات، وقضبان حديدية وأسلحة بدائية أخرى.. إلى مهاجمة بيوت الأوروبيين والمسيحيين.. وضمن أول ما هُوجم: منزل "كافاريللى" القائم جانبًا إلى حد ما. ولم يكن الجنرال فى بيته وقتئــذ: ونُظمت حركة مقاومة ضئيلــة من جانب القادة العسكريين والعلماء والخدم الحاضرين. وقــد لقى مصرعــه رئيس المهندسين الجغرافيين، المدعو "تيستفويد" الذى كان يحاول الخروج. وبدورهما أيضًا المهندسان بالكبارى والطرق "دوفال"، و"تيفينو"، قُتلا عند اقتحام البيت. واندفعت جماهير هوجاء إلى تحطيم الأجهزة العلمية العديدة القائمة هناك. بالإضافة أيضًا إلى عدة مذكرات نادرة.

وعمل كل من العلماء والفنانين، على التنظيم بشكل أو بآخر للدفاع عن "المعهد" الذى كان يبعد بحوالى كيلومترين فحسب، من مركز القيــادة. ويــقول "جولوا"، فى هذا الصدد: "لم نــكن مسلحين مطلقًا. وبــدا واضحًا التقدم الرهيب الذى أحرزتــه الثورة. ومكثنا ملتزميــن بصيحــة الحراسة: "مَنْ هنــاك"، حتى المساء، وانطلقت الصيحات من فوق قمة المآذن.. التى تهيب بالشعب، بالأحرى أن يثور، لا أن يتوجه للصلاة. ولا شك أن هذه الصرخات، كانت تُلقى فى نفوسنا رعبًا وهلعًا لا يمكن وصفه!!".

نجحت القيادة العليا فى إمداد المُحاصَرين بحوالى أربعين بندقية. وقد أكد "فيفان دينون"، هذه الحال قائلاً بتهكم: "لقد جُند جميع العلماء وحُدد البعض لكى يكونوا رؤساء. وحقيقة أن كل منهم كان له خطتــه. ولكن، لم يفكر أحد فى الإطاعــة. ولكن "مونج"، ــ ودائمًا هو ــ تولى إدارة العمليات. وفى ذات الحين، كان الكثير من زملائه يــهدمون أحد الأسطح، لكى يــتمكنوا من اتخاذ الحجارة لرشق المهاجمين. ومضى الليل فى هَمٍّ وغَمٍّ بالغيْن. ولكن.. لم تــقع أى حرب فى المعهد.

في اليوم التالى، الثانى والعشرين من أكتوبر، أمر بونابرت بإطلاق المدافع ضد الثائرين، الذين تجمعوا ثانية وأقاموا عدة متاريس وحواجز. وأمضى الجنود الفرنسيون الليل كاملاً فى إعادة احتلال قلب المدينة. ثم اقتحموا جامع الأزهر فوق جيادهم. وحطموا كل ما وقع تحت أيديهم. ودنّسوا الأماكن بالبول والبراز. وأخذوا يحتسون الخمر ويحطمون زجاجاتهم فوق الجدران. ولقد سارع المستشرق "مارسيــل" إلى هــذا المــوقع، وحاول إنقــاذ بعض المخطوطات الثمينة النادرة، ونسخة من القرآن، مكتوبة فوق جلد جمل.

لقد تمخض التمرد عن قتل ثلاثمائة فرد من الجانب الفرنسى. ولكن، عند المصريين، فيحتمل جدًا أن العدد كان عشرة أضعافه!!.. وضمن الضحايا: الجراحان "مانجين" و"روسل"، وكذلك الجنرال "سولكوفسكى"، أحد أعضاء "المعهد" الذى كُرم بهذه الأبيات:

كان عالمًا بدون أن يعلم

فى كافة العلوم، حقق نجاحات

وإذا كان فى فن الحروب قد حقق المزيد من النجاح،

فلأنه قد اختار أفضل الأساتذة.

خلال الأيام التالية، بدت أعمال القمع والردع بلا رحمة. فكان يتم قطع رؤوس المحركين المفترضين للتمرد. ثم تُلقى أجسامهم فى النيل!.. ولقد اعتقد بعض الأهالى إنه من الحكمة أن يشبكوا، بدبوس الشارة الثلاثية الألوان فوق صدورهم، أو فى شعورهم. ولكن، كانوا يُعتبرون غير جديرين بحملها..

وربما أن بونابرت كان قد فقد بعض توهماته.ولكنه، مع ذلك، استمر فى لعبة التفاهم والتوافق مع الشعب المصرى. حيث كان يتخذ كبار موظفى الدولة كوسطاء. وهب بعض المسئولين الدينيين وعدد

من زعماء الطوائف يطلقون نداءات لتوخّى الهدوء والسَّكينة. بل وتعهدوا للعمل على استتباب النظام. كما بينت جريدة "أنباء مصر": "أن أغلبية الشعب.. لم يشارك فى الثورة.. وبالتالى، لا يستوجب الأمر "القسوة الجماعية""!

ومما يثير العجب، أن العلماء والفنانين، هم أكثر الذين انتقدوا هذه الوداعة واللطف النسبى. ولماذا إذًا تملق وملاطفة بعض الشيوخ المُسنين.. المعروف عنهم أنــهم قــد شجعوا، أو بالأحرى، قــادوا العُصاة. ولقد أفصح المهندس "جراتيان لوبير" عن ذلك، بشىء من المواراة: "ليس من حقى أن أتحدث عن الاعتدال الذى عبر عنه القائد الأعلى، تجاه شعب فظ غليظ، جاهل، مُتطّير، وعنيف قاسٍ. ولكننى أعتقد، أنه قد توجد أحوال، يتراءى خلالها جيش منتصر، ويجب أن يطيع طاعة عمياء جنراله.. وهو حقًا يلتزم الطاعة كاظمًا غيظه!!". أما عن "فيفان دينون"، فقد عبر عن ذلك بشكل أكثر مباشرة، من خلال خطاب إلى الجنرال "مينو" الذى بقى فى رشيد: "حقًا، لقد تسبب أول برومر(*)، إلى حد ما فى تمزق الحجاب البشرى الإنسانى الذى كان ينسدل على مصر!!.. وعلى ما أعتقد أن الضرورة تلزم، بكل بساطة.. أن نكون الأقوى. عمومًا، إن ذلك عُدَّ كمبدأ فى القرآن. ونجد، خلاف ذلك أن المسيحية تبدو معسولة أكثر مما يجب؛ وهم يعتقدون أننا كذلك..".

أما "فورييه"، من جانبه، فقد اعتقد أنه يجب أن يفرض وجهات نظره على بونابرت.. الذى أعاده ثانية إلى مكانه بأسلوب لاذع. فقد ذكر القائد الأعلى، لــ"ديزيجينت" قائلاً: "لقد جاء ليخبرنى بما يجب أن أفعله. وعليك أن تتخيل تمامًا، كيف استمعت إليه! ففى البداية، أعلمته أن الموضوع قد انتهى؛ وأن إجراءات العنف والصرامة التى

(*) برومر: شهر الضباب أو الشهر الثانى فى روزنامة الثورة الفرنسية.

يقترحها علىّ، لا تُعتبر إنسانية. وأن الجبناء، هم الذين يُبدون دائمًا مثل هذه الآراء المتطرفة..".

بوجه عام، لم تكن الأحوال تسمح بانفجار تمرد جديد. فقد أصدر بونابرت أمره بإعادة تجمع الفرنسيين بالقاهرة، فى المركز ذاته. كما طلب من بعض الأهالى المصريين بالأزبكية، أن يتركوا منازلهم. وها هى أيضًا، عدة تحصينات مثل تلك الخاصة بالمعهد، قد تكاثرت بمختلف أماكن المدينة.

فى الحادى والعشرين من ديسمبر، من خلال نداء رسمى، عمل القائد الأعلى على التحالف ما بين عقيدة القوة وعقيدة الدين. ووجه كلماته إلى العلماء المسلمين بقوله: "عليكم أن تحيطوا علمًا مواطنيكم وطوائفكم، أن من يثور ضدى ويتمرد علىّ.. فإنه يلقى بنفسه فى عصيان لا يُعد سوى ضلال وفساد للعقل.. فلتُعلموا شعبكم، أن الله أمر، إلى أبد الدهر بتدمير أعداء الإسلام، وتحطيم الصلبان بيدىَ ذاتهما.. وسوف يأتى اليوم والساعة، التى يتجلى لكم خلالهما، بشكل واضح جَلىّ.. أن كل ما فعلته أو صرحت به ليس سوى الحكم الذى لا رجعة فيه من الله..".

واستتب النظام ثانيةً. وعند اقتراب عيد رأس السنة ١٧٩٨، وجد بونابرت أنه يمكنه مغادرة القاهرة.. لكى يجسد أحد أحلامه القديمة: شق قناة السويس!

(٤)
من بحـــرٍ لآخـــر

أوكلت "حكومة المديرين" لبونابرت مهمة محددة: "أن يـستولى على مصر، ويطرد الإنجليز من كافة الأملاك بالشرق، بأى مكـان يمكنه الوصول إليه. وأن يعمل خاصة، على تدمير الوكالات التجارية المتاخمة للبحر الأحمر. وكذلك، أن يشق مضيق الـسويس؛ ويتخـذ كافة الإجراءات اللازمة.. لكى ييسِّر الامتلاك الحر الخاص للبحـر الأحمر، على الجمهورية الفرنسية".

ها هى كلمات ثلاث قليلة صغيرة، قد دُست فى هـذا القـرار الرسمى الصادر فى الثانى عشر من أبريل عام ١٧٩٨.. وهى تمثل، بمفردها جبلاً شاهقًا! "شق قناة السويس": يُفترض شق لسان الأرض الصحراوية، التى يصل عرضها إلى مائة وستين كيلومترًا، والتـى تفصل ما بين البحر الأحمر والبحر المتوسط. وقد يعنى ذلك، بكـل بساطة، تغيير خريطة العالم!!.. ها هو إذًا مشروع علـى مـستوى جنرال فى التاسعة والعشرين من عمره، اسمه "نابليون بونابرت"..

تُرى، هل هذا حلم؟!.. ليس ذلك فحسب. فإن هـذين البحـرين كانا قد رُبطا من قبل ببعضهما بعضًا، لمرات عديدة، علـى مـدى

التاريخ: بداية، فى عصر الفراعنة؛ ثم، فيما بعد خلال عصرَى الفرس والبطالمة؛ وأخيرًا، عند استهلال الفتح العربى. ولكن، خلال كافة هذه العصور، لم يكن الأمر يتعلق إلا بسياق غير مباشر. فإن البحر الأحمر كان يتصل بالنيل بوساطة قناة واحدة أو قنوات متعددة. وهكذا، كان فرع واحد فقط من النهر هو الذى يربط البحر الأحمر مع البحر المتوسط.

وأكيد، أن هذه الطرق المائية العتيقة، لم تكن أبدًا ملائمة لاستقبال سفن البحار العميقة. بل لم تكن تمثل فعلاً وصلة دولية. ولكن، مجرد وسيلة ما، لربط وادى النيل بالبحر الأحمر، من أجل إرسال المنتجات المصرية فى الخليج العربى. أما عن قناة الفراعنة"، التى سُمِّيت فيما بعد بـ "قناة تراجان"، فقد أُطلق عليها فى نهاية الأمر اسم: "قناة أمير المؤمنين" من جانب العرب. ولكنها رُدمت فى عام ٧٦٢؛ وبالتالى توقف استخدامها نهائيًا. وبذلك، حُرمت من المصادر "المدينة" (المنورة)، التى كانت قد تمردت ضد الخليفة القائم.

وحتى بدون وجود قناة، فقد استمر طريق الهند فى إتاحة المرور من خلال صحراء السويس. حيث كانت البضائع تصل عبر البحر الأحمر. وعندئذ، كانت تُحمل فوق ظهور الجمال حتى مدينة *القاهرة. حيث تُنقل، بوساطة السفن حتى البحر المتوسط، هبوطًا* لمجرى النيل. ولكن، كل شيء قد تغير، عندما اكتشف "فاسكو دا جاما" طريق رأس الرجاء الصالح، فى عام ١٤٩٧.

وكان ذلك، بمثابة خراب بالنسبة للمصريين؛ وكذلك للتجار البنادقة (من البندقية بإيطاليا).. لأن التجارة قد فضلت عندئذ الالتفاف حول أفريقيا. وربما كان الطريق الجديد أكثر مدًى من الآخر. ولكنه، على أية حال، كان يتسم بميزتين هائلتين: لم يكن هناك أية ضرورة

لنقل البضائع من سفينة إلى أخرى؛ وأيضًا عدم مقابلة أو مجابهة المسلحين الكارهين دائمًا لإبحار المسيحيين قرب مكة.

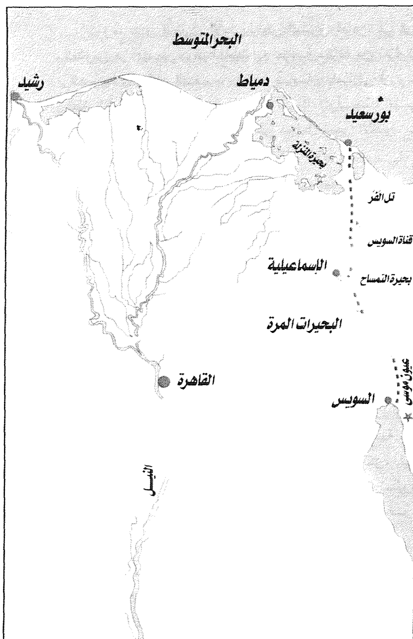
تُرى، كيف كان يمكن مقاومة طريق رأس الرجاء الصالح؟!.. عمومًا، ها هو القائد الكبير التركى "الإيولدج على"، فى عام ١٥٨٦ يقترح وصل النيل بالبحر الأحمر. واندفع بعض أهالى البندقية، فى الفترة ذاتها، يدافعون عن فكرة شق قناة: "بحيث يتحتم بناء قلعتين عند كل من مصبه، حتى لا يتمكن آخرون من دخوله!..".

وفى عام ١٦٧٢، اقترح الفيلسوف الألمانى "ليبنز" على "لويس الرابع عشر" أن يستولى على مصر: "الأرض المقدسة، الواصلة ما بين آسيا وأفريقيا.. العقبة القائمة ما بين البحر الأحمر والبحر المتوسط، مخزن غلال المشرق، ومستودع كنوز أوروبا والهند". ولم يرد عليه "الملك ــ الشمس". ولكن وزيره "كولبرت" سارع إلى تأسيس "شركة الهند". بل وحاول أن يُقنع السلطان، بأن عودة التجارة إلى البحر الأحمر، سوف تُتيح لـ "الباب العالى".. أن يستعيد حقوقًا جمركية مهمة. وفيما بعد، أخذ الكثير من رجال السياسة، والتجار، والرحّالة والكُتّاب ــ من "مونتسكيو" إلى "فولتير" ــ يدافعون عن فكرة الربط ما بين.. بحرين. وكان آخرهم تأريخًا، هو "ڤولنى" الذى نشر كتابه: "الرحلة إلى مصر وسوريا" فى عام ١٧٨٧؛ وكان له تأثير قوى على الأفكار. ومع ذلك، فلم يجد أحد الفرصة لدراسة المشروع.. ولكن بونابرت، سيد مصر يستطيع أن يفعل ذلك. ووفقًا لما ذكرته "حكومة المديرين": إن شق المضيق، سوف يسمح بالقضاء على "الخيانة الفاضحة الدنيئة، التى تمكنت إنجلترا من خلالها من الاستيلاء على رأس الرجاء الصالح، وجعلت من الصعوبة للغاية، على سفن "الجمهورية"، الدخول إلى الهند".

بونابرت .. عند موسى !

بتاريخ ١٧٩٨، سلك الجنرال "بون"، بصحبة اثنى عشر ألف رجل، الطريق الخاص بالقوافل. وعبر الصحراء التى تفصل ما بين القاهرة والسويس. ونجد إن هذه الضيعة البائسة الواقعة على ساحل البحر الأحمر، لم تكن تتضمن أكثر من حوالى ثلاثين منزلاً. وكانت تفتقر إلى المياه الصالحة للشرب. وليس بها أى نمط من الصناعات. وتبدو أرصفة مينائها فى حالة متردية للغاية، لدرجة أن القوارب والزوارق المستطيلة لا تستطيع أن ترسو عندها فى حالة ارتفاع المد. كما تستدعى الضرورة الاستعانة بالصنادل، من أجل التحرك إلى عرض البحر أو الرُسُوِّ. ومع ذلك، فإن السويس تحظى بموقع استراتيجى نادر المثال. فمنها ينطلق الحُجاج إلى مكة؛ وكذلك، صادرات مصر إلى آسيا؛ مثل: الأرز، والزعفران، والكتَّان أو النطرون.. وإليها أيضًا يصل البن من اليمن، والتوابل والقماش الشفاف من الهند، والعطور، واللآلئ والصمغ من الجزيرة العربية. ويُلاحظ أن التجارة تقع تحت أيدى اليونانيين، فهم يملكون حوالى ثلاثين مركبة، وسفناً شراعية، فائقة البطء، صُنعت من لحاء نخيل البلح. ويُعتبر البحر الأحمر صعب الإبحار. فهو يتسم بالضيق، ويخضع لرياح غير مواتية. ويتضمن الكثير من الشِّعاب المَرْجانية؛ تُلزم السفن بأن تتذبذب ما بين سواحله وهى تغير من ربط الشاغول كل ساعتين أو ثلاثة.

استولى الجنرال "بون" على السويس بدون طلقة نيران واحدة. وسريعًا، فإن أربعة قوارب كانت قد نُقلت مُجزأة فوق ظهور عدة جمال، وتم تركيبها ثانيًا، وأصبحت جاهزة؛ زُوِّدت بالمدافع. وأخذ العلم الثلاثى الألوان يرفرف فوق الميناء. وها هو الطريق قد أصبح مُتاحًا لبونابرت!..


البحر المتوسط
رشيد
دمياط
بورسعيد
بحيرة المنزلة
تل الفَر
قناة السويس
الإسماعيلية
بحيرة التمساح
البحيرات المرة
القاهرة
السويس
عيون موسى
النيل

بدوره، غادر الجنرال الأعلى لجيش المشرق القاهرة فى الرابع والعشرين من ديسمبر. وقد أحاطت به حراسة مكونة من ثلاثمائة مرشد وجندى. وكان الهدف من سفره، سياسيًا وعلميًا فى آنٍ واحد. ويتعلق الأمر، عندئذ، بالهيمنة على بدو سيناء؛ وأيضًا، تطوير العلاقات وتقويتها مع القوى القائمة على سواحل البحر الأحمر. بل وكذلك، بدراسة الأراضى.. لغرض شق قناة السويس!

لُوحظ أن الكثير من العلماء والفنانين قد رغبوا فى الاشتراك بالرحلة. ولا ريب أن بونابرت قد اختار "مونج" و"برتوليه"؛ بالإضافة إلى "جاك مارى لوبير" رئيس المهندسين بمؤسسة الكبارى والطرق والمهندس "كوستاز"، والكيميائى "ديسكوتيل"، والرسام "دوترتر". أما من جانب الجنرالات، فقد تقرر اختيار: "برتييه"، و"دومارتان"، و"كافاريللى". وبالنسبة لأفراد الحرس، سواء كانوا مترجّلين أو على ظهور جياد، فقد أخذوا معهم مدفعًا. وفى الحين ذاته، حُمّلت الجمال بالمياه، وبمؤونة غذائية تكفى عشرة أيام. وها هم بعض التجار، الذين يرتبطون بعدة أعمال بالسويس، قد انضموا إلى هذه القافلة. وأكيد، أنهم، لم يسافروا أبدًا من قبل بمثل هذا الأمان والأمن. وللمرة الأولى، شُهدت مركبة برلينية (مركبة كبيرة مقفلة ذات أربعة مقاعد صُنعت أصلاً فى برلين)، بستة جياد.. عبر الصحراء. ولكن، بالرغم من أن هذه المركبة كانت قد جُهزت وخُصصت من أجل بونابرت، فإنه لم يشغلها مطلقًا. فقد كان يفضل الانطلاق بجواده، بمفرده، متقدمًا الجميع.. حرًا فى تحركاته.

لا تُرى أية آثار لنباتات، عبر هذا التلاحق والتوالى لهذه المناظر الطبيعية المهيبة. فليس هناك سوى مساحات من الرمال اللامعة المتألقة وصخور عارية. وبعد مسيرة طويلة المدى فى الصحراء، كانت القافلة تحاذى فى سيرها، طوال ثلاث ساعات، تسلسلاً من الهضاب البيضاء اللون. ثم بدأت تظهر تتابعات من

الصخور الجيرية المغطاة بالحَصَى والحصب المتدحرج. ومن فوق القمة، اكتشف الفرنسيون واديًا فسيح الأرجاء قد شقه مجرى السيول ومياه الأمطار؛ وتناثرت فى أنحائه بعض النباتات. وقد شوهد عدد من طيور النعام أو بعض الغزلان. بل وكذلك، نسور وصقور متجهة من الجبال المجاورة على أتم استعداد للانقضاض على أية فريسة. وعلى جانب الطرق، بينت بعض الأهرام الحجرية الصغيرة عن مقابر الحُجاج الذين تُوفُّوا خلال الرحلة.

إذا كانت الليلة الأولى قد أُمضيت بمركز محصن قائم فى "بركة الحاجي" فإن الثانية قد قُضيت فى وسط سهل مُعرض للرياح، ولا يضم سوى شجرة واحدة فقط: الطقوس التى تعرفها كافة القوافل. وحقًا، كان الإغراء شديدًا، لكى نقتطع منها عدة أفرع لإشعال شىء من النيران. ولكن، لا شك أن ذلك كان سيجر فى أعقابه نقمات ولعنات من جانب المرشدين. لأن جميع الرحالة فى هذه الصحراء يُكنون احترامًا وتوقيرًا.. لمعجزة الطبيعة هذه. وأمر بونابرت بإقامة خيمته أسفل الشجرة، لكى يمنع أى إنسان من تشويهها. عمومًا، لقد حصلنا على التدفئة، بإحراق كومة كبيرة من العظام: فاستهلالاً من بداية الرحلة، بدت بقايا البشر والحيوانات، كعلامة للطريق فى الصحراء.. وأسفاه!.. إن هذه النيران الجنائزية المرعبة قد لوثت الجو برائحة نتنة. ولذا، استدعى الأمر نقل المعسكر من مكانه..

بمصاحبة القادة الآخرين، تقدم بونابرت القافلة، حتى يصل سريعًا إلى السويس. وأخذ يتفحص النظام الدفاعى بالميناء. ثم، أصدر عدة أوامر لتحسينه. وقد استقبل سيد مصر بعض قباطنة سفن قادمين من الحجاز أو اليمن. وأكد لهم حسن النوايا والمشاعر من جانب الجمهورية. كما أنبأهم بإزماعه تخفيض الضرائب الجمركية على البن. وكذلك، تمت عدة اتصالات مع البدو، حيث كان يريد التأكد من تطبيعهم، وعند انتهاء هذه الإجراءات السياسية، توجه

الجنرال بصحبة معينة، ممتطين جيادهم إلى منابع المياه الشديدة الملوحة.. المُسماة بـ "عيون موسى". وهناك، التقى بهم العلماء، الذين كانوا قد وصلوا، عن طريق البحر على متن زورق مسلح.

تم عبور فرع البحر الممكن عبوره، والذى يتسم بأقصى درجات الحذر. عامة، فإن التعرف على الأماكن، الذى استُهل منذ الصباح الباكر، قد استمر حتى بداية الليل. ونجد أن هذه المنابع، تمثل، على سطح الصحراء ما يشبه الأكمات الصغيرة المخروطية الشكل. وتتراءى المياه المتفجرة من الفوهات؛ وهى تنساب على السطح من خلال قنوات طبيعية. ثم تمتد على الساحل وتهيئ نمو نباتات من الأشجار الصغيرة ونخيل البلح. وهكذا، بعد بضعة شهور، من خلال أحد تقاريره لـ"معهد مصر" أومأ "مونج" قائلاً: "إن عيون موسى تمثل ظاهرة هيدروستاتيكية فريدة من نوعها".

فى تمام الساعة التاسعة مساء، عندما عاد العلماء عن طريق البحر، أخذ القنّاصة والخيَّالة التابعون لمقدمة الفرقة يصيحون: فإن جيادهم كانت تنغرس فى الأرض!.. وعلى ما يبدو أن المد.. كان قد أخذ يرتفع. وفى هذا الصدد، قال نابليون، مما يعد "بالمذكرات" فى سانت هيلانة: "لقد تمت مناداة المرشدين. وكان الجنود قد تسلوا بالسُكْر بوساطة ماء الحياة (شراب مُسكر).. واستحال تمامًا، أن نحصل منهم على أية معلومات". أما عن القناصة ـــ الخيالة، فكانوا يخلطون ما بين فانوس مرمى المدفع.. وبين أضواء السويس!! وفى الساعة الثانية والعشرين، بهذه الليلة غير المُقمرة.. بدا الأمر حرجًا للغاية!.. فالجياد، قد ارتفعت المياه حتى مستوى بطونها. أما عن بونابرت، فإنه، رغم أن قدميه قد بُللتا بالمياه.. قد وجد السبيل لإطلاق جملة تاريخية جديدة: "هل عسانا جئنا هنا، لكى نفنى مثل فرعون؟!!".

لحسن الحظ، وجد الجنود مَخْرَجًا. وبسرعة، لحقنا بهم. ولكن الجنرال "كافاريللى" كان مرتبكًا، بسبب ساقه الخشبية.. فلم يستطع تخليص نفسه. وفى لمح البصر جرى نحوه مارشال شاب لإنقاذه: أُنعم عليه بعد ذلك برتبة "بريجاديه"، كما تلقى سيفًا يحمل عبارة: "عبور البحر الأحمر". عمومًا، لقد سلم الجميع. وانحصرت الخسائر فى مجرد عدة بنادق صغيرة، وعدد من المعاطف. وفقًا لما ذكره نابليون: "كما برئت ذمة كافاريللى من ساقه الخشبية. وكان ذلك، عامة، يحدث له كل أسبوع!".

فى اليوم التالى، ها هو بطل الأهرام، قد ترك خلفه معظم أفراد القافلة؛ وتوجه بصحبة القادة الآخرين و"جاسبار مونج"، نحو الشمال.. بحثًا عن القناة التى كانت، فى العصور القديمة، تربط ما بين السويس والنيل!.. ووفقًا للسرد الرسمى، يتبين أنه كان الأول الذى تعرَّف على آثار هذا المجرى المائى.. الذى كان قد أُهمل تمامًا خلال القرن السابع. وتوغلت المجموعة كلها بداخل حوض هذه القناة العتيقة.. حيث تناثرت بعض بقايا بناءات. وسار أفرادها.. حوالى أربعة فراسخ حتى وصلوا إلى البحيرة المُرَّة الصغيرة.

مرت ساعات عديدة، وقد لمحنا "عجرود"؛ وبدأت الشمس تميل للمغيب. وهنا، صار الطريق الذى يجب سلكه موضع جدال. تُرى، هل سنضلُّ طريقنا فى الصحراء.. بعد أن كدنا نغرق أمس فى عيون موسى؟!.. وها هما بونابرت والجنرال "برتييه"، وقد رافق كل منهما أحد الرجال، يتقدمان أمامًا.. ويركضان فوق جواديهما فى اتجاه شمس المغيب!.. وعند الوصول إلى "عجرود" أمرا بإطلاق المدافع كل ربع ساعة. وقد تم إشعال بعض النيران فوق مئذنة المسجد؛ وعدد من فوانيس الإشارات على الطريق الذى سلكناه لتوّنا. ولحسن الحظ، أن المواطن "مونج" قد وصل بعد ذلك سالمًا مع مرافقيه.. مضيفًا بذلك مغامرة جديدة إلى إقامته فى مصر!

خطأ مداه عشرة أمتار

عند رجوعه إلى القاهرة، كلف بونابرت "جاك مارى لوبير" بدراسة عملية شق قناة السويس. وبذا، تقرر أن يعود رئيس المهندسين فى الكبارى والطرق هذا إلى الموقع، بداية من السادس عشر من يناير، وبرفقته عدد كبير من المتعاونين: العالم الجغرافى "كورايوف"، والفلكى "نوييه"، وأخيه "جراتيان لوبير"، وهو مهندس أيضًا.

لقد حظيت مجموعة "لوبير" بطاقم حراسة يتكون من أربعين جنديًا ينتمون إلى "الجوقة المالطية"؛ وكذلك اثنى عشر حفارًا. وبعد أن قامت هذه المجموعة بتحديد الموقع الفعلى للسويس، وراقبت مد وجَزْر البحر: استهلّت تمهيد المضيق وتسويته؛ أى بمعنى أدق: قياس مختلف ارتفاعات الأرض عن سطح البحر.

ولقد اتخذت المجموعة كقاعدة، سطحًا أفقيًا يرتفع إلى ١٥٠ قدمًا فوق مستوى سطح البحر، عند أعلى ارتفاع للبحر فى السويس، فى الرابع والعشرين من يناير عام ١٧٩٩. اعتبارًا أن هذا المد هو أعلى مستوى ارتفاع يبلغه البحر الأحمر. وتجدر الإشارة إلى أن هذا المستوى قد ذُكر من خلال تصميم على لوحة مثبتة فوق البوابة الشمالية الكبرى بدار البحرية فى السويس. كما أن كافة العلامات المتعلقة بالمستوى، ترتكز على هذه النقطة.

والجدير بالذكر أن الأدوات الخاصة بالطبوغرافيا(*)، التى رغبت البعثة فى أن تكون فى حوزتها (مثل: المستويات ذات فقاعات الهواء والنظارات)، قد فُقدت خلال غرق السفينة "باتريوت"، قبل ذلك بستة أشهر؛ أو من خلال عمليات سلب ونهب منزل كافاريللى خلال ثورة القاهرة. كما يتبين أن ورش "كونتيه" ليس لديها الإمكانات

(*) طبوغرافيا: تخطيط مفصل لمكان معين.

لإنتاج أدوات بمثل تلك النوعيـة. وخاصـة، يـستعين المهندسـون بمستوى ذى نظارتين متقاطعتين، باتجاه معاكس. ثم، ها هـو أمـر عارض آخر ضمن الكثير غيره: "تبدو مقابيس مساحات الأراضـى متدرجة بالمتر. وفى الحين ذاته، تتراءى أهـدافها مقـسمة بالقـدم والبوصة!.. وغالبًا ما تعوقهم بعض الظواهر النظرية الناجمة مـن الانعكاس وتخلل الرمال فى أدواتهم!

بدأ الفرنسيون العمل فى مجرى القنال القديمة، ثم سرعان مـا فقدوا أثره. ووجدوا أنفسهم يدخلون واديًا جافًا قاحلاً؛ اعتقـدوا أنـه حوض "البحيرات المُرَّة". لم يتبق منه سوى قاع صغير ملىء بالمياه المالحة. ولقد وجد المهندسون صعوبة جمة فى عبوره؛ وذلك بسبب كُتَل الطين الرخوة الممتدة على جانبيه. ولذا، فقد اضطروا لبناء نمط من المبانى بوساطة أغصان الشجار وقِرَبهم الفارغة. وذلك، لمساعدة الدواب على المرور، بعد أن حملوا على أذرعهم حمولات الجمال.

لقد عثروا على القناة بأقصى الناحية الشمالية. ولكن، كان الأمر يلزم، أن ينكصوا على أعقابهم بأقصى سرعة ممكنة.. لأن مخزونهم من المياه قد استُنفد. كما وجدوا أنفسهم، فجأة، فى مجابهـة بعـض الفرسان البدو: عمل السراب على جعلهم يتراءون وكأنهم أكثر عددًا، عما هم عليه فى واقع الأمر!!.. عمومًا، فإن هؤلاء الخيرين، بعـد لحظة تردد، مضوا فى طريقهم. وخلال هذه الحملة الأولى، أمكـن دراسة حوالى ٤٦ كيلومترًا. وأيضًا إرساء ٦٣ محطة.

وقتئذ، كان بونابرت قد بدأ غـزو سـوريا. وهكـذا، أعاقـت الأحداث العسكرية المهندسين عن العودة ثانيةً إلى المواقع قبل شهر سبتمبر. وفى هذه المرة، كان "لوبير" ومعاونوه يحظون بالحماية من جانب كتيبة من نصف الزمرة الـ٨٥ المكلفة بحمايتهم من هجمـات محتملة من جانب البدو. ولُوحظ أن عددًا من الشواخص التى كانـت قد غُرست.. اختفت تمامًا!! وفى نهاية الأمر، تـم الوصـول إلـى

المحطة رقم ٦٣. وعملت المجموعة على مضاعفة أعمالها حتى وصلت إلى بحيرة التمساح. ولكن، عدم توافر الأمن والأمان، والحرّ القائظ وقلة المياه، أرغمتها على التوقف عن عملها عند نهاية ٥١ كيلومترًا. وعاد الفرنسيون منهكين تمامًا إلى السويس.. بعد مسيرة متسرعة عبر الصحراء.

بالنسبة للعملية الثالثة، فى منتصف نوفمبر، فقد جمعت سبعة مهندسين؛ قُسموا إلى زمرتين. الزمرة الأولى، بقيادة "لوبير"، ويقوم بحراستها مائة وثلاثون جنديًا: حيث تقدمت، بأسرع ما يمكن نحو البحر المتوسط. أما الثانية، فقد كُلفت بحساب مدى ميل النيل، بدءًا من القاهرة. ولكن، حالما قطع "لوبير" ورفقاؤه مسافة ٢٠ كيلومترًا؛ فسرعان ما لحقت بهم فرقة من جنود الخيالة.. وأمرتهم بالرجوع.. إلى بلبيس، لدواعى الأمن. وعادت العمليات ثانيةً، بعد ذلك بثمانية أيام. وعندما وجد المهندسون أنهم قد ضلوا الطريق بسبب مرشدهم، اضطروا أن يوقفوا عملهم؛ ويتجهوا نحو بئر "دويدار"، لكى يتزودوا بالماء. ورغم ذلك، فقد استطاعوا، فيما بعد أن يصلوا إلى "بيلوز" (بورسعيد المقبلة)، المُطلة على البحر المتوسط.

تمت تسوية المضيق فى أواخر عام ١٧٩٩، وعكسًا للدارج والمعتاد، لم تتم أية مراجعة أو فحص لأكبر مساحة ممكنة من الأراضى التى دُرست.. بسبب الوضع العسكرى. حقًا، ليس لهؤلاء المهندسين الفرنسيين أى حظ. بل ها هى العناصر الطبيعية أيضًا تناوئهم وتلعب ضدهم!!.. فها هو طوفان لا نظير له فى قوته وعنفوانه، يثير عدة فيضانات.. ويمنعهم من استكمال عمليات أخرى!

لقد نشر "لوبير" تقريره فى السادس من ديسمبر عام ١٨٠٠. وقدم استنتاجاته النهائية، بعد ذلك بسنتين، بـ:"مذكرات للقنصل الأول". وفى رأيه: "أن إقامة صلة ربط ما بين البحر الأحمر والبحر المتوسط، لم تكن تمثل أية صعوبة قصوى". بل إنه أضاف قائلاً: "إن

الفراعنة، قد استطاعوا أن يحققوا ذلك. لأن مضيق السويس، فى عصرهم، لم يكن شكله على ما هو عليه حاليًا. فإن هذه المنطقة الصحراوية، كانت تتلقى، فى تلك الآونة، المزيد من المياه: سواء من النيل، أو من البحر المتوسط، والبحر الأحمر. فكان هذا الأخير يتعمق حتى يصل إلى "البحيرات المُرَّة". ثم أضاف المهندس بقوله: "ولكن، لا شك أن العلوم الهيدروليكية الحديثة، تسمح، منذ الآن فصاعدًا بمجابهة تغيرات المد والجزر، وفيضانات النيل".

وبالنسبة له، فإن الإبحار فى البحر الأحمر يبدو أقل خطورة.. عما يؤكده بعض الملاحين. وليس هناك ما يمنع أبدًا من تحسين ميناء السويس وتطويره، وتعميق مجراه.. حتى المرسى. وفى مقابل ذلك، من الجانب الآخر، المشرف على البحر المتوسط، على مستوى "بيلوز" العتيقة، فإن صعوبات إقامة ميناء.. تبدو أكيدة!!.. فإن "لوبير" لا يتوقع أبدًا فتح مجرى مائى لهذا الجزء من الساحل.. مسرح الكثير من حوادث غرق السفن.. ولكن، ربما فى الإسكندرية.

كما أكد، أن قناته هذه، لن تستغرق سوى خمس سنوات للعمل بها. وربما أقل. ولن تزيد تكاليفها على ثلاثين مليون فرنك. وسوف يكون الأمر، كما لو كانت عليه فى العصور القديمة: رابطة غير مباشرة ما بين البحرين. وسوف تتضمن ثلاثة أجزاء. الأول.. يبدأ من السويس، ويعبر "البحيرات المرة"، ويصب فى النيل. واعتبارًا لفيضان النيل، فإن هذه القناة ذات الأهوسة، لن تستطيع أن تعمل إلا خلال سبعة أو ثمانية أشهر فى العام، ما بين شهرَىْ أغسطس ومارس؛ "وهى فترة كافية تمامًا، من أجل متطلبات التجارة، مهما كانت أهميتها وأوجه نشاطها". أما عن الجزء الثانى، فسوف يسلك النيل، نحو الشمال. فى حين أن الثالث، سيكون قناة الإسكندرية القديمة ذاتها، التى يجب إصلاحها وإعدادها. وهكذا، يمكن الوصول إلى البحر المتوسط.

ومع ذلك، فإن مهندس بونابرت هذا، يبين — وقد اتسم بالخيال واللاواقعية — أنه، رغم الصعوبات فيما يتعلق بإنشاء ميناء على مستوى ذلك الخاص بـ "بيلوز". فمن الممكن عمل قناة ثانية، مباشرة تربط ما بين البحرين.. بدون المرور بالنيل!! وربما كانت هذه مجرد أمنية.. وليس مشروعًا. فإن هذا المجرى المائى البحرى، الذى سيُخصص للتجارة الدولية، سيتميز بأنه غير خاضع للفيضانات؛ ويمكن الإبحار به طوال العام. كما ستعمل التيارات على منع ظاهرة النشب فى الرمال. وسيكون كالآخر: قناة ذات أهوسة.

وبمساعدة معاونيه، حسب "لوبير"، فعلاً، أن البحر الأحمر يفوق البحر المتوسط ارتفاعًا بحوالى عشرة أمتار (٩,٩١٨ مترًا بالضبط). إذًا، فإن شق قناة السويس، بدون أهوسة، سوف يؤدى لإغراق جزء من مصر. إذا كانت هذه القناة ستصب فى النيل، أو تعوق وتخل بنظام مجرى النهر إلى درجة فائقة!!.. عامة، عند تأكيده أن البحرين ليسا على مستوى واحد، فإن رئيس المهندسين "بالكبارى والطرق" هذا قد ساند وعضَّد فكرة كانت سائدة فى العصور القديمة. وها هو يفسر هذا الاختلاف لعدة أسباب، مثل: كمية الملح المتباينة فى كلا البحرين، والرياح والتيارات، وعمليات التبخر المتعلقة بالمناخ، وصب كل الأنهار؛ وقوى الجاذبية والحرارة المشتركة ما بين الشمس والقمر، التى تتراءى بكل عنفوانها فى ظاهرة المد والجزر.

ها هنا إذًا علم فائق!!.. ولكنه خطأ!.. فإن "لابلاس" قد اعترض تمامًا على ما قاله "لوبير". وكذلك الحال، بالنسبة لـ "فورييه" العضو بمعهد مصر لم يوافق. فهناك قانون ابتدائى بسيط بالفيزياء، يقول: إن كافة البحار تتسم بمستوًى واحد. ولكن، فى ذات الحين، ومن خلال نوع من التضامن العاطفى، هبَّ بعض القدماء بمعهد مصر ليُعضدوا، بإصرار وعناد مهندس بونابرت. وهكذا، بدا الاختلاف البالغ ٩,٩١٨ مترًا فى قوة نظرية ما.. على مدى عشرات السنين!

قناة مباشرة، بدون أهوسة

أخذت المناقضة والمجادلة تشتد فى عام ١٨٤٧. خاصة، عندما أوجز الفرنسى "بول أدريان بوردالويه" المكلف بأعمال تسوية جديدة، قائلاً: إن البحرين مستواهما واحد. وفى هذه الحال، استهل العمل بأفضل الأدوات والمعدات، تحت رعاية نائب ملك مصر. ولوحظ أن المهندسين الذين يعملون تحت هيمنة "بوردالويه"، قد حرصوا على عدم العمل خلال الساعات التى ترتفع حرارتها إلى أقصى درجة. وذلك، حتى لا تتأثر عيونهم بالانعكاس. ثم، قاموا بكافة المراجعات اللازمة.

لقد تسببت نتائج هذه الدراسة فى إغضاب واستثارة الكثير من قدامى مصر السابقين. فهل يمكن تصور: "حدوث خطأ مداه عشرة أمتار تحت أعين الجيش، ونابليون والعالم أجمع؟!!". ألا يُعد ذلك بمثابة قذف التكذيب وقلة الشأن على "الحملة"؟! والمدرسة متعددة الفنون و"الكبارى والطرق" ؟!.. وأخذ المهندس "فافيه" يدافع عن "لوبير" من خلال إحدى المذكرات التى قدمها لأكاديمية العلوم. وبعد ذلك، نشر مقالاً فى الاتجاه ذاته، يُعضِّد "فَلِيبيه دى تيراج". ومع ذلك.. فإن عدة تسويات وتمهيدات بالمضيق قد أكدت، بشكل لا جدال فيه.. تساوِى مستوى كِلاَ البحرين!

إذًا، فلا ريب أن "جاك مارى لوبير" ومعاونوه قد أخطؤوا. وعلى ما يبدو، أن الظروف والأحوال التى حُقق فيها عملهم، تفسر ذلك إلى حد كبير.. وتعذرهم. كما أن ذلك لم يقلل من شأنهم كرواد، أسسوا الدراسة الأولى للمهندسين عن قناة السويس. إنها القناة، التى لا بد أن بونابرت كان يحب أن يوقع عليها باسمه.. إذا كان "التاريخ" قد أتاح له الوقت لذلك. ولم يسعه سوى أن يقول وهو يتسلم هذا التقرير: "إنه لأمر جليل!.. ولست أنا الذى أستطيع، الآن، أن أنجزه.

ولكن، ربما أن الحكومة التركية، قد يتحقق، فى يوم ما مجدها وعظمتها.. بإنجاز هذا المشروع".

بعد ثلاثين عامًا، فى عام ١٨٣٢، وصل إلى مصر "فرديناند ديلسيبس": حيث سيشغل بها منصب نائب القنصل. وهناك، اضطر للبقاء فى الحَجْر الصحى بالإسكندرية؛ وفقًا لما يُحتمه القانون الصحى. وأخذ يلهو ويقضى الوقت فى التصفح السريع للكتب، التى كان رئيسه قد جلبها له. وشدت اهتمامه بصفة خاصة مذكرات "لوبير"، واستغرق فيها. وقد سحرته فعلاً وخلبت لُبه فرضية قناة تربط ما بين بحرين. ولم تبعد عنه أبدًا هذه الفكرة..

عندما أصبح "فرديناند ديلسيبس" قنصلاً، شاهد، فى عام ١٨٣٣ مجموعة من الأشخاص يرتدون ملابس غريبة الشكل.. وكانوا قد اختاروا مصر، حيث سيعقدون "زواج المشرق والمغرب". فياله من جنون!!.. إن ضمن هؤلاء أتباع القديس سيمون عددًا كبيرًا من المهندسين!.. لعلهم يحلمون، هم أيضًا، بشق قناة السويس.. وإذا كان زعيمهم "بروسبير أنفانتين"، قد سمى نفسه "لوبير"، فليس ذلك إعزازًا وتكريمًا لمهندس بونابرت. ولكنه سوف يقابل فى مصر: "الأم". ومن لقائهما معًا، سوف يولد: "التآزر العالمى للشعوب". وفشلت المقابلة!

عند عودته إلى باريس، بعد أن تكاثرت عليه خيبات الأمل فى مصر، قام "أنفانتين"، فى عام ١٨٤٦ بإنشاء "شركة الدراسات الخاصة بقناة السويس". وبينت، بشكل قاطع لا جدال فيه التسويات والتمهيدات الجديدة بالمضيق : أن البحرين على مستوى واحد. ومع ذلك، فلم يمنع هذا الأمر "أنفانتين" ورفاقه من أن يقترحوا مشروعًا معقدًا لقناة غير مباشرة: تتخطى النيل، وتُلحق به جسرًا طوله كيلومتر واحد، وعدة أهوسة!

عمل "فرديناند ديلسيبس"، عند عودته إلـى القـاهرة فـى عـام ١٨٥٤على وضع نقطة النهاية.. لكل هذا التحسس والتردد. أما عـن مشروعه، فهو بسيط ومتماسك. وقد وافق عليه نائب الملـك الجديـد، "سعيد باشا"؛ ويبين عن قناة مباشرة، طولها ١٦٠ كيلـومترًا؛ وبـدون أهوسة؛ ما بين السويس وبورسعيد.

بفضل هذه الوصلة البحرية، المنفتحة طوال العام: فإن الطريق ما بين الموانى الرئيسية بأوروبا والهند.. سوف ينقص إلى النصف. ولقد عوّل على تطور البحرية البخارية، التى لم تكن، وقتئذ إلا فـى بداياتها. كما تقرر اللجوء إلى رؤوس الأموال الخاصة، وعدم انتظار أموال القوى الكبرى. وفى هذا الصدد خاصة، وُضع فى الاعتبار هذا التوجيه القيِّم الذى كان قد قدمه "جان مارى لوبير"، مهندس بونابرت، حيث نادى: بضرورة إنشاء مؤسسة تجارية، لعدم المعاناة من "عـدم ثبات الحكومات..".

تطلَّب حفر قناة السويس عشر سنوات مـن الجهـد والعمـل. وبداية، تمت تعبئة عشرات الآلاف من الفلاحين المـصريين: تبعًـا لنظام السُّخرة القديم لكى يحفروا بأيديهم!! ثم، بعد ذلـك، اختُرعـت آلات خاصة، ذات مداخن مستطيلة الشكل.. تـسرب دخانهـا فـى الصحراء. وقد افتُتحت قناة السويس فى شهر نوفمبر عـام ١٧٦٩. واعتُبرت بمثابة حدث عالمى. وكانت ضيفة الشرف الإمبراطـورة "أوجينى".. زوجة نابليون آخر!

(٥)
مؤرخ لدى العمالقـــة

بتاريخ السابع والعشرين من سبتمبر عام ١٧٩٨، بمعهد مصر، قدم عالم الرياضيات "كورانسى": "منهجًا جديد التحويل إلى أســاليب تحليلية بسيطة، يبرهن على النظريات الأساسية بعلم الهندسة". ولكن، هل كان لذلك علاقة بمصر؟!.. فإن هذا العمل كان يمكن أن يُجـرى أيضًا فى فرنسا. إلا إذا كان البعض يرون أن نسيم النيـل.. سـوف يكون مواتيًا جدًا للتمرينات الفكرية.. عمومًا، لقد قُدمت أيضًا عـدة مذكرات أخرى؛ جميعها نظرية كذلك إلى مكتب "المعهد". وكمثـال على ذلك، يجدر الإيماء إلى هذه الخاصة بـ"فورييه"؛ عن المعادلات التفاضلية.. أو تلك التى أجراها "مـونج" عـن الهندسـة المتناهيـة الصِّغَر. ولكن، يُلاحظ، فى معظم الأحيان، أن علماء بونابرت، لـم يعملوا أبدًا بداخل الحجرات. فإنهم، كانوا ينتهزون كل الفرص، لكى يخرجوا إلى الهواء الطلق. ومع ذلك، فلم يكن هذا أمرًا متيسرًا.. فى نطاق مصر هذه التى حُرمت، وقتئذ من "الهدوء والـسلام".. حيـث دأب المماليك، والبدو والفلاحون علـى إزعـاج وإرهـاق القـوات الفرنسية!..

وهكذا، كونت عملية استكشاف علمى، فى شـهر ينـاير عـام ١٧٩٩، إلى "بحيرات النطرون". إنها على بعد مسيرة قدرها أربـع

عشرة ساعة سيرًا على الأقدام من القاهرة. وكان يقودهـا الجنـرال "أندريوسى"، أحد أعضاء "المعهد". وعن "برتوليه"، الذى ساهم فيهـا بمصاحبة "فورييه"، فكان يولى اهتمامًا خاصًا لهذا الوادى الجاف فى قلب الصحراء، لأنه المكان الوحيد المعروف الذى يوجد به النطرون (كربونات الصوديوم)، فى حالته الطبيعية. وتُستعمل هذه المادة فـى صناعة الزجاج، أو تبييض الكتان: إنها قطعًا لغز كيميـائى!.. بـل ولماذا عساها، تبين فى موقعها، عن رد فعل معاكس.. لـذلك الـذى يُلاحظ فى المعامل؟!

وبذا، فقد بين الكيميائيون: أن الكربون يُبْدِى المزيد من التجانس مع الكالسيوم. وفى الحين ذاته، يتراءى الكلور أكثـر تجانسًا مـع الصوديوم. ولذا، ففى نطاق بحيرات النطـرون، يُلاحـظ أن الملـح والجير ينحلّان، لكى يتّحدا ثانيةً بشكل مخالف: حيث يقدمان كلوريد الكالسيوم وكربونات الصوديوم. وحاول "برتوليه" كشف هذا الـسر. وأخذ يتساءل عما إذا كانت كل من الرطوبة، والحـرارة، ووجـود مساحات مترامية المدى طباشيرية.. تمارس تأثيرات خاصة على رد الفعل الكيميائى: فإن كلوريد الصوديوم يُصرف من خلال التربة، أما كربونات الصوديوم.. فإنها تترسب على السواحل والنباتات المائية!!

عند عودته إلى القاهرة، قام هذا العالم بتحليل عيناتـه؛ وبـذلك توصل إلى استنتاج جرىء فعلاً: يتم رد فعـل كيميـائى بوسـاطة الأحوال والظروف التى تحيط بـه.. لا بوساطـة الأنواع الموجودة: فها هنا إذًا إشارة لمفهوم التجانس!!.. فإن الكيمياء تخرج من المعمل، لكى تقترب من الطبيعة. ولا شك أن البحث المختصر الـذى قدمـه "برتوليه" لمعهد مصر، لم يكن سوى مجرد تذوق أولى لبحثه الشهير: "تجربة عن الكونية الكيميائية"، الذى قدمه بعد ذلك بعدة سنوات فـى باريس.. ولاقى أهمية تاريخية كبرى.

لا ريب أن مثل هذه الجولات العلمية ــ العسكرية، قد أتاحت الفرصة للكثيرين، للانطلاق من قيود مفاهيمهم، ليفتحوا أذهانهم.. وأحيانًا قلوبهم!..

عند محاولته البحث عن الحيوانات، انتابت عالم الحيوانات "جيوفروا سان هيلير" دهشة بالغة، لما بدت عليه أحوال معيشة الفلاحين. فها هو يكتب قائلاً لأحد مراسليه: "إجمالاً، إن المصريين الذين يعيشون بالقرى: بؤساء، تعساء، إلى درجة لا يمكن أن نتصورها!!.. هل تتصور أن أكبر عدد من القرى، تتكون معظمها من أكواخ طينية، قد لا يصل ارتفاعها إلى ثلاثة أقدام؟!!.. وأن الفتحة التى يدخل، من خلالها هؤلاء المخلوقات التعسة فى جحورهم هذه.. هى مجرد فتحة دائرية الشكل، يصل قطرها إلى قدم ونصف القدم فحسب؛ وأنها تبقى دائمًا مفتوحة. وبداخلها، لا تكفى المساحة إلا لرقاد الزوج، والزوجة والأطفال.. متراصين بجوار بعضهم البعض. وإنهم، لكى ينزلقوا فى جُحْرهم هذا.. فهم يزحفون على بطونهم؟!".

الحمير والعلمـــاء

"دومينيك فيفان دينون"، هذا، لا يلتزم مكانه أبدًا. إنه فى الخمسين من عمره. وقد جاب من قبل أوروبا، بكافة اتجاهاتها. ولذا.. فهو لا يكتفى، بسهولة بالبقاء فى حدائق "المعهد". ولذا.. فبدءًا من الأسابيع الأولى بالقاهرة.. انطلق هاربًا؛ حيث تكشف له سحر "مركبة المصريين" وَروعتها.. أو بمعنى أوضح: الانتقال على ظهر حمار. وها هو يشرح ذلك، فى كتابه الشهير: "رحلة إلى مصر العليا والسفلى"، فيقول: "هذا الأسلوب فى التنقل كان يبدو لى ممتعًا وسارًا. ولذا، كنت أمضى حياتى فوق ظهور الحمير. وهكذا، فإننى، بعد

وقت قصير من حضورى، أصبحت معروفًا من كل الذين يؤجرونها. وكانوا يُلمون بكافة عاداتى. ويحملــون عنـــى حقــائبى وأوراقـــى، ومقعدى الخاص بالرسم.. بل ويقومون لى، كل يوم بـــدور معلمـــى الفروسية".

وها هو "دينون" يسلك الأزقَّة الضيقة، حيث يستطيع، بالكاد أىُّ جحشيْن أن يتقابلا.. وقد أُفعمت رئتاه بالغبار وروائح التوابل.. لقــد ترك نفسه يُهدهد بوساطة تخلعات دابته.. من أجل الوصـــول إلـــى أطراف المدينة. وهناك، كان يمكنه رسم القناة، ومقابر الخلفـــاء، أو القناة التى تأتى بمياه النيل إلى القاهرة فى وقت الفيضان. فمن عساه يستطيع مقاومة ساعات العصر الدافئة هذه.. حيث تنـــساب خلالهـــا رجفة ما.. عندما تميل الشمس ما بين مئذنتين!

فى ذات الحين، كان هذا الفنان يتحرق شوقًا لاستكشاف آفـــاق أكثر بُعدًا. فها هو يُبدى ملاحظته هذه: "كنت على أحسن حال فـــى القاهرة. ولكننى لم أغادر باريس.. لكى أكون على خير حـــال فـــى القاهرة". وبذا، ففى أول فرصة مواتية، بادل حماره بحصان، واندفع للقاء جيش الجنرال "ديسيكس"، المكلف بملاحقة أحد كبار الزعمـــاء المماليك، "مراد بك"، فى الجنوب.

"فيفان دينون"، ابن أحد النبلاء الريفيين بمنطقة "برجونيا" فـــى فرنسا. وهكذا، كانت تنتظره عدة مهن مدهشة ومذهلـــة. فـــإن هـــذا الصبى اللمَّاح الذكى، كان سريع الارتقاء فى باريس. وكـــان يتـــسم بالثقافة الفائقة. ويتميز بالجرأة والشجاعة. ولذلك، توجهـــت نحـــوه سريعًا الأنظار فى بلاط "لويس الخامس عشر". وهذا ما وصفه بـــه، بعد ذلك الكاتب أناتول فرانس "شعر مصفف، عيون ثاقبة ذكية سوداء اللون، وأنف خانس إلى حد ما، بمنخارين شرهين. وكان يبدو، عندئذ وكأنه خارج لتَوّه من إحدى حفلات واتو-Watteau".

البحر المتوسط
رشيد
دمياط
أبوقير
الإسكندرية
تل الفرما
بحيرات النطرون
القاهرة
السويس
الصحراء الغربية
سيدى برّانى
دير سانت كاترين
جبل سينا
المنيا
أسيوط
البحر الأحمر
النيل
قنا
أبيدوس
القصير
دندرة
الكرنك
الأقصر
إسنا
الكوم الأحمر
إدفو
كوم أمبو
أسوان
فيلة
النوبة
النيل
0 100 200 km

لقد خُلع على "دينون" لقب "نبيل" بسفارة "سان بطرسبرج". ولكن، بعد ذلك، أصدرت "كاترين الثانية" أمرًا بطرده، لاتهامه بالمساعدة على هروب إحدى الممثلات الفرنسيات.. المتهمة بالتجسس. ثم، فيما بعد، عُين دبلوماسيًا فى "ستوكهلم"؛ وبعد ذلك بالمقاطعات السويسرية. وتقابل مع "ڤولتير"، الذى سحره وخلب لُبه. وخصص له رسمًا قاسيًا عنيفًا: "غذاء فرناى".. الذى أثار سخط "الموديل" وحنقه، ولكنه حقق الشهرة للمؤلف!!

وتابع "دينون" مهنته الدبلوماسية فى نابولى وڤينيسيا. ولم تعمد الثورة الفرنسية إلى دفعه للفرار. بل بالعكس، فقد جذبته إليها فى باريس. وأخذ "دينون" يعبر مجال مختلف النُظُم.. حتى وصل إلى "حكومة المديرين". وبالقطع، كان على معرفة بالجميع. وجرب كافة أساليب الكتابة، بداية من المسرحية، وحتى الحكايات الداعرة؛ ومر بالسرد المتعلق بالرحلات. واستطاع أن يتطابع مع كافة الأنماط.. إن لم يكن قد تخطاها فعلاً!.. وبفضل علاقاته المتعددة، وخاصة مع "جوزفين دى بوهارنيه"، نجح فى دخول "لجنة العلوم والفنون"، بحملة مصر!

ها هو إذًا "دينون" يجرى عَدْوًا لملاقاة جيش "ديسيكس". عامة، إن مذكراته عن الرحلة لم تبين التاريخ المحدد لهذا الانطلاق: الذى أضفى عليه بعض الرومانسية.. مثل الكثير غيره. وحقيقة أن الفرنسيين، قد هزموا من قبل، المماليك فى معركة سديمان Sediman منذ عدة أسابيع (السابع من أكتوبر عام ١٧٩٨)؛ ولكن، لم يمنع ذلك أبدًا المؤرخ من أن يقدم عن ذلك وصفًا مفصلاً. بل ويذكر كلمة "نحن"، مماثلاً نفسه بالمقاتلين. وبالمنظار المقرب، كان يراقب "مراد بك"، الذى انتشر فوق أحد المرتفعات مع جميع فرسانه. ويبدو.. زعيم المماليك مُغطّى بالذهب والأحجار الكريمة. ولكن، سرعان، ما اندفع هذا الذهب لمجابهة سيوف تشكيلة المربعات الفرنسية. ويتبين

أن البسالة النادرة تتشابه من الجانبين. فقد كانوا يتسمون بشجاعة الأمل! ونحن لدينا تلك المتعلقة بالسخط والغيظ. لقد جُذمت أساتين بنادقنا بوساطة ضربات سيوفهم. ودُفعت جيادهم بداخل شباكنا. إنها لمذبحة حقًا. لم تُرَ من قبل معركة أقوى بشاعة، ولا انتصار أكثر روعة؛ أو نتائج أقل توقعًا!.. بدا الأمر كحلم، لم يتبقَّ منه سوى ذكرى مرعبة!!.. لقد عبرت عن كل ذلك برسمين. وأردت أن أرسم، من خلال هذين الموضوعين، الحرب كما هى.. سخية كريمة وشرسة رهيبة؛ بشعة مروعة وسامية عظيمة!!".

وحتى فى المعارك التى خاضها، كان "فيفان دينون" يتذبذب دائمًا ما بين الإعجاب والسخط. وكانت الانتصارات الفرنسية تحفزه وتحمسه. وهو يُقر بأنه كان يتوقد حميةً وتأججًا كلما عرف أن المماليك قائمون بالمناطق؛ وسوف يقاتلهم الفرنسيون. فها هو يقول: "عند اللعب، يتحتم الكسب". ولم يكن هذا المتذوق للجمال يتوانى عن مديح "الإعدادات للمعركة" التى تبين عن تحركات فائقة، وتمثل مجموع لوحة هائلة!!.. ومع ذلك، فهو لا يجهل شيئًا من بشاعات الحرب. فقد شارك فى معركة الدلتا بجانب الجنرال "مينو". ووقتئذ، عرف معنى: "إعادة السلام". فإذا كان عدد من الأسرى الفرنسيين يُشوَّهون بأيدى أعدائهم؛ ولكنهم، بدورهم لا يحرمون أنفسهم من القتل، والاغتصاب، والسلب والنهب.. أكثر الوسائل بشاعة، رغم الأوامر الرسمية!

من خلال لعبة الاستغماية هذه مع المماليك؛ من ذا الذى سوف يقود جيش "ديسيكس" حتى أقصى جنوب مصر؟ وها هو هذا الكاتب الرسام يُقر: "أن صعوبة تمييز أعدائنا بالنسبة للشكل واللون.. كانت تجعلنا، كل يوم نقتل الكثير من الفلاحين الأبرياء". وباعترافه الشخصى؛ كان يفضل الوصول متأخرًا إلى حد ما، إلى القرى التى تم غزوها: "حتى لا أسمع صرخات الأهالى.. وقد اضطُررنا لسلبهم

ونهبهم". وفى نهاية الأمر، نجده يتساءل ــ من خلال تأكيد وإثبات مرعب!! ــ عما إذا كان الفرنسيون، فى نظر المصريين.. لم يحلوا مكان المماليك؟!!

"إدوارد ڤلييه دى تيراج"؛ إنه أصغر سنًا جدًا من "دينون". ولقد رافق وحدة عسكرية أخرى خلال تلك الفترة. ونجده، فى مذكراته يفصح عن مشاهد أثارت اضطرابه للغاية. فعلى مسافة غير نائية عن السويس، اقتنص كشافة فرقة "الجمل" عائلة بدوية. وها هو يذكر: "أمر الجنرال "بوانيه"، باستدعاء الرجلين لاستجوابهما، معتقدًا أنهما قد يكونان بعض الحراس الخيَّالة أو جواسيس للجيش المُعادى. وخلال استجوابه لهما، منهالاً عليهما بلسعات السوط، كان الجنود يُنزلون بالزوجة البائسة أشد الممارسات دناءة وخسة. ويتراءى واضحًا أن الجنرال "بوانيه"، غير مبالٍ بكل ذلك". وقُتل الابن بطلقات أحد الجنود.. وقد لامسه سلاحه عن كثب: وانطلق هذا الأخير مسرعًا لكى يسلبه ويسرقه. وبعد فترة وجيزة، لاقى الأب المصير ذاته". ويقول المهندس (الفرنسى) الشاب: "فى نهاية النهار، قابلنا قطيعًا من الخراف، تقوده صبية صغيرة يتراوح عمرها ما بين ٩ــ١٠ أعوام وقُتل بعض الخراف، وسُرق البعض الآخر وكل ما خف حمله. أما الفتاة الصغيرة، فقد تم وضعها فوق ظهر جمل، وأُخذت إلى السويس.. حيث أصبحت فريسة لهيئة أركان حرب الجنرال. وفى نهاية الأمر، كما قيل لى فيما بعد.. انتهى الأمر ببيعها لأحد القباطنة التجار".

أحيانًا، قد لا يلزم الأمر مغادرة القاهرة لتقدير مدى شراسة بعض رجال الجيش المحاربين وضراوتهم. فها هو (على سبيل المثال) "بارتيليمى اليونانى"، وقد اصطحب عددًا من أفراد الشرطة التابعين له: وكان الفرنسيون قد جندوه بالموقع ذاته، لكى يتكفل بالمهام الدنيئة الحقيرة فى نطاق جهاز الشرطة: إنه ينشر الرعب

والهلع في شوارع العاصمة!!.. وفى يوم ما، أُعلن عن حضوره إلى منزل الجنرال "دوبوى"؛ الذى كان يقيم، حينئذ مأدبة غـداء فـاخرة، حضرها الكثير من العلماء والفنانين. ووصـل "بـارتليمى"، وبيـده حقيبة. ثم فتحها، لتتدحرج منها فى القاعة عدة رؤوس آدمية ما زالت مُضرَّجة بالدماء!! وشمل الرعب والهلع جميع الحاضـرين. وهنـا، أصدر له الجنرال أمره بالخروج فورًا.. ومعه غنيمته الكئيبة البشعة!

غالبًا، أن جنود جيش "المشرق" لم يتفهموا أبدًا، ما كان يؤديـه عدد من العلماء والفنانين، لابسى الردنجوت والقبعـات الـضخمة.. بجوارهم!.. بداية، لقد تجاهلوا الفنانين. ولم يتقبلوا سوى "العلمـاء".. الذين ماثلوهم بالحمير!. وهكذا، فقد قال أحد الضباط آمرًا بتنظيم ما يُعرف بالتشكيلة المربعة: "الحمير والعلماء فى الوسـط"! أمـا عـن الحمير، ذاتها، فهى توصف بأنها "نصف عالمة". وبذا، فإن "دينون"، قد استطاع أن يتبين بنفسه، فى بداية تلك الرحلة إلى مصر العليا، قلة الاعتبار الموجهة لمخلوقات على شاكلته. فإنه وهو يعدو سريعًا على مقربة من أحد الجنود، الذى قام بحركة خطأ مباغتة فأوقعه من فوق مطيته بخبطة حربة. وهنا سمع "دينون" هذا الجندى يـصيح قـائلاً معتقدًا أنه قُتل: "ها!!.. بناقص أحد العلماء".

وخلال رحلة أخرى، لاقى الشاب "إيدم جومار" وهو مهنـدس جغرافى حادثًا مزعجًا مماثلاً: فعندما سقط بأحد المستنقعات وغاص فى الوحل، نادى على أحد الجنود لنجدته. وهنا، اقترب هذا الأخير، وأخذ ينظر إليه.. بدون أن يتدخل، بل قال له: "آه!.. ها أنت إذًا هنا، أيها العالم الكلب. لقد أردتم أن تضعونا بداخل هذا الوحل.. حـسنًا، عليك الآن بإخراج خريطتك!!".

ولكن، على عكس ذلك، كان "دينون" يجد معاملة حسنة للغايـة من جانب القادة. ولم ينضُب مَعين مديحه لهم أبدًا. ولذا، فإن "مينو"، الذى كان قد أنقذه بيديه خلال إحدى المعارك فـى الـدلتا؛ يعتبـره:

"رجل دمث الخلق، مثقف، وصديقى منذ زمن بعيد". وعن القائد "بيَّارد"، فإنه من ناحيته، قد سمح له بأن يشاركه خيمته: "إن هذه المشاركة كانت طيبة ووثيقة، فإننا لم نكن نفترق أبدًا". أما مع "ديسيكس"، فقد كان هناك الحب الكبير: "لقد قضينا لحظات لطيفة وكثيرة ومتعددة، وسرنا معًا متجاورين، طوال ما لا يقل عن اثنتى عشرة أو خمس عشرة ساعة متتالية. ولم نكن نتحدث، بل كنا نحلم بصوتٍ عالٍ. وغالبًا، بعد هذه المقابلة المديدة، كنا نقول لبعضنا بعضًا: كم من الأمور ستكون لدينا.. لنقولها فيما تبقَّى لنا من العمر؟!!".

تراءت العلاقات مع عامة الضباط والجنود أقل مثالية. ولكن، رويدًا رويدًا، ولمشاركته دومًا، فى حياتهم اليومية، صار "دينون"، بشكل أو بآخر.. وكأنه ابنهم بالتبنِّى.

انبهار أحد متذوقى الجمال

سافر إلى الجنوب وقد أُفعم حمية المستكشفين وحماسهم: "كنت متوجهًا، لتعمير بلد جديد. ذهبت لكى أكون أول من رأى؛ وبدون أى آراء مسبقة. كنت على وشك أن أطأ أرضًا، كانت مغطاة دائمًا بنقاب الغموض والإبهام؛ بل مقفلة، منذ ألف عام فى وجه كل أوروبى".

"فى وجه كل أوروبى"؟!!.. ليس بكل تأكيد. فمن قبله، خاطر بعض الرواد، ومنهم الكثير من رجال الدين الكاثوليك.. فى تلك المناطق الغامضة. ولكن، قطعًا، لم يستطع أحد منهم أن يفعل ذلك فى مثل هذه الأحوال، تحت حماية جيش!!.. وكان أولئك الرحالة يصعدون سريعًا مجرى النيل. ثم، عندما يضعون أقدامهم فوق اليابسة.. لا يجرؤون على الابتعاد عن زورقهم. فعلى ما يبدو، أن

العديد من الرسوم السابقة للحملة الفرنسية.. قد أُبدعت من فوق متن أحد الزوارق أو السفن!.

"النظر بدون أية آراء مسبقة"؟!.. ربما أن ذلك يُعد قولاً متسرعًا. فإن "دينون" ما زال متأثرًا بانطباعاته الأولى فى القاهرة. إنه، أمام أهرام الجيزة.. قد شعر ببعض الغثيان: "إن كتلة الشموخ والاعتداد بالنفس التى دفعتهم إلى بنائها.. قد فاقت، على ما يبدو مقياسها الفيزيائى. ومنذ هذه اللحظة: لعلنا لا نعرف بالضبط، ما الذى يثير دهشتنا أكثر: الجنون الاستبدادى، الذى تجاسر وأمر بتنفيذ البناء.. أم عساها الطاعة البلهاء من جانب الشعب.. الذى وافق على تقديم جهد أذرعه، لتشييد مثل هذه النُصب؟!". فبالإضافة إلى المغالاة فى ضخامة المبانى، هناك أيضًا شذوذ الخطوط، البعيدة تمامًا عن قوانين الفن الكلاسيكى.

ولكن هذه الظنون، سرعان ما تلاشت فى مصر العليا. فأمام معبد دندرة، سرعان ما نسى "فيفان دينون" كافة انتقاداته السابقة. بل تشوش واضطرب. لقد تراءى له المصريون القدماء فى هيئة "عمالقة". وشعر أنه أُثير "بداخل معبد الفنون والعلوم". وأخذت علامات التعجب تتسابق من خلال ريشته: "فيالها من قوة وعزيمة ثابتة، ويا له من ثراء ووفرة، ويا له من فيض فى الوسائل والإمكانات، فى نطاق الحكومة التى تستطيع أن تُشيد مثل هذا النُصب الشامخ؛ وتجد فى إطار الشعب رجالاً قادرين على تخيُّله وابتكاره، وتنفيذه، وزخرفته.. وإثرائه بكل ما يخاطب العيون والعقول!!".

كان يريد أن يرسم كل شىء. ولكنه لم يكن يجرؤ على البدء. فماذا عساه سوف يرسم؟!.. وكيف يرسم؟!.. إنه الرحالة الكبير، لم يَرَ فى أى مكان مثل هذه الروائع المتجمعة معًا. كان كل شىء يثيره: المعمار، الرسم الملون، النحت، مجرد فتحة باب بسيطة؛ والزخرفة

فائقة الدقة والنعومة!!.. ففى كل مكان، كان يسود التوازن والتناسق. ومن وجوه النساء هذه.. "استدارة وشهوانية؛ والأنف دقيق، والعيون مستطيلة الشكل، نصف مغمضة، مرتفعة إلى حد ما عند الزاوية الخارجية..". وتبين له، أنه لا يملك سوى بضع ساعات، لكى يتفهَّم، ما تطلب عدة قرون، لتخيله وابتكاره.. وتنفيذه. "لقد أمسكت القلم بيدى. وأخذت أنتقل من قطعة إلى قطعة: حيث كنت أسهو عن إحداها، لما تثيره أخرى من اهتمام. وأحسست دائمًا بالانجذاب. وكأننى أفتقد العينين، واليدين، والرأس الضخم، لكى أرى، وأرسم؛ وأنظم، إلى حد ما كل ما أثار دهشتى وانبهارى!!.. وكنت أخجل من الرسوم الناقصة التى أرسمها لهذه الأشياء السامية العظيمة. ولكننى، كنت أرغب فى تسجيل ذكريات للمشاعر والأحاسيس التى شعرت بها لتوّى.. بل كنت أخاف وأخشى أن تبتعد عنى دندرة.. إلى الأبد. وهكذا، فإن حسرتى وأسفى كانت تعادل متعتى وسعادتى".

وبإحدى حجرات المعبد، حيث تدافع الجنود، اكتشف "دينون" فلك البروج الشهير. إن خارطة نصف الكرة السماوية هذه، المستديرة الشكل، المنحوتة بأحد الأسقف، قد أُفعمت بالأشخاص والحيوانات. وتُرَى أربع نساء وهن يسندنَ القبة السماوية. ويساندهن أربعة أزواج من الجنّ، ذى رأس الصقر. إنها قطعًا "لوحة" تستولى على الألباب، لدرجة أن "فيفان دينون" لم يجد الوقت لرسمها على ورقة الرسم. ولكنه، مع ذلك قام بنقلها بعد عدة أسابيع، عند هبوطه ثانيةً لمجرى النيل..

فى هذا المساء، جاء لمقابلته أحد الضباط، ويُدعى "لاتورنيرى" وقال له: "منذ أن أصبحت فى مصر، كنت أُخدع فى كل أمر. ولقد انتابنى الأسى والكآبة، ومرضت. ولكن دندرة حققت لى الشفاء. فإن ما شاهدته اليوم قد عوضنى عن كل معاناتى. مهما كان الأمر بالنسبة لى، فيما يتعلق باستتباعات هذه الحملة، فإننى سأهنئ نفسى

طوال حياتى لأننى شاركت بها.. للذكريات التى سوف يتركها لـــى، دائمًا وْأبدًا هذا اليوم..".

فى اليوم الثالث، بالساعة التاسعة صباحًا، عند منعطف إحـــدى سلاسل الجبال، عثر الفرنسيون على مدينة طيبة العتيقة..، "المدينـــة ذات المائة باب" التى أشاد بها ومجَّدها "هوميروس".. فها هنا انبهار جديد!.. ويحكى "دينون" فى هذا الصدد: "لقد توقـــف الجـــيش بغتـــة وطواعية، بدون أية أوامر.. عند منظر هذه الأطـــلال المتنـــاثرة!.. وبحركة تلقائية، صفق بالأيدى.. وكأن احتلال بقايا هذه العاصـــمة، كان الهدف الأساسى لإنجازاته المجيدة.. مكملاً غزو مصر". وأراد "دينون" ألا تفلت منه هذه الصورة. فأخرج أدوات رسومه. وها هـــو يؤكد: "ووجدت فى الحماس اللطيف من جانب الجنود، العديـــد مـــن الركب، لأتخذها بمثابة مائدة، وأجسامًا كثيرة لتـــضفى لـــى بعـــض الظلال..". إنه لمشهد مبهر وفريد من نوعه. بل أكيد أنه من أقـــوى مشاهد هذه "الرحلة"..غير المألوفة!!

لم يتوقف بعد دور لعبة التخبئة مع المماليك. وكـــان "دينـــون" مضطرًا لأن يتبع إيقاع الجيش فى سيره.. ولذا، فغالبًـــا مـــا كـــان، ينظر، ثم يرسم، ما بين طلقة بندقية وأخرى. ولقـــد صـــوَّره أحـــد رسومه، وهو يمارس عمله واقفًا، موجهًـــا ناظريـــه نحـــو أطـــلال "هيراكونبوليس". وكان يرتدى الـــزى العـــسكرى، ولكـــن منـــتعلاً مركوبين. وعلى جانبيه، توشّح بسيف وطبنجات. أما عـــن خادمـــه ووصيفه الصغير الأسود اللون، فقد جلس أرضًا، بجوار مقعد صغير يُطوى ويُحمل. ونجده يؤكد دائمًا: "لم أتخل أبدًا عن حقيبة أوراقـــى. كنت أحملها معى إلى كل مكان. وفى الليل، كنت أتخذها كوســـادة. وبدا لى، أنها عند نهاية السفر، قد زاد وزنها كثيـــرًا. أمـــا الحقيبـــة الخاصة بحاجياتى خلال السفر، فقد كانت شبيهة بحقيبة "روبنسون"، ومحتوياتها: طبنجتان بطلقتـــين، وســـيف، وبعـــض الـــذخيرة مـــن

الرصاصات، وحزام، به مائة ليرة ذهبية؛ لكى أُحمل فى أثر الجيش فى حالة إصابتى بجرح. وبها أيضًا: ملعقة، وشوكة وقدح فضى، وبعض الأوراق للرسم والكتابة..".

بتوغله جنوبًا، فى إدفو، انطلق الفنان فى الصباح الباكر، لكى يسبق الجنود الأوائل. ولكنه، استطاع بالكاد التجول فوق صهوة جواده فى هذا النُصب. إنه منغرس بعض الشىء فى الرمال: "إن عَظَمته، ونُبله وسموه، وروعته وتمام حفظه.. تفوق كل ما سبق أن رأيته!!..". وقد حان الوقت لإنهاء الرحلة، لأن "دينون" لم يعد لديه الكلمات ليصف مدى إعجابه ودهشته.

وصل الجيش إلى أسوان، بعد لحظات عصيبة للغاية. حيث أُضيف الجوع، والظمأ، والحر القائظ.. إلى تهديدات العدو. أسوان، الأرض الموعودة!.. ها قد أصبحت مصر قاطبة، منذ الآن، من الممتلكات الفرنسية. وها هو المؤرخ، قد وجد مأوًى جيدًا، فى وسط الزروع الخضراء.. ويمكنه أخيرًا، أن يتنفس الصُعَداء. وأخذ يتنزه بلا كلل أو ملل. وهكذا، كان يقول: "إن جزيرة إلفنتين قد أصبحت، فى آنٍ واحد بيتى الريفى، ومكان المتعة واللذة والملاحظة والأبحاث. وأعتقد أننى قلبت، فى أنحائها كافة الأحجار، واستجوبت كل الصخور التى تُكونها..".

لقد عُلم أن "مراد بك" الصعب المنال، فى أقصى الجنوب، وبذا، فقد تم التوجه نحو فيلَه. إن هذه الجزيرة، تحظى بدفاع شرس ضارٍ من جانب أهلها؛ ولكن، تم غزوها بالسلاح اليدوى فحسب. وبذلك، كان الفنان يمكنه التوجه إليها لمرات عديدة، بدون أى التزام، متمتعًا بكل وقته: "فليس هناك دقات طبول معلنة عن التجمع أو الرحيل، ولا يوجد أعرابيون، ولا فلاحون. وها أنا، أخيرًا منفردًا، مستمتعًا بأقصى راحتى.. فشرعت فى عمل خريطة للجزيرة، وتخطيط للنُصب والمنشآت التى غُطيت بها".

ولكن حرب المطاردة ضد المماليك ما زالت مستمرة. وبما أن "مراد بك" قد نكص على عقبيه ورجع .. فقد توجهنا ثانيةً نحو الشمال. وبدت أحوال هذه المغامرة الجديدة أشد قسوة من الذهاب. فالحرارة شديدة الوطأة، والرياح محملة بالرمال. وأُصيب "دينون" بنزف بالأنف: "لقد مزقت الصحراء جفونى". ولم يكن يستطيع الرؤية إلا من خلال ستار من الدماء. فها هو هذا الرجل البالغ الخمسين من العمر، النشط الرشيق، يبدأ الإحساس بوطء السنين. وأكيد أن انحطاط قواه وإنهاكه كان يفسر الانطباع السيئ؛ فى هذه المرة، الذى أبداه تجاه أطلال طيبة. فها هو يعود ثانيةً إلى الإحساس بالرعب.. الذى أثاره لديه النظام الفرعونى.

ولكن هذا الاكتئاب والحزن لم يدم طويلاً. فكيف عساه يمكنه مقاومة سحر وادى الملوك. ولقد أصر "دينون" على رسم إحدى المقابر من داخلها: "لقد صرخت مطالبًا بربع ساعة فقط. ومُنحت عشرين دقيقة بالضبط. وكان أحد الأفراد يُنير لى المكان. وفى الحين ذاته، كان شخص آخر يمرر شمعة بجوار كافة الأشكال التى أحددها له..". وفى هذه المقبرة، أخذ "دينون" يجمع ما يجده؛ مثل: "ملعقة، وتماثيل جنازية صغيرة، وقدم مومياء" لا شك أنها أقدام أميرة، كائن فاتن ساحر، لم يعمل الحذاء أبدًا على تشويه معالمها.. وهذه المعالم تبدو مكتملة الجمال". وعُثر على هذه القدم الجميلة، ضمن أمتعته، فى باريس!!.. وبعد عدة سنوات، استلهم الكاتب "تيوفيل جوتييه" من هذه الواقعة، لكتابة أقصوصة؛ ثم بعد ذلك: "قصة المومياء".

شغل "فيفان دينون" منذ عهد قريب وظيفة دبلوماسى. ولذا، استُعين به حاليًا لكى يكون وسيطًا. وفى "مدينة هابو" كُلف بالتفاوض فى موضوع استسلام الشيوخ. ولكنه، عمل على تأجيل إنهاء المباحثات.. لكى يتفحص جيدًا مختلف الأطلال. وقد أحضر له أحد الأشخاص مومياء تُمسك بيدها مخطوطًا ملفوفًا. هنا، امتقع وجه هذا

الفنان تأثرًا وانفعالاً.. بردية!!.. فلم تسنح الفرصة أبدًا لأى رحَّالة آخر.. باكتشاف مخطوط: "لقد احتبس صوتى.. ولم أعد أعرف ما سوف أفعله بكنزى هذا.. لشدة خوفى من تدميره!.. إن قماش قطن الغطاء الذى كنت أتخذه كسرير، بدا لى غير كافٍ لكى ألفَّه وأحزّمه، بلين ونعومة". فيما بعد، وقد استعاد تفكيره، وشحذ ريشته، أخذ يُحيِّى ويمجد بأسلوب شعرى لا حدود له: "هذا الغريم الرقيق الدقيق للأهرام.. بل الشاهد الثمين النفيس عن مناخ حافظ واقٍ؛ هذا الأثر الذى وقره الزمن واحترمه؛ وعملت أربعون قرنًا من الزمان، على تبوئه مكانة سامية.. بين أكثر الكتب قِدمًا وعراقة".

عند رجوعه إلى القاهرة فى منتصف شهر أغسطس عام ١٧٩٩، بعد غياب مداه ثمانية أشهر، بدأ "دينون" يفك طرود كنوزه ونفائسه. وأخذ يحكى عن الرحلة لأعضاء المعهد؛ ويعرض عليهم رسومه. وكانوا يتخاطفونها فيما بينهم!.. وكان "دينون"، يُفسر لهم قائلاً، إن الرسوم قد تتراءى أحيانًا صغيرة الحجم جدًا؛ ولكن، تفاصيل الأشياء، كانت قطعًا، ستستدعى المزيد من الوقت. وعمومًا، فإن الانطباع الأول.. لا بد أنه أكثر أهمية من التفاصيل؟!.. بدا "مونج" مسحورًا مفتونًا؛ وأخذ يوجه إليه سيلاً من الأسئلة. فإن عالم الرياضيات هذا، كان يريد أن يعرف مدى أبعاد ومقاييس المسلات وعمالقة طيبة. بل وسرعان ما أخذ يحسب مدى ثقلها.. والقوة اللازمة لنقلها وإقامتها!!

ومن خلال أحد الاطلاعات الموجهة لزملائه بالمعهد، لم يبخل "فيفان دينون"، فيما يتعلق بالصفحات. فمن خلال ريشته، كانت عظمة مصر تمتزج بروعة فرنسا. وبدا مزهوًا مفتخرًا لأنه هبط وتوغل حتى طيبة. بل كان يفتخر أيضًا: لأنه استطاع، أن يكتشف، من أجل وطنه، "التخوم ذاتها التى حظيت بها الإمبراطورية

الرومانية". فها هنا إذًا: امتزاج ما بين الغـزو العلمـى.. والغـزو العسكرى!

"وإذا كان حبى للعصور القديمة، قد جعل منى جنديًا؛ فإن كياسة ومراعاة الجنود بالنسبة لأبحاثى.. قد جعلت منهم، غالبًـا.. علمـاء أثريين".

ها هو إذًا الرائد قد أنجز مهمته. وعلى الآخرين إذًا، الآن، أن يسافروا إلى مصر العليا.. لكى يدرسوا ويحللوا.. ما قام لتوّه بإجماله وتلخيصه.

(٦)
فى مواجهة الطاعون

كان بونابرت حريصًا على صحة جيشه. ولـذا، فقـد اختـار طبيبين نادرَى المثال، مـن أجـل حملـة مـصر؛ همـا: "لارى"، و"ديزجينت". لقد وفد هذان الاثنان من عالمين مختلفين.

"دومينيك كانْ لارى"، فى الثالثة والثلاثين من عمره؛ يُعد مـن أبناء "الثورة". من وسط ضئيل الحال. وقد استهل تعليمه الطبى فـى "تولوز". ثم صعد، سيرًا على الأقدام إلى باريس، لكى يحصل علـى دبلومه. وتقلد رتبة مساعد الميجور فى جيش "الراين". وقد بيَّن عـن ثبات ورباطة جأش، وإبداعية واضحة، فى ساحة القتال. وجهز عددًا من عربات الإسعاف الطائرة، وابتكر أسلوبًا لتبسيط التضميدات. وقد منحه بونابرت منصب رئيس الجراحين فى جيش "المشرق".

أما عن "رينيه نيقولا ديزجينت"، فهو فى السادسة والثلاثين من عمره. ينحدر من عائلة من القضاة والمستشارين فى بلدة "ألينسون". إنه رجل ضخم البنيان؛ يميل لون وجهه إلى الاحمرار. ودرس فـى مدارس الجيزويت، فى كوليج سانت بارب بباريس، قبل أن يندمج فى

سلك العلوم الطبية. ولقد ساعده ميراث بسيط على السفر إلى أوروبا، وتعلم اللغة الإيطالية. وقاده ذلك للانخراط فى الجيش الموجَّه لإيطاليا.. حيث استطاع بونابرت أن يقدر كفاءاته. وأصبح بروفيسور فى جامعة "فال دى جراس"، وصهرًا لعميد كلية الطب فى باريس. ومع ذلك، فقد ترك هذا الوضع المناسب للغاية.. لكى يتبع، إلى مصر، هذا الجنرال الأصغر منه سنًا.. واختاره ليكون رئيس الأطباء!

جنَّد كل من "ديزجينت"، و"لارى" فى مونبلييه العديد من الأشخاص المتميزين. وكانا يريدونهم: "مثقفون، جسورون، وقادرون على تحمل معارك قاسية عنيفة وطويلة الأمد". وكان البعض يتعاركون لكى ينضموا إليهما. وهكذا، أُلحق بالعمل مائتان من الجراحين والضباط الصحيين. ولقد تكفَّل "ديزجينت" بالأدوية التى يتم إعدادها. وفى الحين ذاته، كان "لارى" يقوم بجمع أفضل وأحسن أدوات الجراحة المتاحة. فبداية من أجهزة المحجاج(*)، إلى مثاقب العظام؛ لم ينس شيئًا أبدًا. بل حتى ملاقط الجنين نفسها. خاصة أن بعض بائعات المؤن والخمور للجيش والغسالات والحائكات؛ وعدة عناصر أنثوية أخرى.. كان الأمر يقتضى أن تصاحب جيش "المشرق".. والجدير بالذكر أن جزءًا من المعدات الطبية، التى كانت قد نُقلت على السفينة "بيانفيسانس" قد ضاعت.. عندما اقتنص الإنجليز هذه السفينة. ولتعويضها، اضطر "كونتيه" أن يصنع بعض الأجهزة المؤقتة فى "أتيليه" وورش القاهرة.

وربما إذا كان تسعة جرَّاحين، وثلاثة صيادلة، يُعدون ضمن لجنة العلوم والفنون؛ فإنهم ليسوا الوحيدين الذين يساهمون فى أوجه الأنشطة العلمية الجارية؛ فهناك "ديزجينت"، و"لارى"، خاصة، اللذان

(*) مِحْجَاج: ميل يُقدر به عمق الجرح.

انضما إلى "معهد مصر"؛ ويبدوان كعلماء فعليين. وهكذا، كان نصيب كل منهما مهنة رائعة.. عند رجوعهما إلى فرنسا.. بل وكتابة اسميهما على "قوس النصر".

فور وصوله إلى مصر، جابه جيش المشرق العديد من الأمراض غريبة الشأن؛ الناجمة من المناخ ذاته، والتغذية أو الأوبئة؛ مثل: ضربة الشمس، والتهاب العيون، والدوسنتاريا، والطاعون. ولذا، فقد قرر المسئولون اتخاذ إجراءات وقائية، جماعية أو فردية. وكمثال: تهيئة المحاجر الصحية، وإنشاء الكارنتينة، وجمع البقايا والفضلات، وإبادة الكلاب الضالة. كما تلقى الجنود تعليمات من أجل تجنب حالات الإسهال المعوى؛ ومقاومة لدغات العقارب، وحماية أعينهم. وبذا، فقد قُدم "موجز عن التهاب العيون السائد دائمًا" إلى المعهد؛ بداية من الجلسة الثالثة، بتاريخ الثانى من سبتمبر عام ١٧٩٨، من جانب "المواطن بريانت، الطبيب الاعتيادى بالجيش". ولقد أبدى ملاحظته قائلاً: إن الكثيرين من الجنود قد أُصيبوا بهذا المرض؛ الذى تسببه شدة حرارة الشمس، والرياح المحملة بالرمال. وعند المرحلة المتقدمة من هذا الالتهاب، قد تُثقب القَرنيَّة.. ثم تنفجر!!.. ومن خلال التقارير اللاحقة، الأكثر دقة، أومأ الأطباء قائلين: إن الأشخاص الشُقر يكونون أكثر رهافة من السُمر. وأن العين اليمنى، قد يلحق بها الرمد أكثر من اليسرى. وبذلك، فهم ينصحون، وفقًا لتباين الأحوال، باستعمال قطرات العيون المتباينة المختلفة، والكمادات، وحمامات الرجلين، والفصد من الرقبة، أو الذراع أو القدم؛ أو الاستعانة بالعَلَقة على الصدغين؛ أو، بكل بساطة استعمال "لبخة مكونة من بياض البيض، المضروب مع عدة نقاط ماء ورد، وبعض حبات الحجر الشبّ".

بعد فترة ما، حظيت مصر بما لا يقل عن تسعة عشر مستشفى؛ منها ستة متجولة، وأربعة للحَجْر الصحى. ونجد أن أكثر هذه

المؤسسات ضخامة، بالقاهرة؛ حيث يسكن "ديزجينت"؛ قد أُعدت وجُهزتْ بالبيت الريفى العتيق الخاص بالمملوك "إبراهيم بك"، بقلب جزيرة الروضة. فياله من سعيد محظوظ هذا الفرنسى الذى يقطن فيه!!.. فإن هذه الجزيرة مكان ساحر خلاب. وفى جنباتها توجد "أجمل أشجار الجميز فى مصر"؛ فهذا ما يؤكده رئيس الأطباء. فها هو نخيل البلح، وأشجار البرتقال، والليمون، والطرفاء، والسنط، والرُّمان والموز.. تنبثق فى أنحائها فى فوضى هائلة، مكونة بذلك غابة مدنية أخاذة ساحرة!!

أطباء فى الموقع

تُرى، هل عساهم الأطباء الفرنسيون لا يبالون أو يهتمون بالأهالى الأصليين؟!! عامة، فيما يتعلق بالصحة العامة، كان الشعب يكون كلاً إجماليًا. وفى السادس والعشرين من نوفمبر عام ١٧٩٨، قام "ديزجينت" بزيارة تاريخية لـ"ماريستان القاهرة"، بمصاحبة الشيخ "الشرقاوى"، رئيس الديوان. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يدخل فيها أحد المسيحيين هذا الملجأ: الذى تأسس فى القرن الثالث عشر؛ ويقع على مقربة من الجامع الكبير. وبداخله، اكتشف الفرنسى دهليزًا أعجوبة حقًا.. حيث الرجال، من جانب، والنساء من الجانب الآخر، يتقاسمون بعض الأماكن الخربة المهدمة!! أما عن الأسرَّة، فهى حجرية؛ وتتكون من بلاطة مستطيلة، بها ثقب كبير.. ليكون بمثابة مرحاض!!.. وبدا "المجانين" من الجنسين مُكبَّلين بالسلاسل. كما أن بعض المقيمين دائمًا، قد قرضهم المرض.. فلم يعد لهم أنوف!!

اقترح "ديزجينت" إحلال الماريستان بمستشفى حديث يضم حوالى خمسمائة سرير. وتُقرن به مدرسة طب: حيث تُقدم المحاضرات باللغة الفرنسية. وبذا، كان من المفترض إذًا، أن تُدرس،

بداية هذه اللغة لعدد من الشباب المصريين. كما أزمع أن يقوم "لارى" بإعداد عدة نساء قابلات ودايات. وفى الحين ذاته، تعمل صيدلية مركزية على توافر الأدوية بأسعار زهيدة. ولكنها تكون مجانية بالنسبة للفقراء. وفى الخامس عشر من ديسمبر عام ١٧٩٨، قال رئيس الأطباء شارحًا وهو يقدم مشروعه الخاص ببناء المستشفى لبونابرت: "إن مثل هذه المؤسسة، أيا جنرال، سوف يفتح فى مصر مصدرًا للكمال والإتقان والازدهار. كما أن دعوات الفقير، تعبيرًا عن عرفانه بالجميل.. سوف تمتزج بتذكارات النصر التى يرفعها لكم المجد والفخر عاليًا".

ربما لنقص الإمكانات، أو لقلة الوقت أيضًا، لم يستطع "ديزجينت"، و"لارى" أن يحققا مشروع المستشفى ــ المدرسة. ولكن، يرجع الفضل لفرنسى آخر، الدكتور "كلوت"، لإنشائه مدرسة طب بأحد أحياء القاهرة فى عام ١٨٢٥.. أى بعد مرور حوالى ربع قرن من نهاية الحملة..

فى مصر، عكف "ديزجينت"، على دراسة الطب؛ ليس من الجانب الفردى، بل كظاهرة اجتماعية. وطلب من أطبائه، أن يضعوا بيانات طبوغرافية وطبية عن المناطق التى يمارسون بها نشاطهم. وهكذا، يضم أحد المنشورات الصادرة فى الثانى عشر من أغسطس عام ١٧٩٨ ما يلى: "إن وظائفنا فى نطاق الجيش لا تنحصر فى مجرد معالجة الأمراض. فعلينا أن نعمل دائمًا على مراقبة ما يمكن أن يوفر الصحة للعسكريين.. ولكن، من أجل أن تُطبق كما يجب المبادئ الصحية؛ وللعثور على العقاقير الفعالة فى بلد يُعد جديدًا بالنسبة لنا.. فإن الأمر يقتضى، العمل، بكل دقة على تدوين طبوغرافيته". ثم، يتلو ذلك مجموعة أسئلة من خلال عدة نقاط؛ لم يُنس منها شيء مطلقًا: خط العرض، خط الطول، الرياح السائدة، طبيعة التربة، نوعية المياه، الحيوانات، النبات، والحبوب التى تُزرع،

وأسلوب زرعها، والمواد العلاجية المستعملة.. كما دُعى الأطباء أيضًا إلى: "توضيح المزاج العام الذى يتسم به الأهالى، ومأكولاتهم، ومشروباتهم، وملابسهم، وأسلوب بناء منازلهم، وأعمالهم وأشغالهم، وعاداتهم وتقاليدهم".

بدت الإجابات مُعبرة تمامًا عن حالة الأشخاص. وفى شهر أبريل من عام ١٧٩٩، قدم المواطن "ريناتى" الطبيب الاعتيادى بالجيش للمعهد: "الطبوغرافية الفيزيائية والطبية لـ"القاهرة الجديدة". ومن خلال الفصل المتعلق بالأمراض، أومأ إلى قلة أمراض الأسنان؛ أما الصَّمَم، فيكاد يكون غير مألوف؛ ومع ذلك، فهناك حالات الفتق المتعددة الأنواع، والكثير من مظاهر مرض الربو؛ والعَمَى منتشر على أوسع مدى بسبب تعدد مرات الإصابة بالرمد وسوء المعالجة. أما عن التقاليد والعادات الجنسية لدى السكان، فلم يتوارَ عن رصده وملاحظاته، حيث قال: "إن الرجال شهوانيون للغاية، وفائقو الغَيْرَة. وغالبًا ما يصبحون عاجزين جنسيًا، عند بلوغهم الأربعين. أما النساء فهن خصبات جدًا. والعقم نادر جدًا لديهن. والاستمناء قلما يُمارس. ولكن، لا شك أن المنكر الذى يشوب مظهر الطبيعة.. مألوف جدًا؛ خاصة بين كبار السن!!.. وعمومًا، لا يُستثنى المسيحيون من هذا اللوم".

فى نهاية رحلة على ضفة النيل الغربية، بداية من القاهرة حتى أسيوط، ها هو طبيب آخر عسكرى، المواطن "سيريزول" يقوم بدراسة الشكل الفيزيائى للسكان. وقد لاحظ، بكل أسف: "أن النساء لهن أثداء رخوة ومترهلة ومستطيلة الشكل؛ وبطونهن ضخمة". ولا شك "أن كل ذلك، يعمل، منذ وقت مبكر على تشويه قوامهن.. الذى قد يكون ملائمًا أو ممتازًا". ثم نجد أن هذا الطبيب الممارس، يتحول إلى محقق أيضًا: حيث يبدى اهتمامه، على حد سواء، بالتطيُّر والخرافات، وأيضًا بالعادات والتقاليد. فيذكر: "أن الفتيان الذين

تتراوح أعمارهم ما بين الثانية عشرة والخامسة عشرة، يُبْدُون مبكرًا شهوانية بالغة. ويُستثارون بوساطة المنبهات والمنشطات. وغالبًا، فهم يجدون، بكل سهولة، من خلال ملاطفة ومراضاة الجنس الآخر.. ما يرضى متطلباتهم. ولذلك، فإن ممارسة العادة السرية المنتشرة عندنا إلى درجة فائقة.. تبدو غير دارجة لديهم".

لقد شارك العديد من غير الأطباء فى هذه التُحقيقات الشاسعة المدى. فنجد، خاصة عالم الفلك "نوتيه" الذى قدم الكثير من المعطيات الدقيقة، عن الضغط الجوى، والرياح أو حال السماء. كما تم تحرير قوائم وفيات عن مدينة القاهرة. ومن خلالها، دُونت يومًا بعد يوم، وحيًا فى إثر حى.. أسماء الأفراد المُتوفِّين، وجنسهم، وأعمارهم، وحال ومدى فترة أمراضهم. ولا ريب أن كل ذلك قد ساعد على وضع عدة إحصائيات.. بل وكذلك على ترقُّب حدوث الأوبئة واتخاذ الإجراءات الوقائية.

من خلال رسالته الدورية، ذكر "ديزجينت"، أن مصر، بعد أن كانت مهدًا للطب بأسره "وقعت فريسة لكمٍّ هائل من الخرافات الخرقاء المَعيبة"، فسقطت إلى أدنى درجات هذا المجال. ومع ذلك، فقد لاحظ قائلاً ــ بتفتح فكرى مدهش بالنسبة لعصره ــ : "إن الفرنسيين يجب أن يتعلموا بضعة أمور من الأهالى المحليين. فلا شك أنه ما زالت هناك بعض آثار هذا العلم العريق؟!". وهكذا، أمر أطباءه بقوله: "فلتدرسوا، بكل عناية ممارسات البلد. حتى لو بدا لكم هذا التطبيب بالتجربة (شعوذة) ضئيل الاعتبار.. عند الوهلة الأولى. فإن الضرورة تحتِّم معرفته.. لكى يحق لنا الحكم عليه!.. ولنكن أيضًا على يقين بأنه: فى مناخ جديد، بل وبكل مكان.. أن الأقل تعليمًا ومعرفة، يمكنهم أن يلقنونا أمورًا نافعة".

قطعًا، إن رئيس الأطباء قد وجد حينذاك آذانًا صاغية من جانب عدد من زملائه، بالرغم من بعض الترفع والتكبر الأكيد السائد بينهم.

ولوحظ الرصد والملاحظة، فى كافة الأنحاء. وأخذ الجميع يتبادلون الوصفات، بعد التوصية بها: سواء كان الأمر يتعلق بزيت الكتّان من أجل معالجة التشنجات، أو مستخلص غلى حبوب الخروع كطارد لديدان الأمعاء. ولمعالجة الدوسنتاريا، نصح الطبيب "فرانك" بنظام غذائى يرتكز على الفول المصرى مضافًا إليه بعض الليمون (الطبق الشعبى)؛ بل وكذلك ثمرة "البا أوباب". وتبين أن المرضعات فى مصر العليا، يشربن الدواء.. المفترض لعلاج الأطفال الرُضَّع.

قطعًا، إن الملاحظة القريبة للممارسات المحلية، لم تمنع أبدًا من الاهتمام بالعصور الغابرة. وهكذا، فإن رئيس الجراحين "لارى" خلال دراسته ورصده للشكل الفيزيائى للمصريين، ولمختلف الأجناس التى تعيش فى مصر، قد عكف أيضًا على دراسة نظام التحنيط لدى المصريين القدماء. ففى تاريخ السادس من يناير عام ١٨٠١، قدم للمعهد: "ملحوظات عن عدد كبير من الرؤوس المفصولة عن عدة مومياوات". ووفقًا لرأيه "أنها تؤكد غالبًا: أن الأشخاص أصحاب هذه الرؤوس، كانوا يحظون بقوة جسمانية، أكثر مما يتسمون به من ذكاء".

حملة سوريا

استجابة لمتطلبات أكثر سرعة، عمل "لارى" على إعداد نظام خاص بسيارات الإسعاف يتطابق مع طبيعة البلد. فأمر بأن يُزود عدد من الجمال بسلتين ضخمتين مصنوعتين من أفرع نخيل البلح: تُعلقان على جانبَىْ سَنام الجمل، بوساطة أحزمة مطاطية. وهكذا، يتم إرقاد الجرحى فوق مرتبة، وقد سُندت أرجلهم وسيقانهم بوساطة لوحة هزازة مريحة .. ولقد ثبت أن عربات الإسعاف هذه ــ أربع وعشرون لكل فرقة ــ قد بينت عن أهميتها الفائقة خلال معركة

سوريا، التى بدأت فيما بعد، بتاريخ العاشر من فبراير عام ١٧٩٩. وخلالها، عمل الأطباء الفرنسيون بكل همتهم ونشاطهم.

على رأس جيش مكون من اثنى عشر ألف جندى، انطلق بونابرت لمحاربة الأتراك الذين يلقون التعضيد والمساندة من جانب الإنجليز؛ والذين هددوا بغزو مصر من ناحية الشرق. ولكنه، فى مخيلته، لم يكن الأمر يتعلق فقط بحرب وقائية فحسب: بل كان يهدف إلى إثارة عصيان وتمرد عربى ضد السلطة العثمانية. بل وفكر أن يجر وراءه المارونيين، والدروز، واليونانيين، والأرمن. وكان على هذه الشعوب المتحالفة أن يسمحوا لـ "الإسكندر الجديد" بأن يمضى قُدمًا حتى أبواب إسطنبول.. لم يتحول فى اتجاهه نحو الهند.. لكى يحقق: إمبراطورية المشرق!

لقد رافقه عدد من العلماء والفنانين فى هذه المغامرة العسكرية، كانوا يريدون مشاهدة بلاد، ويمدون مجال أبحاثهم. وربما أن "مونج" و"برتوليه" كانا يسافران فى عربة القائد الأعلى؛ ولكن زملاءهما كانوا يمتطون جيادًا أو ظهور الجمال.. وأحيانًا سيرًا على الأقدام؛ مثل عالم الطبيعيات "سافينى" الذى كان ينهمك فى جمع الحشرات والثعابين المهمة التى يجدها فى طريقه. وعن عالم الجغرافيا "جاكوبان" فقد تسلح ببوصلة، وبدا مبكرًا.. إعداد خريطة البلد الذى يجرى غزوه!

قطعًا، إن السير فى الصحراء، حتى العريش، يتسم خاصة بالصعوبة والقسوة. ولكن، على ما يبدو أن التعطش للمغامرة كان لا يزال سائدًا. وفى مدينة "أشدود"، نظم "مونج" رحلة علمية سريعة، من أجل الذهاب لتفحُص شجرة نخيل بلح خارقة للمألوف، بمكان منعزل بالصحراء. وهناك، قام عدد من الثقَّابين بشق الشجرة أمامه.. ليخرجوا من داخلها ثمرة شبيهة بجوز الهند.

فى السابع من مارس، شاهد العلماء والفنانون فى فزع ورعب، عملية الاستيلاء على "يافا". وعن هذه الواقعة الدموية، قدم عالم الكيمياء "مالوس" سردًا بشعًا!! حيث تمكن الجنود الفرنسيون، فى نهاية الأمر من فتح ثغرة.. فانقضوا مهاجمين على صوت موسيقى مختلف فيالق الجيش. وسرعان ما تقهقر الأعداء بداخل المنازل والحصون المتاخمة وقد تسلحوا ببنادقهم. واستمروا فى المقاومة طوال ساعة كاملة. وهنا، انقض المهاجمون (الفرنسيون) على الأهالى المدنيين.. رجال ونساء ومسنين وأطفال.. وأطلقوا عنان احتدامهم وغضبهم على كل آدمى!!

وهكذا ذكر "مالوس": "ضجة المذبحة وصخبها.. والأبواب المحطمة، والمنازل التى تزلزلت بأصوات الطلقات والأسلحة، وعويل النساء؛ والأب والابن وقد أُوقعا الواحد فوق الآخر، والابنة التى اغتُصبت فوق جثة أمها، ودخان الموتى الذين احترقوا من خلال ملابسهم المشتعلة، ورائحة الدماء، وتأوهات الجرحى، وصرخات المنتصرين وهم يتعاركون للاستيلاء على غنائم وأسلاب.. ضحية فى النزع الأخير؛ والجنود المتنمرين الذين يردون على صرخات اليأس والألم بصيحات السعر والضربات المضاعفة؛ وأخيرًا، رجال أشبعهم ورواهم الدم والذهب.. فسقطوا إرهاقًا وتعبًا.. فوق أكوام الجثث!!!.. هذا هو المشهد الذى صورته هذه المدينة البائسة حتى أرخى الليل سدوله!".

عمومًا، لم تكن البقية أقل رعبًا وهلعًا. فإن حوالى ثلاثة آلاف جندى عثمانى الذين فروا من المذبحة، وألقوا بأسلحتهم.. قد تم أسرهم. وأمر بونابرت، بأن يوضع المصريون (٥٠٠) بجانب، ثم يُرحّلوا إلى بلدهم. ولكنه، بكل برود، أمر بإطلاق البنادق على الآخرين جميعًا. ولقلة الذخيرة اللازمة، تم قتلهم بسُنْك البنادق أو بالسلاح الأبيض! وبذا، نجد ضابط فرقة الفرسان "جاك ميوت" يصف

ذلك بقوله: "إنه هرم بشع مرعب مكون من القتلى والمُحتـضَرين.. تقطر منه الدماء!!". ثم أكد قائلاً: "لم يكن الجنود الفرنسيون يقترفون ذلك إلا باشمئزاز بالغ من المهمة البشعة.. التي حُتم عليهم أن يؤدوها بأذرعهم التي حققت النصر!". حقًا، إن بونابرت لرغبته الشديدة في إرهاب فلسطين، لكي يتمكن تمامًا من غزوها. قد بـدا هنـا، بكـل صلافته وجبروته!.. ولا شك أن أكثر من عضو بمعهد مصر، قـد غير نظرته لهذا الزميل الشهير بقسم الرياضيات!..

في "يافا"، لم يتأخر مرض الطاعون في الظهور بين صـفوف الفرنسيين. ولتفادي مشاعر الفزع والرعب بلا داعٍ، وصف كل مـن "ديزجينت" و"لاري" هذا الداء باسم: "الحُمَّى ذات الخـراريج". ومـع ذلك، فإن هذه الحيلة لم تخدع أحدًا طوال الوقت. وها هو "فـاللوس"، الذي كان مكلفًا بتنظيم مستشفى من أجل المصابين بالطاعون.. قـد طاله بدوره هذا الوباء. وقبل أن يُنقل إلى دمياط، ويتم إنقاذه، تقابـل مع زميله "أندريه دي سان سيمون"؛ وهو من فرسان جيش مالطـة، ضُم إلى لجنة العلوم والفنون بعد غزو هذه الجزيرة: بيَّن "فـاللوس" قائلاً: "عند حضور "سان سيمون" إلى القاهرة، جاء لرؤيتي. وكـان متمتعًا بكامل صحته.. وفي اليوم الثالث: مات!".

عاود الجيش الفرنسي مسيرته. وبعد مروره بـ "حيفا"، استهل مهمته باحتلال "سان جان داكر"، حيث كان "أحمد باشـا" المُـسمى بـ"الجزار"، قد فرض سطوته بالإرهاب. وكان هذا العثماني يحظى بتعضيد ومساندة الأسطول الإنجليزي الصغير بقيادة "سيدني سميث"؛ وأيضًا بالنصائح التقنية من ناحية "أنطوان دي فيليبو"، وهو مهـاجر ملكي فرنسي.. وزميل سابق لبونابرت بالمدرسة العسكرية!

وها هو وباء التيفود ينتشر بقوة بين المهاجمين. وقـد أُصـيب "مونج" بالحمى القُلاَّعية؛ وزاد من خطورتها إصـابته بالدوسـنتاريا أيضًا. أما عن صديقه "برتوليه" الذي استهل مهنته كطبيب، فإنه لـم

يكن يغادر خيمته أبدًا. بل إن بونابرت نفسه، كان غالبًا ما يسهر بجوار عالم الرياضيات هذا، ويقدم له مشروبه. وللعناية المتميزة التى كان "مونج" يلقاها، فإنه قد أفلت من الموت. ووقف ثانيةً على قدميه، فى خلال أربعة أسابيع.

ولكن، البعض الآخر كان أقل حظًا. فإن المستشرق " فنتور دى باراديس" المعاون النادر لبونابرت، قد تُوفِّى إثر إصابته بالدوسنتاريا. وبالنسبة لـ"هوراس ساى" رئيس أركان الجيش وعضو المعهد، فقد جُرح.. ثم سقط صريع الطاعون!.. أما الجنرال "كافاريللى"، فقد أُصيب برصاصة، وتحتَّم الأمر، أن يقوم "لارى" باستئصال ذراعه!.. وهكذا، فإن هذا الرجل ذا الساق الخشبية، كان يُدبر أمره لكى يمتطى صهوة جواده.. مستعيناً بما تبقى له من أعضاء!!.. ولكن، سرعان ما قضت عليه الحمى فى أقل من ثلاثة أسابيع. وأثناء رقاده على فراش الموت، وجد أن لديه شيئًا من القوة، لكى يلقى نمطًا من الحديث- البرامجى: عن التعليم العام!.. ولا شك أن وفاته قد سببت صدمة بالغة. سواء بين الجنود الذين كانوا يبجلونه ويوقرونه، أو بين العلماء والفنانين؛ حيث كان مسئولاً عنهم، منذ بداية الحملة. وبذا، نجد أن بونابرت قد صرح: "لقد فقد الجيش واحدًا من أكبر قادته شجاعة وبسالة. أما مصر فقد خسرت أحد مُشرِّعيها؛ وفرنسا واحدًا من أفضل مواطنيها، والعلم، فقد ضاع منه رجل كان يقوم فى إطاره.. بدور عظيم".

ولكن، نجد أن العلم، فى هذا الصدد، قد احتفظ بحقوقه: فإن الجنرال، بعد وفاته.. قد تم تشريحه، بيدَىْ "لارى" وبحضور "ديزجينت"!. ومن خلال تقريره لمعهد مصر، حدد رئيس الجراحين قائلاً: "خلال معركة سوريا، أردت البحث فى أعماق أحشاء الموتى، عن أسباب هذا المرض. وأول جثة قمت بفتحها، كانت لأحد المتطوعين الذى يناهز الخامسة والعشرين من عمره". وبالإضافة

لذلك، تعددت مآثره التقنية: بدءًا من إعادة خياطة لسان أحد الضباط، الذى أُصيب بجرح خطير؛ ثم بعد ذلك، عمل على إطعامه بواسطة أداة المِحْجَاج.. ثم بالرَّضَّاعة!.. ولا شك أنه لم يكن من السهل مطلقًا تلافى حدوث التلوثات فى مثل هذه العمليات باليد المجردة: حيث تجرى أحيانًا فوق منضدة عادية، أو حتى على الأرض!.. وتعارضًا لتوصيات: "إمبرواز باريه" التى نهج عليها الجراحون منذ قرنين، كان "لارى" يعيد إقفال الجروح الصدرية المصحوبة بنَزْف ما. ولكن، يبدو أن نجاح هذه الوسيلة، قد جعلها، بعد ذلك تُدمج فى قواعد العلوم الطبية.

جدال بخصوص وباء

لقد فجَّر وباء الطاعون خوفًا وهلعًا كبيرًا لدى الفرنسيين. وبذا، فإن "ديزجينت" لجأ إلى عمل مذهل من أجل تهدئة النفوس: قام، على مشهد من الجميع بتلقيح نفسه بهذا المرض. وبخصوص هذه الواقعة الشهيرة، لا ريب أن أقواله تُعد ذات أهمية: "من أجل تهدئة التخيلات، وتداعى شجاعة الجيش وبسالته؛ فى وسط المستشفى، قمت بغمس مبضع فى صديد خُرَّاج؛ بجسم أحد المرضى الماثلين للشفاء من المرض بالدرجة الأولى. وحقنتها لنفسى عند ثنية الفخذ وقريبًا من الإبط. ولم أتخذ أية احتياطات أخرى: سوى أننى قد اغتسلت بالماء والصابون". وبدا رئيس الأطباء سالمًا مُعافًى. ولكن، قطعًا أن هذه التجربة الناقصة لا تلغى انتقال المرض. ولا شك أن هدفه الوحيد: أن يرفع من معنويات الجنود. أما هو، فقد أُصيب إلى حد ما!!

فى "سان جان داكر"، جابه بونابرت مخاصمة علنية، جهارًا وأمام جمع، من جانب مهندس شاب يعمل فى "الكبارى والطرق" "لويس جوزيف فافيه": فقد ثار هذا الأخير ثورة عارمة عندما رأى

ملازمًا شابًا من أصدقائه.. وهو يُحتضَر ويلفظ آخر أنفاسه!.. وهنا، تملكت الشاب حالة تشنجات، وأخذ يندد، بكل عنف.. بالغزاة عديمى الذمة والضمير. وهنا، بدا القائد الأعلى عديم التأثـر؛ وطالب بإحضار قِنّينة من الأفيون.. وأمر بأن تُعطى منها جرعة قوية لـ "فافيه".. الذى سرعان ما هدأ.

بعد المعاناة من خسائر فادحة، أعلن بونابرت، فى نهاية الأمر، أن "سان جان داكر".. لن تستسلم. وهكذا، تقرر الانسحاب فى السابع عشر من مايو. وقُصفت المدينـة للمرة الأخيرة، من أجل الإضرار بذخيرتها واضمحلالها.. والمخادعة أيضًا!.. وكان "كليبر" يقود مؤخرة الجيش. وقد كُلف بأن يدمر كل شيء ويشعل الحرائق؛ بعد مرور الجيش الفرنسى. وحقيقة أنه أبدى بعض السخط والتذمر ضد "الكورسيكى".. ولكنه نفذ ما أُمر به!!

انتهى الحلم!.. وبعد مرور عدة سنوات، فى "أوسترليتز" أسرَّ نابليون لبعض المقربين منه: "لو أننى كنت قد استوليت على "عكا".. فإننى كنت سأنعم بالعِمَامة. وكنت سآمر رجال جيشى بارتداء سراويل ضخمة.. وكنت سأتوج نفسى: إمبراطور المشرق.. وأعود إلى باريس عن طريق إسطنبول!!".

فقد جيش حملة سوريا ما يزيد على ألف رجل. منهم اثنا عشر عضوًا من لجنة العلوم والفنون. أما الباقون، فكان عليهم عبور الصحراء. وأكيد، أن هؤلاء الأخيرين كانوا سيعانون العذاب المرير: حتى إذا كانت قد خُصصت لهم أعداد من الجياد. ولا شك أنهم كانوا سيذوقون ضمن الكثير غيره ألم لدغة الذبابة الزرقاء، التى تضع ديدانها بداخل القروح.. مُسببة بذلك حكّة رهيبة!!

فى "سان آكر"، ثم فى "يافا" تقـرر اسـتحالة نقـل المـصابين بالطاعون. وهنا، طالب بونابرت "ديزجينت" بإعطائهم جرعة قويـة جـدًا من الأفيـون.. لوضع حد لمعانـاتهم وآلامهم. وأيضًا، حتـى

لا يقعوا أحياءِ بين أيدى الأتراك!!.. ولكن رئيس الأطباء رفض ذلك. بل قال: "إن واجبى.. هو العمل على الحفظ والبقاء". وغضب بونابرت ولكنه تراجع عن إرغامه على الرضوخ لأوامره. وهكذا، توجه لرئيس الكيميائيين "جان فرنسوا روابيه".. الذى اعتذر عن ذلك، بدون احتجاج وتذمر.

بدا طريق الصحراء أكثر صعوبة وقسوة عما بدا عليه عند الذهاب. فها هو "لارى" نفسه قد أُصيب بحالة إغماء. وعند الصالحية، ارتمى بعض الجنود الظمآنين على بطونهم فوق شط بحيرة صغيرة.. لكى ينهلوا بنهم شديد.. من مياه غير مأمونة!!.. وبعد وقت وجيز بدءوا يشعرون بنغزات وشَكّات مؤلمة فى حلوقهم. ثم بدءوا يبصقون بعض الدماء!.. وعندئذ، قام رئيس الجراحين بفحص أحدهم. وعندما أخفض لسان المريض بوساطة ملعقة.. اكتشف وجود دودة العلقة فى تجويف الحلقوم!!.. وهنا، أدخل به ملقط تضميد للإمساك بها. ولكن، عند اللمسة الأولى، سرعان ما انكمش هذا الحيوان، ليصعد خلف حاجز سقف الحلق. ويذكر "لارى" فى هذا الصدد: "لقد حتّم الأمر انتظار معاودة أخرى من جانبها. وهنا، وبوساطة ملقط خاص بانتزاع الورم اللحمى، المُنحنِى طوليًا.. انتزعتها بمسكة واحدة!!".

ضد هذا الوباء غير المنتظر، نصح الأطباء الفرنسيون باستعمال عدة علاجات: مستوحاة من الأسلوب الذى يعالج به المصريون جيادهم. وفى بعض الأحيان، كانوا يستطيعون نزع ديدان العلقة من حلق الجنود المصابين: بجعلهم يستعملون غرغرة الخل والماء المملح. ولكن أحيانًا، قد تتغلغل هذه الحيوانات اللعينة إلى المنخَر، ومنه، تدخل المرِّىء. ومن هذا الأخير تتسلل إلى المعدة!.. وربما أن هناك معالجات أخرى، قد تتباين فى مدى فاعليتها.. يجب التوصل إليها.

عمل بونابرت على أن تُجهز من أجله مظاهر عودة انتصارية إلى القاهرة. وهكذا، أخذت الأعلام والرايات المسلوبة من العدو.. ترفرف فوق مآذن العاصمة. وسارع الشيخ "البكرى"، رئيس الديوان، بإهداء القائد الأعلى جوادًا عربيًا أصيلاً.. مكسوًا بالذهب والأحجار النفيسة: ويقوده عبد شاب مملوكى.. كجزء من الهدية!!.. ولقد عُمد الحصان باسم "سلطان".. الذى ركبه، فيما بعد نابليون فى أوسترليتز!.. أما "رستم" العبد الشاب.. فقد أصبح المملوك الأكثر شهرة لدى الإمبراطور"..

خلال هذه الأشهر الأربعة، ساد الهدوء أنحاء البلد. وقطعًا، يُعد ذلك بمثابة عمل جيد بالنسبة لـ"جوزيف فورييه" السكرتير الدائم للمعهد، والمُفوَّض لدى الديوان؛ حيث كان يمارس نمطًا من الحكم، أثناء غياب الجنرال الأعلى. ولذا، فإن نابليون، أثناء وجوده فى سانت ـ هيلانه، قد أصاب تمامًا بقوله: "إن المصريين، خلال حرب سوريا.. قد بينوا أنهم فرنسيون صالحون"!

عاود "المعهد" أوجه نشاطه. ولكن، لا ريب أن النزاع المأساوى المتعلق بـ"عكا"، و"يافا".. قد ترك بصمات واضحة. وخلال جلسة الرابع من يوليو، طالب بونابرت بتكوين لجنة دراسة عن الطاعون. وعندئذ، أحس "ديزجينت" بأن هناك فخًا يُنصب له. فرفض المشاركة بها: وقطعًا، سوف يُعزى إليه إخفاق معركة سوريا؟!.. وها هو الجنرال الأعلى، يتهمه فعلاً، بأنه لم يتعرف فورًا على الوباء. بل وأخذ يندد بما بدا عليه من "شعوذة"، وتعددت الهمسات فى القاعة..

وبدوره، قام رئيس الأطباء "ديزجينت" بلوم بونابرت.. لأنه حثه ودفعه لارتكاب عمل إجرامى!!.. وهنا، تحولت المناقشة إلى منازعة!!.. وهكذا، فإن الصيحات التى كان يُطلقها الرئيس "برتوليه"، محاولاً تهدئة الموجودين، قد أثارت انتباه المرشدين الخاصين ببونابرت. فتدافعوا إلى باب القاعة. وفى وسط المجتمعين، كانت

تتعالى مثل هذه العبـارات: "مـستبد شـرقى"!.. طاغيـة يـستعين بـ"الحرس المسلح حتى فى محيط حـرم جمعيـة مـسالمة وأدبيـة علمية"!!

وهنا، صاح "ديزجينت" بصوتٍ عالٍ مهيب: "أيا جنرال، ما دمتم تريدون أن تكونوا هنا مجرد عضو بالمعهد؛ وتصرون على كـونكم قائدًا فى كل مكان، فإننى أعلم إننى قد اضطُررت للنطق بكل حرارة بأشياء قد يصل صداها إلى أبعد من هذا المكان.. ولكننى، لن أسحب كلمة واحدة". عندئذ، أُرغم بونابرت على الرضوخ: إن لجنة الدراسة لوباء الطاعون، سوف تـضم كُـلاً مـن: "مـونج"، و"برتوليـه"، و"كوستاز"، و"بوريين".. ولكن "ديزجينت"، لا. وعلى ما يبدو، أن هذا المشهد ــ الأكثر صخبًا وضجيجًا فى عهد "معهد مصر" ــ لم يستتبع أية نتائج أو عواقب خطيرة. حيث كان "ديزجينت" يحظـى بـشعبية فائقة فى إطار الجيش. كما أن بونابرت كان فى حاجة ماسَّـة إليـه. وهكذا، فقد ضُمت إلى مهام رئيس الأطباء هذا، إدارة جريدة "أنبـاء مصر"، بداية من شهر أغسطس عام ١٧٩٩؛ وفى نـوفمبر، تبـوَّأ رئاسة المعهد. ولكن بونابرت.. لم يعد قائمًا فى مصر.

(٧)
الحجر الذى أصبح شهيرًا

حضر "ديودات دى دولوميو" إلى مصر خاصة، من أجل مراجعة نظريته عن تكوين دلتا النيل. ولكنه، عند حضوره إلى الموقع، فإن هذا الجيولوجى الشهير، الذى قدم أعمالاً أساسية عن الفحم الحجرى، وكربونات المغنسيوم، والزلازل والبراكين.. قد اجتاحه حب استطلاع لا يتوقف أبدًا؛ فعمل على توسيع مجال أبحاثه إلى أقصى مدًى. فقد أراد أن يرى كل شىء، ويتعرف على كل أمر. وبجوار الدراسات عن النهر، والزراعة بمصر السفلى، أولَى اهتمامه أيضًا إلى إعمار النُّصب والمنشآت القديمة، وإلى أسلوب صناعة الخبز؛ بل وكذلك لبناء طواحين الهواء.

إن هذا الرجل الذى شارَف على الخمسين من عمره، لم يهضم أبدًا الدور الذى أسنده إليه بونابرت، خلال فترة الاستيلاء على مالطة. حيث كان قد كلفه بالتفاوض فى أمر تسليم "فرسان النظام"؛ الذى كان ينتمى إليهم قبل ذلك!..

فى القاهرة، كان "دولوميو" يسخر من "البلاط" الذى يحيط بالقائد الأعلى. وعلى حد قوله: "إن المرء يشعر بارتياح أكثر فى القصر

الملكي لدى دوق أورليانز..؛ بخلاف ما يبدو عليه الحال فى قصر الألفى بك. كما أن العيش فى ظل أوامر أحد العسكريين.. "يُرهق مخيلته".

وعن بونابرت، من جانبه، فإنه لم يكن يستحسن أبدًا، أن يبدى هذا العالم بعض الشكوك بخصوص خصوبة الدلتا. وكذلك، كان رأيه، فيما أوضحه هذا العالم إيَّانه، من خلال أحد تقاريره عن أطلال الإسكندرية؛ فذكر تلك العبارة اللاتينية: Tempus edax rerum (الزمن يُدمر الأشياء) .. فأثار بعض الابتسامات فى "المعهد". إذًا، والحال هكذا، فعندما أبدى "دولوميو" رغبته فى الرجوع إلى فرنسا.. مُنح التصريح بذلك فورًا.

بمصاحبة مساعده "كوردييه" أبحر الجيولوجى فى العاشر من مارس عام ١٧٩٩ على متن "المالطية الجميلة". وربما كان عليه أن يتخوَّف من هذا الاسم.. وفى عرض البحر أرغمت عاصفة عاتية السفينة على الاحتماء فى "تارنت". وهناك، أُلقى بـ"دولوميو" فى زنزانة مظلمة ومُنع من مخالطة الآخرين؛ وذلك، تحت ضغط من جانب "فرسان مالطة" اللاجئين إلى مملكة "نابولى. حيث اعتلَّت صحته على مدى ستة وعشرين شهرًا. وأخيرًا، تمكنت تعبئة مكونة من عدة علماء أوروبيين، من الدفاع عنه، وإتاحة إطلاق سراحه. فتوجه إلى باريس، حيث كان ينتظره كرسى الأستاذية فى علم المعادن، بـ"الميزيوم". ولكن، سرعان ما أصابه المرض، والإنهاك؛ وحُرم من مجموعاته ومستنداته المصرية.. التى كانت قد تمت مصادرتها.. فى "تارنت". ثم، سرعان ما تُوفَّى بعد فترة وجيزة من رجوعه. وها هنا عزاء ومواساة.. ولكن بعد الوفاة. بل وإقرار رفيع القدر بالنسبة لعالم كبير: فقد خُلع اسمه على سلسلة من الجبال الإيطالية، هى: "الدولوميت". وذلك، للإشارة إلى أنه كان أول من وصف مادة كربونات المغنسيوم.

ربما أن "دولوميو" كان قد أمضى وقتًا ضئيلاً جدًا فى مصر، لكى يُقدم المساهمة المتعلقة بالتعدين التى كانت تُنتظر من جانبه. عمومًا، إن هذا العمل قد أنجزه، بعد ذلك شاب غير معروف، فى العشرين من عمره، يُدعى "فرنسوا دى روزيير". فقد جاب مهندس المناجم هذا أرض وادى النيل؛ من كافة اتجاهاتها: بحثًا عن الأحجار، بكافة أنواعها. وفى شهر يناير عام ١٧٩٩، قام باستكشاف منطقة الفيوم. وفى مارس، سافر إلى مصر العليا. وفى ديسمبر، ساهم فى التعرف على خط سير رحلة: القاهرة ــ السويس. ثم فى شهر نوفمبر من العام التالى، توجه إلى جبل سيناء. وبدا حصاده هائلاً: "ألف نوع من الجرانيت، والشست، والحجر الرملى، وحجر السُماق بالصحراء؛ والحجر الجيرى الذى استُعمل لتشييد الأهرام؛ وأخشاب متحجرة وقواقع متحولة إلى حجر..

وفى نوفمبر عام ١٨٠٠، سُمح له ومهندس الميكانيكا المصاحب له، المدعو "كوتل".. بأن يصاحبا قافلة "طور" الكبرى: حيث تضمنت ألفًا وثمانمائة جمل. وكانت تهدف الانطلاق إلى سيناء. ولا شك أن التجربة خارقة للمألوف بالنسبة لهذين الشابين؛ اللذين سوف يضيفان لأعمالهما العلمية، الملاحظة والرصد لسكان جائلين بالصحراء. وهنا يقول "كوتل": "كل العيون كانت ترمقنا. وبدا العرب أكثر دهشة وعجبًا، عندما رأونا ننزل من فوق الجمل، ونسير بينهم، بدون أى سلاح!.. وغالبًا، عندما كنا نحطم بعض الحَصَى والزلط، فإنهم كانوا يحضرون لنا غيرهما أكثر صفاء وشفافية؛ فهم يعتقدون أنها الصالحة فعلاً لقدح الولاعة. أما إذا تأملنا ملابسهم، فإنهم يُبدون ملاحظة مختلف تفاصيل هندامنا. جملة القول، أن شكل قبعاتنا، وردائنا القصير الضيق، والجلود التى تُحصر بداخلها سيقاننا وأرجلنا.. كانت تبدو لهم غير مريحة أو غير نافعة!!

لا ريب أن هذه الملحوظات، قد شكلت، حميميًا، جزءًا من عمل "روزيير". وبالفعل، أن هذا المهندس الشاب قدرنا من علم التعدين، من خلال زاوية السُلالة والتاريخ: فقد حاول أن يوضح ارتباط أية حضارة بالبيئة المادية المحيطة بها. وهكذا، بدا له نموذج مصر.. مثاليًا: اعتبارًا لتاريخها فائق المدى؛ وكذلك لارتباطها كلية بالنهر. وكان يعتقد: أن التعرف، بأدق تفاصيلها عن الحالة الفيزيائية للبلد.. سوف يحيطنا علمًا بأنماط الحياة خلال العصور القديمة. ومن هذا المنطلق، أضاف لعمله العملاق عن المعادن.. دراسة متعمقة عن النظام القياسى عند قدماء المصريين!

كتابة ولغة مجهولة

إن الحجر الأكثر شهرة وذيوع صيت فى إطار "حملة مصر" ليس له صلة كبيرة بعلم المعادن. ففى التاسع عشر من يوليو عام ١٧٩٩، على مقربة من مدينة رشيد، عثر عدد من الجنود والعمال، بقيادة ضابط شاب يُدعى "بيير فرنسوا كساڤيير بوشارد"، على كتلة من الحجر الجرانيتى أسود اللون.. لم يكن منتظرًا أبدًا وجودها فى هذا المكان. فها هى مغامرة أسطورية علمية تُستهل وقائعها..

فمن عساه يكون هذا السعيد الحظ "بوشارد"، الذى دخل صدفة فى كتب التاريخ؟!.. إنه ابن رئيس نجارين بمدينة "جورا" وكان قد انخرط فى صفوف الجيش عام ١٧٩٣. ومن خلال الأحداث العسكرية، أصبح قاذف قنابل فى باريس، ثم قائد منطاد فى ميدون؛ تحت قيادة "كونتيه". وارتبط هذان الرجلان معًا بصداقة وطيدة. بل لقد جُرحا معًا، خلال إحدى التجارب المعملية.. حيث كاد "بوشارد" أيضًا أن يفقد إحدى عينيه. وبالرغم من أنه كان قد تعدى السن المحددة، فإن قائد المنطاد هذا، قد تم قبوله بالمدرسة متعددة الفنون؛ وجاء إلى مصر باعتباره أحد التلاميذ فى لجنة العلوم والفنون. وبعد

امتحان تخرجه فى القاهرة، عُين، وهو فى السابعة والعشرين من عمره "ضابط ــ مهندس" فى مدينة رشيد.

من أجل تشييد عدة استحكامات دفاعية على ضفة النيل اليسرى، عمل "بوشارد" على إزالة أنقاض أساسات أحد الحصون المصرية العتيقة، التى ترجع إلى العام الخامس عشر. وهكذا، ففى التاسع عشر من يوليو.. اكتشف رجاله كتلة من الجرانيت الأسود اللون؛ يصل ارتفاعها إلى حوالى متر؛ أما عرضها فهو ٧٣ سنتيمترًا؛ وسمكها ٢٧ سنتيمترًا. وعليها نصوص منقوشة بثلاث كتابات متباينة. وأكيد، أن هذه الكتلة كانت قد استُخلصت من إحدى النُصب، لاتخاذها كمادة بناء. وتم استخراجها. ثم أُحيط بذلك علمًا مهندس "الكبارى والطرق" "ميشيل آنج لانكر"، خلال مروره برشيد.

قطعًا، إن أكثر ما يثير الدهشة والعجب فى هذا الموضوع، ليس اكتشاف الحجر فى حد ذاته.. بل بالأحرى الأهمية العلمية التى أُعزيت فورًا إليه. فمنذ الساعة الأولى، شعر الفرنسيون بأنهم وضعوا أيديهم على كَنْز. فهل الفضل فى ذلك يرجع إلى "بوشارد"؟!، أم لرئيسه "دتبول" الذى لم يحفظ العلم اسمه؟!.. أم لـ "لانكر"؟!.. وها هو هذا الأخير يسارع بالكتابة إلى "معهد مصر"؛ حيث كان قد انتُخب به منذ أسبوعين. ثم كُلف "بوشارد" بنقل الحجر إلى القاهرة، فوق سفينة تصعد مجرى النيل.

عند وصوله إلى العاصمة؛ أُحيط الحجر بالكثيرين؛ وتم تفحُّصه، وشرحه وتأويله. وأمضى العلماء والفنانون ساعات كاملة، يتساءلون بخصوص النصوص الثلاثة. فالنص الأول، قد بُتر ثلثاه، وهو بالرموز الهيروغليفية. أما الثانى، الذى ظُن، بداية أنه بالسريانية، فيرجع إلى الديموطيقية، أى الكتابة الشعبية فى مصر القديمة. وقد عُرف فيما بعد، أن الأمر يتعلق بكتابة عادية سريعة مختصرة، ظهرت قبل ميلاد المسيح بحوالى ٦٥٠ عامًا: للاستعانة

بها فى المراسلات الدارجة، ثم بالمراسيم الأدبية والدينية.. أما بالنسبة للنص الثالث، المتضمن أربعة وخمسين سطرًا باليونانية.. فمن الممكن قراءته. والموضوع هنا، عبارة عن مرسوم خاص بكهنة منف، يُعبر عن التحية والتمجيد للفرعون البطلمى "بطلميوس أبيفانيس"، فى عام ١٩٢ قبل الميلاد.

بالفعل، فى تلك الحقبة، اعتاد الكثيرون من كهنة مختلف مدن مصر، أن يجتمعوا غالبًا فى منف وأن يقوموا بإشهار بعض المراسيم. وغالبًا، كانت هذه الأخيرة، بعدة لغات ومتواجهة، فوق جدران مختلف المعابد. ولا شك أن الأمر برمته، قد دعا العلماء لأن يعتقدوا أن هذه الوثيقة التى اكتُشفت فى رشيد، تقدم ثلاث ترجمات لنص واحد؛ وأن الهيروغليفية قد تُرجمت إلى الديموطيقية.. حتى يتفهمها الشعب؛ وأيضًا إلى اليونانية من أجل الهِلّينيين القائمين فى مصر.

أخيرًا، ها هو نص متعدد اللغات! وبذا، فقد اعتقد أعضاء "المعهد" أنه بفضل حجر رشيد، فإن غموض الكتابة المصرية، التى بدت صعبة القراءة وعويصة منذ القرن السادس.. يمكن أن تنقشع.. وفى تلك الآونة، بدا أن أهم شىء هو: استنساخه. وأبدى عدد من الرسامين استعداده لأداء هذا العمل. وهم يعرفون أنه سوف يتطلب عدة أسابيع؛ وربما قد يفتقد، إلى حد ما الدقة المتناهية. وعلى ما يبدو، أنه قد عُوِّل بالأحرى على مهارة وبراعة أعضاء لجنة العلوم والفنون: الذين لم يتوانوا أبدًا عن اقتراح عدة وسائل وأساليب للاستنساخ والنقل.

أعد الطَّباع "مارسيل"؛ لهذه المناسبة تقنية سُميت بـ "نسخ المخطوط". فبدأ يغسل، بكل عناية الكتلة الجرانيتية. ثم، أخذ يمسحها ويحكها بكل رقة ونعومة، بحيث تبقى التجاويف مبللة بالمياه. بعد ذلك، بالنسبة للأماكن البارزة بهذه الكتلة الحجرية، فقد غُطيت

بالحبر، وكُسيت بطبقة من الورق المبلل. ومن خلال هذه التجربة: بدت أحرف الكتابة بيضاء اللون، فوق خلفية لونها أسود: إذا كانت هذه الأحرف غائرة. ولكنها تكون سوداء اللون فوق خلفية بيضاء إذا كانت بارزة. ومن أجل قراءة هذا النيجاتيف، كان الأمر يكفى مجرّد وضع النقش أمام مرآة. أو عرض الورقة للضوء.. للقراءة من خلال الورق. لقد حُققت هذه التجربة بتاريخ الرابع والعشرين من يناير عام ١٨٠٠، ونجحت نجاحًا تامًا.

كما كان الأمر متوقعًا، تقدم النابغة البارع "كونتيه" باقتراح آخر. فقد اقترح أن تُطبق على هذه الكتلة الحجرية: تقنية النقش على المعادن؛ أى بالتحديد، معالجتها وكأنها لوحة معدنية منقوشة. ولقد بينت هذه الوسيلة أيضًا عن نتائج أحسن من سابقتها، لأن التجارب قد طُبعت باللون الأسود فوق خلفية بيضاء اللون.

عن الأسلوب الثالث، فيرجع إلى عالم النبات "رافينو دليل". إنه يرتكز، بكل بساطة على عمل قَوْلَبة من مادة الكبريت. وبفضل هذه القولبة، استُنسخت، من أجل "وصف مصر": الكتابات اليونانية والديموطيقية. أما فيما يتعلق بالنص الهيروغليفى، فقد نُفذ بوساطة قولبة بالجَصّ.. كان يجب التوجه للحصول عليها.. من لندن!.. فإن حجر رشيد، الذى استولى عليه الإنجليز فى لحظة الانسحاب الفرنسى.. قد استقر فعلاً فى المتحف البريطانى. ومكث به إلى الأبد. ومعه التوضيح التالى: "أسرته القوات البريطانية فى مصر عام ١٨٠١"، "Captured in Egypt by the British Army, 1801".

تُرى، كيف يمكن قراءة نص، لا تُعرف لغته ولا كتابته؟!.. لقد أخذ أعضاء معهد مصر يقدحون زناد فكرهم.. محاولين حل لغز تربيع الدائرة!!.. ولقد لاحظ المستشرقان "ريج" و"مارسيل" ما يلى: إذا كانت الكتابة اليونانية تستوعب أربعة وخمسين سطرًا؛ فإن الكتابة الهيروغليفية لا تتضمن سوى اثنين وثلاثين. وبالبرحل، بدقة متناهية،

قسَّما النصين إلى عدة تقسيمات متناسبة. وحاولا أن يجدا فى النص الأول مكان الأسماء العَلَمَ الموجودة فى النص الثانى. فإن اسم "بطلميوس"، على سبيل المثال، قد ذكر إحدى عشرة مرة. ولقد بين سن البرجل فعلاً، أن الأماكن المبينة تتضمن مجموعة من العلامات المتماثلة. حسنًا، وماذا بعد ذلك؟!.. ها هم علماء بونابرت يصطدمون بعائق ضخم!!

فى أوروبا، خلال السنوات التالية، عمل حجر رشيد على مساعدة كل من الإنجليزى "توماس يونج"، و"جان فرنسوا شامبليون" خاصة، على اختراق لغز الرموز الهيروغليفية وغموضها. فقد بدأ هذا الأخير بتحديد القرابة الوثيقة بين مختلف الكتابات المصرية. ثم أوضح أن الهيروغليفية، لا يمكن أن تكون مجرد رموز لأفكار: فكيف يعبر كل رمز منها عن فكرة ما؛ فى حين أن ٤٨٦ كلمة يونانية تقابلها.. فى حجر رشيد ١٤١٩ كلمة هيروغليفية؟!.. وهكذا، فقد أوجز: أن هذه الكتابة، لا يمكن أن تكون رمزية، ولا أبجدية، ولا صوتية.. بل ربما أنها: كل ذلك، فى ذات الحين!..

للوصول إلى هذا الاستنتاج النبوغى، استعان "شامبليون" بالكثير من نُسَخ النصوص القديمة. إذًا، فإن حجر رشيد، لن يعدو أن يكون سوى عنصر ضمن غيره الكثير. إنه بالأحرى عنصر يصعب الاستعانة به: بسبب الأسطر الناقصة، ولأن هذه الهيروغليفية ترجع إلى الحقبة البطلمية؛ أى تحديدًا: إنها مثقلة بأعداد ضخمة من الرموز. والأمر إذًا، يتعلق، إلى حد ما بلُغة مندثرة. ولا ريب، أنه بدون حجر رشيد.. لاستغرق المزيد من الوقت لكشف الغموض والإبهام.. ومع ذلك، كان من الممكن كشفه. إن حجر رشيد يمثل رمزًا .. لفك سر اللغز.

بتاريخ السابع والعشرين من سبتمبر عام ١٨٢٢، أبلغ "شامبليون" أكاديمية التسجيل وعلوم الأدب باكتشافه. وقد اقترح قائلاً:

إن الهيروغليفية هى بمثابة كتابة تصويرية، ورمزية وصوتية فى آنٍ واحد. وهى أحيانًا تعبر عن أفكار ما، وأحيانًا أخرى عن أصوات. وهكذا، كُشف الستار عن ثلاثة عشرة قرنًا من الظلام الحالك الدامس. فها هنا علم جديد قد شاهد النور! ولكن، "بيير بوشارد" لم يُحط علمًا بذلك. فقد تُوفِّى قبل هذا بتسعة أسابيع؛ وقد ناهز الواحدة والخمسين من عمره متأثرًا بمرض مؤلم وطويل الأمد. فبعد أن عاش حياة مفعمة بالصعاب، قادته إلى المشاركة، وهو فى الثامنة عشرة من العمر، فى معركة عسكرية.. وأُسر ما لا يقل عن خمس مرات، فربما أن هذا المهندس الضابط، الذى لاحقه سوء الحظ دائمًا، قد أسهم اسمه فى إطار حجر جليل مَهيب!!

من "أبو قير" إلى باريس

يتبين أن اكتشاف حجر رشيد فى يوليو ١٧٩٩، قد وقع خلال حالة من الاضطراب العسكرى. فها هو زعيم المماليك "مراد بك"، قد هبط ثانيةً إلى مصر السُّفْلى بجيشه، وعسكر بمكان غير بعيد من القاهرة. ومن فوق قمة الهرم الأكبر، كان يبعث برسائل إلى زوجته.. هذه السيدة القوية البأس والشكيمة "نفيسة". حيث كانت قد بقيت فى العاصمة وتمركزت فوق سطح قصرها.. وعلى الفور، تم إرسال عدة وحدات لمقاتلته. وعندئذ، سارع للانسحاب إلى منطقة الفيوم.

والأكثر خطورة من ذلك، هو نزول الجيش العثمانى فى "أبو قير"، بتاريخ الرابع عشر من يوليو. وحالما سمع بونابرت بالخبر، سارع بجمع كل ما يمكنه من جنود.. واندفع مهاجمًا نحو الشمال. ووقع الهجوم فى فجر يوم الخامس والعشرين من يوليو. وفى هذه المرة، لم تكن هناك أية تشكيلة مربعة. ومن خلال هجمة من سلاح الفرسان؛ بقيت ذكراها دائمًا، اندفع "مورات" ودمر الصفوف

العثمانية. ولقد أُصيب بجرح بسيط من طلقة غادرة أصابه بها مراد باشا، زعيم القوات المعادية. ولكنه أصابه هو أيضًا بدوره حيث اقتلع له إصبعين من اليد اليمنى.. بضربة سيف.. ثم أوقعه أسيرًا!

رُقّى "مورات" إلى رتبة جنرال فيلق.. فى ساحة القتال نفسها. ولقد هوجم الجنود الأتراك من كافة النواحى.. ولذا، فقد ألقوا بأنفسهم فى البحر، محاولين الوصول، سباحة إلى سفنهم!.. ولا شك أن عددًا لا يُعد ولا يُحصى منهم قد ابتلعته الأمواج. "لم تُشاهد بعد ذلك فوق سطح الأمواج سوى عدة آلاف من العمائم والشيلان.. سرعان ما قذف بها البحر إلى الشاطئ". فهذا ما أخذ يتذكره نابليون فيما بعد بسانت هيلانة.

وصل "كليبر" بعد المعركة؛ وكاد يطير حمية وحماسًا. وعلى ما يبدو، أنه قد نسى كل ظنونه وتخميناته تجاه بونابرت؛ وبذا، فقد ارتمى بين ذراعيه. وقال له: "أيا جنرال، إنك كبير كمثل العالم. بل إن العالم لا يدانيك حجمًا". والآن؛ ها هى أبو قير تمحو "أبو قير".. وتعمل على نسيان هزيمة "عكا". وحاليًا، يستطيع بونابرت أن يسمح لنفسه بالعودة إلى فرنسا.. فإنه يتحرق شوقًا لذلك. وعندئذ، كانت حكومة المديرين تناقش وتتخبط فى مشاكل عسكرية.. حيث ضاعت إيطاليا، ويهدد الراين!.. وبصفة خاصة: هناك تهديد بالاستيلاء على السلطة.

وصل القائد الأعلى إلى القاهرة فى الحادى عشر من أغسطس. وفى أجواء معهد مصر، بدأت تنتشر بعض الشائعات. وعندما التقى "جيوفرى سانت هيلير" مع بونابرت سأله عما إذا كانت لديه الفرصة التى تسمح له بتوصيل مكتوب إلى "دوبنتون" بفرنسا. فقال له بونابرت: "أعطه لى، فإن لدىَّ فرصة سانحة تمامًا.. إن مذكرتك سوف تصل إلى عنوانها". ثم نجد أيضًا أن الشاعر "بارسيفال جراندميزون" كان يتوجس شيئًا ما. وبذا، فقد عدل عن الرحلة التى

كان يجب القيام بها فى مصر العليا؛ لكى يكون مستعدًا.. فى حالة.. .. ألم يُقَل إن فرقاطتين قد جُهزتا لتوّهما للإبحار بالإسكندرية؛ وأنه يتم حاليًا حزم ورزم الأعلام والرايات التركية التى استولى عليها فى "أبو قير"؟!!

فيما يتعلق بـ"مونج" و"برتوليه" عند علمهما أن القائد الأعلى يُزمع اصطحابهما معه إلى فرنسا.. فلم يستطيعا إخفاء فرحتهما. ولذا، فإن عالم الرياضيات، خاصة قد أخذ يهذى بلا سبب.. وفقًا لما ذكره أحد زملائه. ثم، ها هى علامة لا تخطئ أبدًا: فقد وهب كل كتبه ومخطوطاته لمكتبة المعهد، أما مؤونته من الخمر، فقد أعطاها إلى "كونتيه". وعن "كوستاز" و"فورييه" فلم يسلما أبدًا بأن بونابرت يمكن أن يغادر مصر خلسة.. متخليًا عن جيشه وعلمائه. ولكنهما سرعان ما أذعنا للبداهة والواقع.

فى العاشر من أغسطس، الساعة العاشرة مساء، جاءت (العربة) البرلينية الخاصة ببونابرت، لاصطحاب كل من "مونج" و"برتوليه" من المعهد. وبسرعة فائقة، غادر العالمان قاعة الطعام، لكى يذهبا لإعداد حقائبهما. وهبط "برتوليه" أولاً، دون أن ينبس بكلمة واحدة؛ وهو عابس الوجه، ونادم السمات. وردًا على الأسئلة التى وُجهت إليه، كان يجيب بإجابات لا معنى ولا مغزى لها؛ مثل: لا أعرف شيئًا مما قاله الجنرال". ثم جاء "مونج" بدوره، وكأن طرف أذنه فى حذائه. وعندئذ، بادره "كوستاز" مشيرًا لرحلة مصر العليا: "حسنًا، أيها المواطن "مونج".. هل عسانا سنفقد جلسة فوق أطلال طيبة؟!..". وهنا، تلعثم عالم الكيمياء بشىء ما.. وحينئذ، وجه "بارسيفال" سؤاله هذا: "هل عساكم ستمرون بدمياط؟". فأجاب مونج: "لا أعرف؛ أعتقد أننا سوف نتوجه إلى مصر السفلى". ثم أضاف هامسًا: "إن الجنرال يتسرع جدًا بخصوص حملاته!!".

خرج العالمان إلى الشارع، وصعدا إلى العربة.. ورافقهما كل من "كوستاز" و"فورييه"؛ وقد شعرا بشيء من القلق: وقالا: ماذا حدث؟!.. وما الذى يجب أن نقوله للعلماء والفنانين الآخرين؟!!.. عندئذ، أعلمهما "مونج" قائلاً: "أيا صديقاى؛ إذا كنا نسافر الآن إلى فرنسا.. فإننا لم نكن اليوم نعلم بذلك الأمر حتى قبل الظهيرة". وانطلقت العربة البرلينية متجهة نحو القيادة العامة. وهناك، كانت "بولين فوربس" قد تنكرت فى هيئة جندى فارس.. وحضرت لتحية عشيقها العظيم الشهير. وهناك، على حد قول "جيوفروا سان هيلير" بالرغم من حمى وحماس الاستعدادات، جذب بونابرت "مونج" فى جدال فلسفى عن العلوم فقال: "فى صباى، تراءى فى ذهنى أن أكون مخترعًا؛ أن أصبح "نيوتن"! عندئذ، أفحمه عالم الرياضيات بعبارة زميله "لاجرانج": لن يصل أحد مطلقًا إلى مجد وعظمة نيوتن. فلم يكن هناك سوى عالم واحد.. يجب أن يكتشف! هنا، ثار بونابرت ضد هذا التأكيد؛ ومن خلال ومضة عبقرية خاطفة، أجاب: "لقد حل نيوتن مشكلة الحركة فى إطار النظام الكوكبى. وهذا أمر رائع بالنسبة لكم أيها العلماء، رجال الفكر والرياضيات. ولكن بالنسبة لى، إذا كنت قد استطعت أن أُلقن البشر: كيفية حدوث الحركة التى تُتناقل وتتجدد فى الأجسام الصغيرة.. لكنت قد تمكنت من حل مشكلة الحياة والكون.. حقًا، إن العالم بكل تفاصيله ما زال ينتظر البحث والاجتهاد".

يبدو أن هذه المناقشة غير الواقعية قد أُوقفت من جانب أحد المرافقين. حيث كان يُراهن، وقتئذ على مصير سيد أوروبا المقبل. وبعد وقت وجيز، طُلب من المسافرين الصعود إلى العربات التى ستقلُّهم إلى ميناء بولاق المطل على النيل. ولقد اصطحب بونابرت معه الكثير من الجنرالات (أندريوسى، وبرتييه، ولان، ومارمونت،

وموارات)؛ وكذلك حرسه الخاص، بالإضافة إلى "مونج" و"برتوليه" و"فيفان دينون".

وصلت المجموعة الصغيرة إلى ساحل البحر المتوسط في الثاني والعشرين من أغسطس. وركبت السفينة في أول الليل. وكانت هناك فرقاطتان، ومعها ثلاث سفن ضخمة للحراسة، تنتظر ما بين الإسكندرية و"أبو قير". وفى الوقت الذى أوشكت خلاله جميعها على الإقلاع، تقدمت سفينة متواضعة الحال نحو الـ "مويرون"، وعلى متنها أحد الفرنسيين: إنه الشاعر "بارسيفال جراندميزون"، جاء من تلقاء نفسه، ومعه حقائبه. ورفض بونابرت صعوده إلى السفينة.. وها هو ناظم الشعر هذا، وقد تشبث بيديه فى الرفرف، مثل أى شاهد (بالمحكمة) يجيب على كافة الأوامر بالابتعاد.. بابتهالات وتوسلات مُلحَّة! وانبرى "مونج" و"برتوليه" للدفاع عنه. وفى نهاية الأمر.. رضخ الجنرال الأعلى: حيث قُبل "بارسيفال" ليصعد إلى الفرقاطة الأخرى: "لاكاريير". ولكن، نجد أن المسئول عن الكرنتينة، المدعو "بلان" الذى كان قد صعد خلسة على ظهر "مويرون" ـ حيث يوجد الجمل الذى حمل "قاهر الأهرام ـ قد أُعيد إلى الإسكندرية!

تُرى، فِيمَ كان يفكر بونابرت فى هذه الليلة الحالكة السواد.. حينما كان الأسطول الصغير، يبتعد ببطء عن الساحل؟ لقد أسرَّ، بعد ذلك بعدة سنوات للسيدة "ريموزات" بقوله: "هذا الوقت الذى قضيته فى مصر، كان أجمل أوقات حياتى، لأنه الأكثر مثالية". ثم وضح قائلاً لها: "ففى مصر، شعرت إننى متحرر من فرملة حضارة مزعجة. كنت أحلم بكل شيء. وأرى الوسائل التى تحقق كل ما حلمت به. وخلقت ديانة ما. وكنت أحلم أننى فى طريقى إلى آسيا، منطلقًا فوق ظهر أحد الأفيال؛ وعلى رأسى عمامة، وفى يدى قرآن جديد.. ألَّفته ونَظَمتُه بكامل رغبتى..".

ها هو السلطان السابق قد استدار ثانيةً نحو أوروبا.. "بالبركة". وكذلك، فقد أفلت من الإنجليز، ونزل من السفينة فى "أجاكيو" بتاريخ الثامن والعشرين من سبتمبر. وتعالت الهتافات له فى فريجوس فى يوم التاسع من أكتوبر. كما حقق نصرًا فى باريس. وبعد مرور حوالى أسبوع، استعاد مقره بالمعهد القومى؛ وساهم مع "لابلاس" فى لجنة تتعلق بالمعادلات ذات الفروق المختلفة. وبتاريخ السابع والعشرين من أكتوبر، قدم لزملائه بعض الأعمال التى حُققت فى مصر، مثل: التنقيبات بالإسكندرية واكتشاف حجر رشيد ودراسة حفر قناة السويس. وقبل انتهاء ذاك العام، كان قد تولى منصب: القنصل الأول.

لم يكن "كليبر" قد اطَّلع على السر. ولذلك، فقد اجتاحه غضب عارم عند علمه برحيل بونابرت، سرًا وتسترًا. وهكذا، فقد أصبح قائدًا أعلى لجيش المشرق: الذى كان يعانى صعوبات مالية جَمَّة.. لا تُنبئ بأى مستقبل مشرق؛ رغم انتصار موقعة "أبو قير". ولذلك، فلعدم توافر المَدَد الضخم ــ هل كانت فرنسا تبغى أو تستطيع تقديمه؟! ــ تراءى له.. أن مصر ضائعة حتمًا!

وعن المعهد، فقد تداعى وتهاوى. فعلى حين غرة، حُرم من سبعة من أعضائه (أندريوسى، برتوليه، بوريين، دينون، مونج، بارسيفال و.. بونابرت!)؛ بعد أن كان قد فقد عددًا آخر فى سوريا. وفى مساء هروب "مونج" و"برتوليه"، رغب عدد كبير من العلماء والفنانين فى إلغاء الرحلة المرتقبة إلى مصر العليا. وهكذا، نجد "جومار" يشير هنا إلى: "تأوهات وشكاوى البعض واستسلام الآخرين، ويأس وفتور هِمَّة الجميع".. ورغم ذلك، فى اليوم التالى، تقرر أن العمل يجب أن يستمر: وسوف يتم صعود مجرى النيل حتى الشلالات.. وبذا، ستبدأ مغامرة جديدة.

(٨)
روعة وجمال وسحر وافتتان

قطعًا، إن النماذج الفنية التى أحضرها معه "فيفان دينون" مــن مصر العليا، قد أطارت صواب الفرنسيين فى القاهرة. أما اكتــشاف حجر رشيد، فقد أثار فضولهم. ألا يتحتَّم إذًا التوجه نحو الجنــوب .. من أجل تفهُّم الحضارة الفرعونية؟!

كان أحد الإجراءات الأخيرة التى اتخذها بونابرت قبل رجوعه السرى إلى فرنسا: تأسيس لجنتيْن؛ تتكون كل منهما من اثنى عــشر عضوًا؛ وتُكلفان بالتنقيب فى منطقة مصر العليا. ويديرهما مهندسان. لإحداهما: "لويس كوستاز"، وللثانية: "جوزيــف فورييــه". وهاتــان اللجنتان، متعددتا الاختصاصات، وفقًا لما هو دارج دائمًا بالمعهــد. فهناك، يوجد عدد من المهندسين (أرنوليه، وشــابرول، ولانكريــه)، وكذلك بعض المعماريين (لوبير) وعلمــاء الجغرافيــا (كورابــوف، وجومار)، وفلكيون (ميشان، ونوتيه)، وعلماء الحيوان (جيوفروا سان هيلير، وسافينى)، وعلماء النبات (كوكبير، ودوليــل)، وعــدد مــن الميكانيكيين (سيسيل، وكوتى)، أو فنانين (ريبولت، وفيلوتو). وقــد

سافرت اللجنتان من القاهرة فى يوم العشرين من أغسطس عام ١٧٩٩.

ولكن سبق كل هذا الجمع شابان من المدرسة متعددة الفنون، هما: "بروسبير جولوا"، فى الثالثة والعشرين من عمره، و"إدوارد دى قلبيه دى تيراج"، فى التاسعة عشرة من عمره. فإن مغامرة العمل فى المجال الهيدروليكى قد قادتهما .. إلى علم الآثار. إنهما زميلان، وسرعان ما أصبحا صديقين عزيزين. لم يكونا يفترقان أبدًا عن بعضهما. ولا يزالان يتخاطبان بأسلوب التعظيم والتوقير؛ وهما يتبعان، إلى حد ما "مونج" و"برتوليه"، اللذين رحلا عن مصر مع بونابرت. فها نحن إذًا أمام نمط من قفزات الأجيال: فهذان المهندسان الاثنان معًا: تصل سِنهما إلى عُمْر عالم الرياضيات أو عالم الكيمياء!

أما عن "دى قلبيه دى تيراج" (وكان يُلقب غالبًا باسم ديڤليه، خلال فترة ما بعد الثورة)، فهو ابن كاتب حسابات أول بوزارة المالية، كان قد حُكم عليه بالإعدام خلال عهد الإرهاب .. وأُنقذ بالكاد. أما بالنسبة للشاب "إدوارد"، فهو يتيم الأم، وأُلحق بمدرسة داخلية. ثم تكفل به أحد أعمامه، الذى أتاح له فرصة الدخول إلى المدرسة متعددة الفنون. وقد أدى اختبارات تخرجه بالقاهرة. ثم لحق بـ "بروسبير جولوا" فى (الكبارى والطرق).

فى الثامن عشر من مارس عام ١٧٩٩، ومن خلال رسالة تهديدية السمات، استُدعى "قلبيه" للقيام برحلة: "التى أحذرك، أيها المواطن .. أن يوم سفرنا إلى مصر العليا، سيكون غدًا ..". وهكذا، كان عليه التوجه إلى الجيزة فى الساعة التاسعة صباحًا للانضمام إلى قطار عسكرى. وقد تزود بالمؤن وبعض أدوات العمل: "أربع فريدات ورق ــ ٢٥ فرخًا؛ وأربع أصابع صمغ وستة أقلام" . ويتبين أن هذا الاستدعاء الذى يُختتم بهذه العبارة الرسمية جدًا: "سلامًا وأُخوّة".. قد وُقّع باسم: "جيرار" رئيس مهندسى الطرق والكبارى.

ونجد أن "بيير سيمون جيرار" الذى سرعان ما أصبح موضع كراهية شديدة من جانب " قليبيه"؛ قد كُلف بالعودة إلى صعود مجرى النيل حتى الشلال الأول. وأن يدرس السُبُل التى تتيح أفضل استعمال لمياه النهر، فى الزراعة. وكذلك، أن يجهز خطة عامة للنظام الهيدروليكى فى البلد. وتقرر أن يرافقه سبعة مهندسين شباب وفنان، هو النحات "جان جاك كاستكس".

وأبحر الجميع فوق بعض السفن الشراعية الضخمة؛ التى كانت تتوقف على مدى ساعات مديدة .. لعدم توافر الرياح !!. وها هما ضفتا النهر، تعرضان مناظر طبيعية دائمة التغير والتباين: فترى مرتفعات سلسلة الجبال العربية؛ وقد تعارضت مع مناظر الحقول الزراعية الشاسعة: التى تمر بها الكثير من القنوات. وأحياناً، يبدو النيل الذى يُحاط بكثبان رملية .. وقد بلغ مدى اتساعه .. كيلومترين!

لم تصل اللجنة إلى أسيوط إلا فى التاسع والعشرين من مارس. ولقد استقرت بخارج نطاق المدينة؛ بداخل عدة خيام. واستهلت أعمالها. وفى الوقت ذاته، كان العسكريون يشنون معارك كثيرة ضد المماليك. وفى صباح يوم ما ــ وبدون أى تصريح ــ انطلق "جولوا" و"قليبيه" بمصاحبة أحد المرشدين من الأهالى؛ الذى أخذ يبذل لهما وعودًا مبالغًا فيها. وفى نهاية عدة ساعات سيرًا على الأقدام.. لم يروا خلالها سوى بعض سراديب الموتى المسيحيين. حقيقة، لم يكن ذلك ما يبحثون عنه. ولكن، على ما يبدو أن هذه الرحلة المحرمة قد أشبعتهم بمذاق العصور القديمة!

واستمرت اللجنة فى عمل تقديرات وحسابات هيدروليكية، حتى الثامن عشر من مايو. ثم طوت الخيام لكى تكمل مسيرتها نحو الجنوب. وكانت مياه النيل تبدو منخفضة إلى درجة فائقة. ولذلك، اقتضى الأمر سلوك الطريق البرى. وعن "قليبيه" فإنه، على غرار بقية زملائه، كان يُعانى من التهاب عينيه. وفى إطار هذه المسيرة

الصعبة، اضطُر أن يقود فرسه، وهو معصوب العينين. ونتيجة لذلك .. سقط سقطة لا ينساها أبدًا، أثناء عبوره منخفضًا مائيًا جافًا بإحدى القنوات. ولكنه أفلت من الإصابة .. إلا ببعض الكدمات بإبهامه.

فلك البروج فى دندرة

فى يوم الخامس والعشرين من مايو، استقرت اللجنة فى "قنـــا". وهناك، تقابل المهندسان الشابان مع "فيفان دينون": حيـث عـرض عليهما رسمًا تخطيطيًا لفلك البروج بدندرة. ويوجد هذا النقش الغائر المبهر المدهش، فى المعبد، الواقع أمام المدينة، على ضـفة النيـل الأخرى. وتمكن "جولوا" و"ثلييه" من الحصول على بعض الحـرس، من الجنرال "بيّارد" لكى يتوجها لهذا الموقع. ولكنهمـا، فـى اليـوم التالى، استغنيا عنهم، بالرغم من التحذير من عـدم الابتعـاد بـدون حراسة. وفى كل صباح، كان أحد الملاحين يعبر بهما النهـر، ثـم ينتظرهما، حتى المساء لمرافقتهما إلى المعسكر.

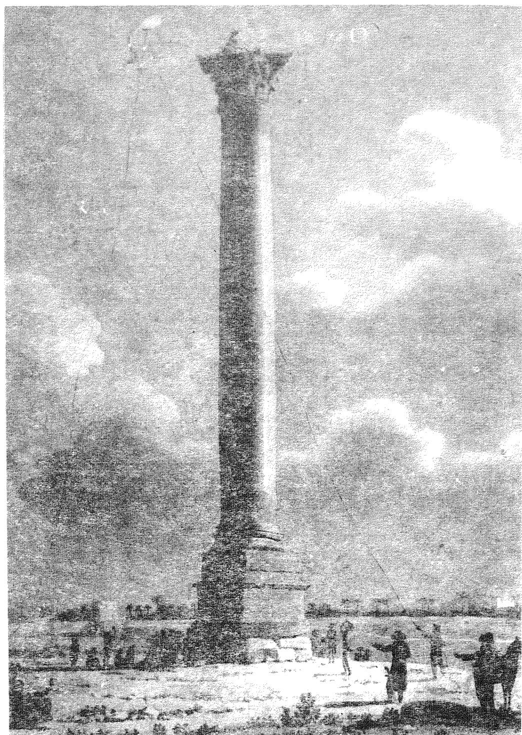
بدا المعبد مدفونًا، جزئيًا فى الرمال. بل ورُدم بحطـام قوالـب الطوب. ولكنه سحر أفئدتهم. تمامًا مثلما سحر "دينـون". ونجـد أن "ثلييه" قد كتب بمذكراته اليومية فى هذا الصدد قائلاً: "يتراءى للمرء أنه قد نُقل، بغتة إلى مكان يفيض سحرًا وافتتانًا". ولـم يكـن فلـك البروج، مجرد تحفة طريفة نادرة فحسب. بل بالأحرى: وسيلة مـا لتفهُّم المعارف الفلكية عند قدماء المصريين. كما كان الأمر يتطلـب التمكن من استنساخه بكل دقة. فها هى هذه الخريطة الدائرية الممثلة للسماء، قائمة فى حجرة صغيرة، تحتل مكانًا بسقف تم تسويده؛ فـى ظلام يكاد يكون حالكًا. ومن أجل رؤية تفاصيلها، يجب على المـرء أن يميل برأسه إلى الوراء .. لفترات مديدة، على ضوء المشاعل.

عند الوهلة الأولى، يبدو هذا "المنظر" غامضًا مبهمًا. فإن العين لا تعرف أين تستقر. حيث تُرى الكثير من الأشكال؛ وأطوال متباينة،

تحتل محيط الدائرة؛ فى وسط رموز وعلامات فلك البروج والهيْروغليفية!.. ولكن، بالمزيد من إمعان النظر، سوف يُلاحظ أن جميع الشخصيات قد وضعت.. بحيث تبدو وكأنها تمشى وتدور فى نفس الاتجاه! كما أن علامات ورموز فلك البروج تتقدم هى أيضًا فى هذا الموكب السماوى .. ولكن لولبيًا !

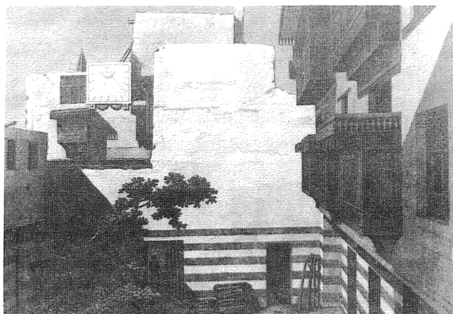
تُرى، كيف يمكن أن تحدد أوضاع الأشكال المختلفة تحديدًا دقيقًا؟!.. بل كيف يمكن أن يكون المرء أحسن من "فيفان دينون"؟!. والجدير بالذِّكْر، أن نصف المحاضرات بالمدرسة متعددة الفنون .. تُخصص للرسم. إذًا، فإن "جولوا" و"قَلييه" لم ينجحا هباء فى تلك المدرسة. وها هما، بأسلوب منهجى، يقومان بتقسيم فلك البروج إلى ثمانية قطاعات متساوية؛ بوساطة خيوط مُدت فى السقف. وشرعا فى العمل على مستوى الخُمس. ويلاحظ أن رسمهما، الذى تم نقله فى "وصف مصر"، قد تراءى أكثر دقة من ذاك الذى قدمه "دينون". بل أمكن، فيما بعد، مضاهاته بالأصل ذاته: هذه التحفة الثرية، التى انتزعها وسلبها فى عام ١٨٢١ أحد العلماء الثريين الفرنسيين؛ وعُرضت فى متحف اللوفر: حقًا، لم يُلاحظ ــ فى رسمها ــ سوى بضعة أخطاء طفيفة .. ومغتفرة.

بتاريخ السابع عشر من يونيو، أرسل "قَلييه" رسالة فى هيئة طلب نجدة، لصديقه "ريبولت"، الذى عاد إلى القاهرة. حيث قال: "إذا لم تبعثوا إلينا بعدة أقلام، أيا صديقى العزيز .. فإننا لن نستطيع أن نبين لكم شيئًا من رحلتنا هذه. فإن أقلامنا جميعها قد استُهلكت تمامًا. ولقد اجتاحنا اليأس. تحدث إذًا مع "كونتيه" .. الذى يجب أن يحيط علمًا بذلك ..". فى واقع الأمر، أن الأقلام لم تصل إلا بعد وقت مديد. وخلال هذه الفترة، اضطُر المهندسان، أن يقوما بأنفسهما بصناعة بعض الأقلام .. بوساطة رصاص البنادق: بعد صهره وسكبه بداخل قطع من البوص !!



لوحة رقم (١): عملية قياس عمود بومبى بالإسكندرية، فى شهر يوليو ١٧٩٨؛ بوساطة طائرة ورقية (رسم بالألوان المائية بريشة فيفان دينون).

لوحة رقم (٢): منظور من جانب الساحل، للمسجد الكبير في بولاق
("وصف مصر ، "العصر الحديث"، الجزء الأول، اللوحة ٢٥).

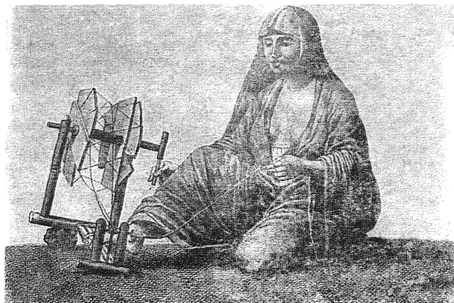


لوحة رقم (٣): من منظور داخلي لفناء بقصر حسن الكاشف، مقر معهد مصر، حيث تُرى مزولة شمسية أبدعها عالم الفلك "نوييه" ("وصف مصر"، "العصر الحديث"، الجزء الأول، اللوحة ٦٠).

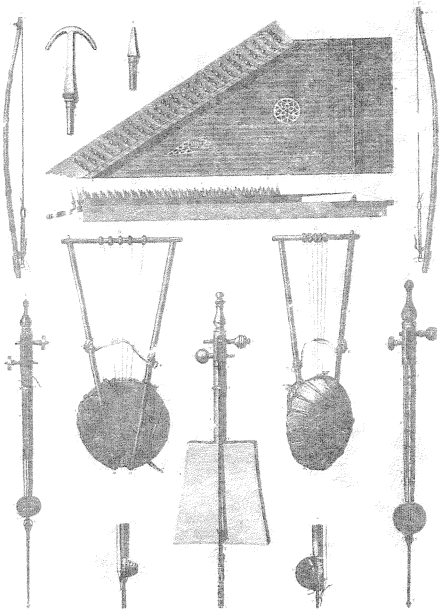


لوحة رقم (٤): صورة شخصية لمراد بك، أحد كبار الزعماء المماليك وقد انضم إلى جانب الفرنسيين (رسم دوترتر "وصف مصر"، "العصر الحديث، الجزء الثانى، الملابس والصور الشخصية")

لوحة رقم (٥): القائم بعملية التكرير (رسم كونتيه "وصف مصر"،
"العصر الحديث"، الجزء الثاني، الفن والمهن، اللوحة ١١).



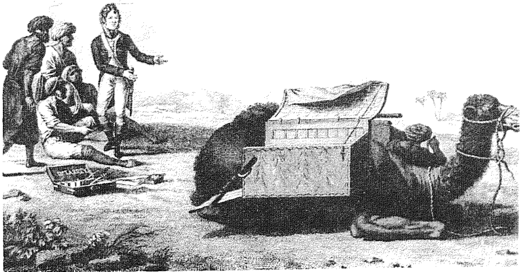
لوحة رقم (٦): خلالة الغزل ("وصف مصر"، "العصر الحديث"،
الجزء الثاني، الفن والمهن، اللوحة ١٥).



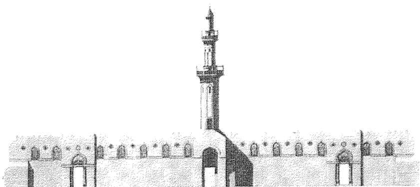
لوحة رقم (٧): آلات ذات أوتار ("وصف مصر"، "العصر الحديث"، الجزء الثاني، الآلات، اللوحة BB).



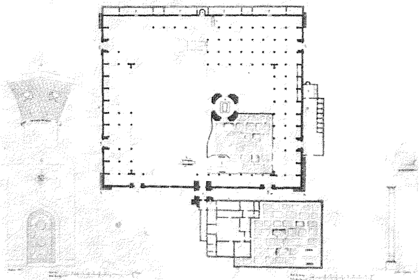
لوحة رقم (٨): صورة شخصية للشيخ البكرى، أحد أعضاء الديوان (بريشة: ديجو).



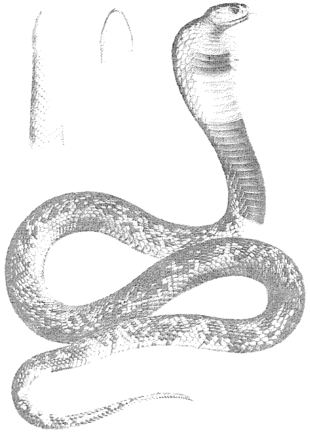
لوحة رقم (٩): المركبة الطائرة. أعدها رئيس الجراحين "لارى" ("وصف مصر"، "العصر الحديث"، الجزء الثانى، الفن والمهن، اللوحة ٣١).



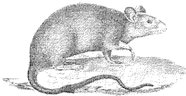


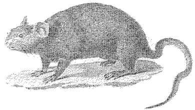


لوحة رقم (١٠): قطاعات رأسية وأفقية وتفاصيل المسجد المعروف باسم سان أثاناس بالإسكندرية ("وصف مصر"، "آثار"، الجزء الخامس، الإسكندرية، اللوحة ٣٨).

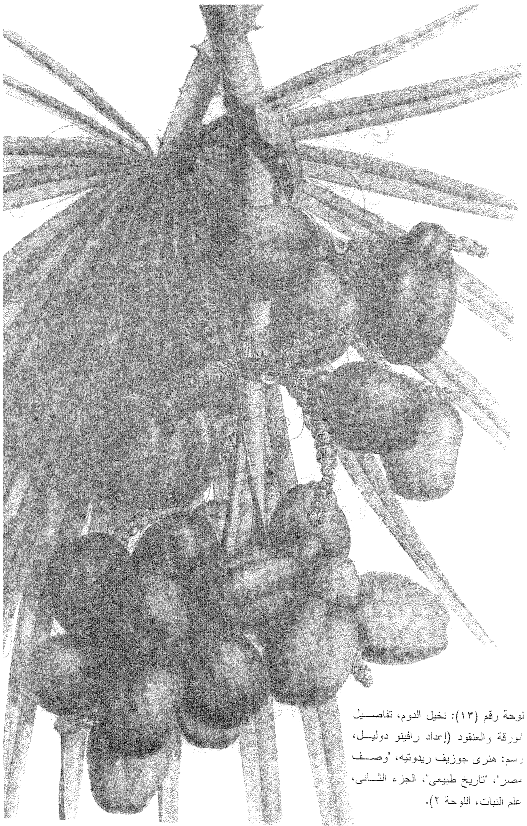


لوحة رقم (١١): الأفعى السامة (رسم جيوفرى سان هيلير "وصف مصر"، "تاريخ طبيعى"، الجزء الأول، الحيوانات والزواحف، اللوحة s ٣).

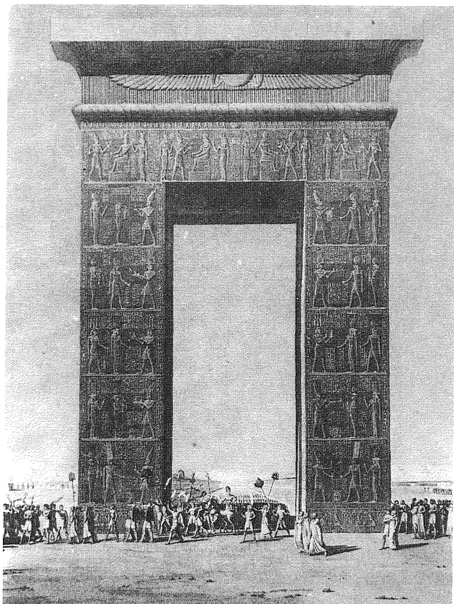




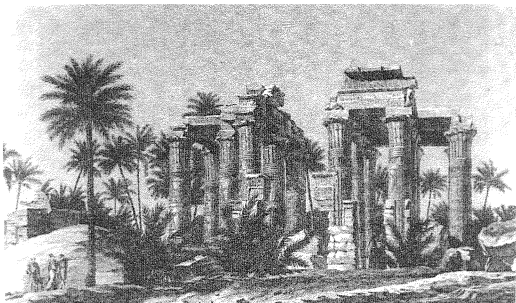
لوحة رقم (١٢): فأر الإسكندرية. وحيوان القنفذ المصرى (رسم جيوفرى سان هيلير، "وصف مصر"، "تاريخ طبيعى"، الجزء الأول، الحيوانات والثدييات، اللوحة ٥).



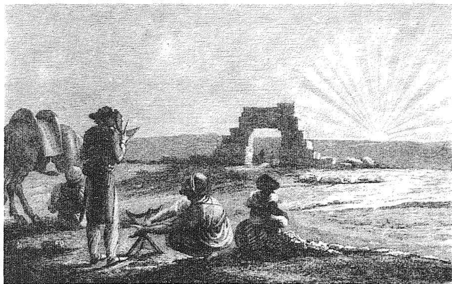
لوحة رقم (١٣): نخيل الدوم، تفاصيل الورقة والعنقود (إعداد رافينو دوليل، رسم: هنرى جوزيف ريدوتيه، "وصف مصر"، "تاريخ طبيعى"، الجزء الثانى، علم النبات، اللوحة ٢).



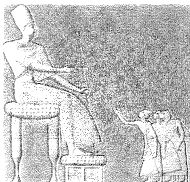
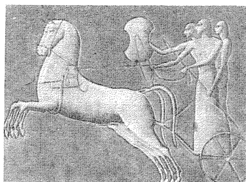
لوحة رقم (١٤): معبد الكرنك. ارتفاع منظورى للبوابة الجنوبية ("وصف مصر"، "آثار"، الجزء الثالث، اللوحة ٥١).



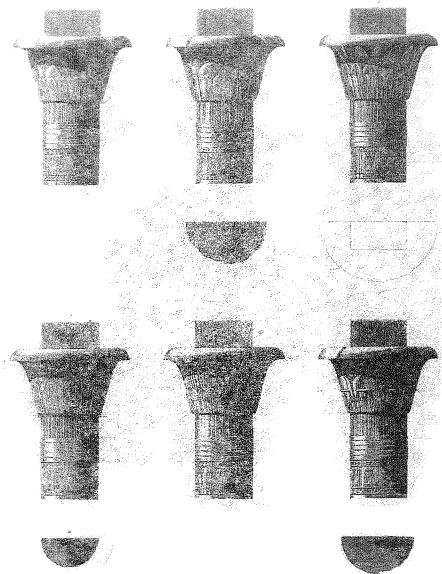
لوحة رقم (١٥): أنتينوبوليس. منظر للمعبد تم التقاطه من الناحية الجنوبية الغربية ("وصف مصر"، "آثار"، الجزء الرابع، اللوحة ٤).



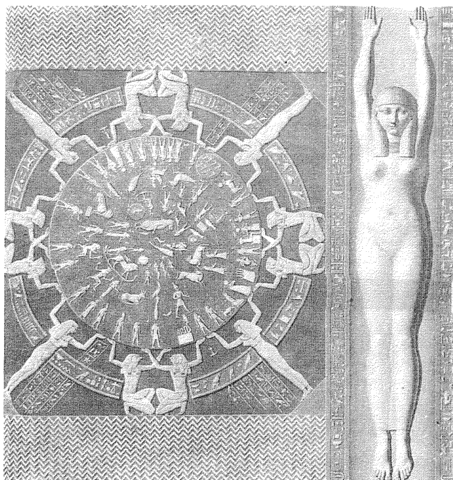
لوحة رقم (١٦): فيفان دينون، بريشته ذاتها (رحلة فى مصر العليا والسفلى).

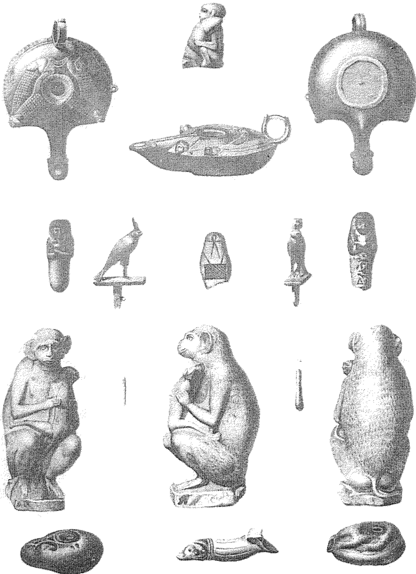
لوحة رقم (١٧): ممنونيا طيبة "الرمسيوم . نقوش غائرة بالقاعة ذات الأساطين وفوق الصرح الأول لمقبرة أوزيماندياس ("وصف مصر"، "آثار"، الجزء الثانى، اللوحة ٣١).



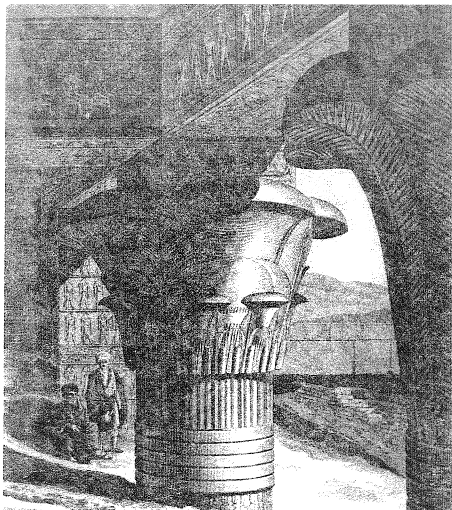
لوحة رقم (١٨): إسنا. تخطيطات لارتفاع ستة تيجان أعمدة بالبهو الكبير ("وصف مصر"، "آثار"، الجزء الأول، اللوحة ٧٦).



لوحة رقم (١٩): دندرة. فلك البروج؛ نقش بسقف إحدى القاعات العليا فى المعبد الكبير ("وصف مصر"، "آثار"، الجزء الرابع، اللوحة ٢١).



لوحة رقم (٢٠): مصابيح وتماثيل صغيرة برونزية وأخرى شُكِّلت من الحجر الجيرى، والطين المحروق، والنحاس ("وصف مصر"، "آثار"، مجموعة أنتيكات، الجزء الخامس، اللوحة ٧٨).



لوحة رقم (٢١): إدفو. منظر لداخل رواق المعبد الكبير
("وصف مصر"، "آثار"، الجزء الأول، اللوحة ٥٥).

تصادم الأعضاء الشباب فى اللجنة مع رئيسهم، "جيرارد". حيث عاتبهم هذا الأخير قائلاً: "إن عملهم يتسم بالغموض وعدم الوضوح. وبدا أحدهم "ديبوا إيميه" فائق الوقاحة. وهكذا، عُوقب بالنفى طوال شهرين كاملين فى القُصير، المطلة على البحر الأحمر. ونجد أن "ڤلييه" قد كتب له فى رسالته بتاريخ الثامن من يوليو: "أكيد أن رحلتنا كانت ستبدو ألطف وأجمل من ذلك ألف مرة .. بدون وجود "جيرارد". وأود أن أُخبرك بأنه لا يحب الآثار. فمن ضمن الساعات الأربع التى قضاها فى دندرة .. نام ثلاثة!!".

لم يستطع علماء الآثار المتمرنون أن يمضوا أكثر من أربع وعشرين ساعة فى طيبة. ولكنهم، على أية حال، وعدوا بأنهم سيرجعون إليها .. إذا تيسر ذلك. ولكن، ها هى مفاجأة جميلة كانت تنتظرهم بالناحية الجنوبية .. فى إسنا. فقد تيسر لهم الدخول إلى المعبد؛ الذى كان قد سُد بوساطة الأنقاض والردم والأوساخ .. وهناك، وصلوا إلى الدهليز المكشوف ذى الأعمدة الأربعة والعشرين: ذات الرؤوس المكونة من أشكال أوراق أشجار النخيل واللوتس. قطعًا، إن هذه المعجزة المعمارية، قد أذهلتهم إلى أقصى مدى!!.. فإنها لا تتطابق مطلقًا بقوانين الجمال الكلاسيكى. ونرى أن "ڤلييه" و"جولوا" قد عبَّرا تمامًا عن مشاعرهما: "لقد تملّكنا نمط من الإعجاب الغامض، لم نكن لنجرؤ، إلى حد مذهل على البوح به. فكنا، نوجه أنظارنا على التوالى نحو النُصب وإلى رفقاء رحلتنا؛ حيث كان كل منا، يحاول أن يتأكد من أنه ربما قد خُدع نظريًا أو ذهنيًا؛ أو أنه، قد فقد بغتة الذوق والمبادئ التى قدَّرها وأجلَّها عند دراسة المنشآت والنُصب اليونانية. لا شك أن هذا الصراع بين الجمال الواقعى للمعمار، الماثل أمام أعيننا، وبين انحيازنا إلى جانب المقاييس والأشكال اليونانية .. قد أصابنا، لبضع لحظات بالتوتر والقلق!.. ولكن، سرعان ما جذبتنا موجة إعجاب شاملة إجماعية".

فجأة، انتُزِع الشابان الفرنسيان من حلمهما الجميل، بسبب خطاب أرسله "جيرارد" لرئيس المهندسين. فمن خلاله، يأمرهما بضرورة البدء سريعًا فى عمل عدة تقديرات من أجل قياس مدى سرعة النهر. وقاما فعلاً بهذه المهمة فى أسرع وقت ممكن. ولكنهما، بشكل متوازٍ، كانا يرسمان ويدرسان النُصب والمنشآت القديمة. ولا ريب أن ذلك قد استتبع عدة توبيخات من جانب رئيسهما .. ولكن، ها هو النزاع يتفجر جهرًا وصراحة، عندما أراد "جيرارد" منعهما من استكمال الرحلة حتى أسوان: هنا، امتعض هذان الشابان خرِّيجا المدرسة متعددة الفنون؛ وبيَّنا أنهما قد أتما، بكل دقة العمل الذى أُوكل إليهما. وعندئذ، قام الجنرال "بيَّارد" بدور محاميهما: "صديق حق للفنون". على حد قول "ڤلييه". وهكذا، استطاعا أن يمضيا قُدمًا فى استكشافاتهما؛ بالمزيد من التوغل نحو الجنوب.

يوم الثالث عشر من يوليو، فى شدة الحرارة، وصلا إلى أسوان. وتراءت هذه المدينة التجارية المشيدة حول صخور جرانيتية، وقد امتدت حتى منتصف النيل. وعن سكانها، الذين لا يملكون مراكب، فإنهم يعبرون النهر فوق جذوع أشجار الجميز أو النخيل. بل وأحيانًا، فوق حُزَم من الأسل. وحيث، يستخدمون أيديهم .. كمجاديف. ولقد قام المهندسان بزيارة جزيرة فِيلَة ثلاث مرات: ورسما، ضمن الكثير غيرها، معبد إيزيس: حيث نقش الفنان النحات "كاستكس" فوق جدرانه، من أجل التاريخ نصًا يمجِّد الحملة الفرنسية على مصر ويعظِّمها.

بين أطلال طيبة

نزل "جولوا" و"ڤلييه" ثانيةً مجرى النيل، بداية من السادس والعشرين من يوليو، وتوقفا، تباعًا فى كوم أمبو، وإدفو، وإسنا. ولا شك أن محفظة رسومهما كانت تتضخم عند كل مرحلة. وأخيرًا،

استقرا فى طيبة بتاريخ التاسع من أغسطس، حيث عكفا على العمل طوال عدة أسابيع. وكانا قد عزما، وقتئذ على رفع تخطيطات أكبر عدد ممكن من النصب والمنشآت. وهكذا، فقد أُفعما حماسًا وتوقدًا؛ وشملهما أيضًا الشعور بأنهما يُنجزان عملاً أساسيًا. وهكذا، نجد "ڤلييه دى تيراج" يكتب قائلاً: لقد شعرنا بشيء من المتعة، عند اعتقادنا بأننا سوف ننقل إلى وطننا نتاج علوم العالم القديم ومهارة المصريين القدماء. وكان الأمر يبدو بمثابة غزو فعلى سوف نحاول تجربته باسم الفنون". وبدءًا من هذه اللحظة، لانشغاله الفائق بالأثريات .. توقف عن تدوين مذكراته بانتظام. وهكذا، كان يبين قائلاً: "إن رسوماتى، يجب أن تكفى عن مذكراتى".

كان هذان المهندسان يسكنان فى بيت ريفى صغير، على مقربة من مدينة هابو، على ضفة النيل اليسرى. وتقوم نصف دستة من الجنود بمهمة حراستهما فى هذا المكان المنعزل: حيث كانت تبدو، فى وقت الاستيقاظ، صباح كل يوم، بعض آثار عدد من الفرسان المماليك الذين مروا، ليلاً من هذا المكان. وفى صبيحة يوم ما، حينما كان "ڤلييه" بمفرده فى البيت مع أحد جنود الحراسة، شاهد فرقة من الفرسان البدو. وهنا، اعتقد أن لحظاته الأخيرة قد أزفت. ولكن، كان الأمر مجرد إحدى فرق الجنود الخَيَّالة، وقد تبعها خدمهم من الأهالى الأصليين، الذين حضروا لمعرفة أخبارنا وأحوالنا ..

للمرة الأولى، يظهر المهندسان فى عالم الآثار المصرية. فلم يكن كل من "جولوا" و"ڤلييه" من جامعى الآثار، أو هواة التحف النادرة. إنهما ليسا مثل "علماء الآثار"، الذين يبدون اهتمامهم بقطع فنية أثرية منفردة. بل إن هدفهما يرتكز خاصة، على: القياس والتحديد، وإعادة وضع كل مُنشأ ونُصب فى نطاق مضمونه التاريخى والثقافى. فإنهما، على سبيل المثال، إذا كانا يتمعنان فى

كتابات الرحالة القدامى فوق عملاقَىْ "مِمْنُون" .. فلأنهما يبغيان قياس مدى ارتفاع منسوب النيل منذ الحقبة الرومانية.

قطعًا، إن هذا التمهيد المتعلق بالمواقع، يُعد، فى آنٍ واحدٍ علميًا وإجماليًا. وهكذا، فإنهما قد يتحولان على التوالى إلى: طبوغرافيين، ومهندسين ومعماريين. فبداية، كان يتم تحديد الموقع الجغرافى للمنشأ. ثم يجرى قياسه؛ ويُصور من خلال عدة خرائط ومقاطع، ورسم منظورى. كما يُراعى دراسة أساليب البناء. وكذلك الأمر بالنسبة للمواد المستخدمة فى التشييد؛ وأيضًا، معرفة الفواصل القائمة ما بين الكتل الحجرية؛ بالإضافة إلى تناسق المداميك. ولا ريب أن خلف الحجر، تتراءى أداة البناء. وخلف الأداة، يتبين العامل. وبما أنه لن يتم العثور عليه؛ فها هما الفرنسيان الشابان يقومان بنقل النقوش الغائرة، والمئات من الرموز والعلامات الهيروغليفية، بأمانة فائقة .. بدون تفهُّم معناها!

لم يعمل الحَرُّ القائظ ولا نقص الأمن والأمان على تثبيط همتهما. وها هو "ڤلبيه" يذكر: "كم من المرات اضطُررنا للقيام بقطع مسافات مديدة وشاقة. وكان الغرض من ذلك: استكشاف نُصُب ومنشآت جديدة. بل وأن نوجه أسئلتنا إلى بعض الحطام البعيد !.. كم من مرّاتٍ، وقد دفعتنا رغبتنا العارمة هذه .. لأن نجوب سهول طيبة .. مع احتمال أن يغتالنا العرب!".

منذ العصور القديمة، تم استكشاف إحدى عشرة مقبرة فى وادى الملوك. ولقد تمكن المهندسان من استكشاف المقبرة الثانية عشرة، خلال تجوالهما بين هذه الوديان الصحراوية: وتبين أنها تتكون من عشر غرف، غُطيت جدرانها بالهيروغليفية، وبالنسبة للتابوت فقد اختفى، ولم يتبق سوى غطائه، المصنوع من الجرانيت الأحمر اللون. بالإضافة إلى بعض الأشياء، التى فقدت معالمها وسماتها؛ حيث غُطيت بطبقة كثيفة من براز الخفافيش. وقام المهندسان بنقلها

حتى شاطئ النيل، لغسلها وتنظيفها. كما عثرا على بعض الخراطيش المنقوشة. الخاصة بالملك "أمنحتب الثالث"؛ ولكن، لم يُعرف ذلك .. إلا بعد مرور ربع قرن على هذا الاكتشاف. عندما بدأ فك رموز كتابة المصريين القدماء ..

بعد انتهائهما من استكشاف كافة النصب والمنشآت الظاهرة على الضفة اليسرى، توجه "جولوا" و"قلييه" لكي يستقرا، على الجانب الآخر، من النهر، بالأقصر. ويُلاحظ أن هذه الضيعة البائسة، لم يكن تعداد سكانها يزيد على ثلاثة آلاف فرد. ولكن سوقها، كانت تستقبل، أسبوعيًا فلاحي القرى المجاورة. وتنحصر صناعتها الوحيدة في مجرد فرن واحد من أجل عملية القنص الصناعي .. لعدد هائل من الفراريج.

عند دخولهما معبد الأقصر، أُعجب المهندسان كثيرًا بالمسلتين المصنوعتين من الجرانيت. ولقد لاحظا "بكل أسف" أن هاتين المسلتين الأُحاديتا الحجر .. لا تتساويان في الارتفاع!!.. تُرى، هل نجم ذلك عن خطأ في البناء؟!.. بل، لقد تبيَّنا: أن المعماري المصري القديم، لكي يستر هذا التباين، قد هيأ قاعدتين غير متساويتين في الارتفاع. وهكذا، عمل على وضع المسلة الأقل طولاً، إلى حد ما أمام الأخرى.

بدت القرية والأطلال بالأقصر وقد امتزجت في هيئة كثيبات من الحطام لا يقل طولها عن سبعمائة متر. ومن التربة، كانت تنبثق عدة كتل حجرية منحوتة. ولقد اعتقد "جولوا" و"قلييه" أنها مجرد بقايا أساسات. ومع ذلك، فإن بعض أجزاء رؤوس الأعمدة .. كانت تثير حيرتهما. ولكنهما، عند دخولهما بيوت القرية .. اكتشفا عدة أعمدة كاملة!.. وهنا، تصورا، إلى أي مدى، دُفن هذا المعبد!.. فإن المساكن، والإسطبلات، والمدرسة، والجامع، التي أُقيمت فوق هذه الأطلال .. قد وصل ارتفاعها إلى رؤوس أعمدة الممر العلوي!!

فى يوم الثالث والعشرين من سبتمبر، تم إحياء مناسبة عيد "الجمهورية" فى احتفال فخم بمعبد الأقصر. وأخذ الجنرال "بيّارد" يلقى خطبته على جنوده فى وسط الأطلال المَهيبة. وكان الجنود، يجيبونه بصيحات السرور .. وللمرة الأولى تصدح أصداء هذه الأحجار .. منذ قرون بعيدة !

ولكن، يُلاحظ أن أطلال القصر، لا يمكن أن تُقارن أبدًا بأطلال الكرنك. وعندما دخل للمرة الأولى كل من "جولوا" و"ڤلييه" فى قاعة الأساطين الأولى، وقد تراكمت فى أنحائها أكوام الحطام، فقد انبهرا وذُهلا. فها هى حوالى مائة وأربعة وثلاثون أسطونًا تُفحمهم .. بحجمها الهائل!.. ولاحظا أن البعض منها الأكثر ضخامة، التى لا يقل محيطها عن عشرة أمتار فقدت توازنها. وقد عَزَا المهندسان هذا الأمر إلى عدم صلابة التربة .. التى تتخللها مياه الفيضان. وبعد أن جابا، كافة اتجاهات هذه الأطلال، استقرا على الاستنتاج الآتى: أن كافة الأعمدة، وقواعدها .. سوف تسقط فى يوم ما .. وتجر فى أعقابها رؤوس الأعمدة، وبقية السقف. وبالفعل، وقعت الكارثة، بعد مرور قرن، بتاريخ الثالث من أكتوبر عام ١٨٩٩ .. أمام النظرات المبتئسة الآسفة من جانب عالم المصريات الفرنسى .. "جورج لوجران".

لم يكتف كل من "جولوا" و"ڤلييه" بمجرد الرسم، بكل دقة وعناية لما يرونه. بل كانا يحاولان التفهم والتحليل. فقد اكتشفا على سبيل المثال أن الصرح الأول بالكرنك لم يتم اكتمال بنائه. وكذلك: أن انهيار الصرح الثانى لا يرجع إلى هِزَّة أرضية .. بل إلى خطأ فى التشييد!!

فيما وراء هذه الدراسة الثرية المبسطة، كانا يحاولان اختراق هذه الحضارة التى لا يستطيعان فك رموز لغتها. وبالنسبة للوثائق والمستندات، فلم يكن لديهما منها سوى بضعة نصوص لمؤلفين

يونانيين يرجعون إلى العصور القديمة. فكيف عساهما إذًا، لا يرتكبان أية أخطاء تتعلق بالتأويل والتفسير؟!.. فقد اعتقدا أن المعابد ما هى إلا قصور . وهكذا، تركا قيادهما للحماس والولع، فأطلقا العنان لخيالهما. وهكذا، كتب "ڤلبيه": "لا شك أن الملوك الذين كانوا، يقطنون فى هذا القصر، كانوا يمضون نهارهم بداخل القاعات ذات الأعمدة والباحات: حيث يسهل المرور، بعيدًا عن الحرارة الشديدة. وكانوا يعتكفون خاصة فى المساكن المشيدة بالجرانيت".

عمل متعدد التخصصات

عندما حضرت اللجان التى يرأسها كل من "كوستاز" و"فورييه" إلى مصر العليا، لاحظت ضخامة العمل الذى أنجزه خريجا المدرسة متعددة الفنون بفرنسا. والآن، هل سيُعاد ثانيةً ما سبق عمله؟!.. إذًا، بكل حكمة وتعقُّل، تقرر بالأحرى توزيع المهام المتبقية، فى مختلف المواقع والمدن بالمنطقة. ولقد اختار كل منهم، سواء كان مهندسًا، أو مسَّاحًا، أو معماريًا، أو رسامًا، أو عالمَ تاريخ طبيعى، أوجه نشاط تتواءم مع أهلياته أو ميوله ورغباته. وبذا، فقد أفسح التدرج الوظيفى المجال لعمل الفريق. وهكذا، بأسلوب طبيعى للغاية تثبَّت النظام. وفى بعض الأحيان، قد ينسى أحدهم اختصاصه، ليحقق عملاً ما بنفسه. فعلى سبيل المثال، من أجل نسخ ونقل مشاهد المعارك الممثلة على الجدار الشمالى بمعبد الكرنك .. هب الجميع يرسمون، بمَن فيهم المهندسون العسكريون!

ونجد أن "تكتوكس"، العالم بفن الزراعة، قد تخلى مؤقتًا عن رفقائه، وانطلق إلى ما كان يبحث عنه، بكل حمية وانفعال منذ عدة أشهر: ألا وهو: نبات "السَّنَا" البرى قبل الحصاد. وبذا، فقد توجه بصحبة مجموعة حراسة ضئيلة، فوق ظهر جمل.. إلى النوبة!.. وتوغل فى طريقه حتى "دابود". والجدير بالذكر، أنه لم يجرؤ أى

فرنسى من قبل على مثل هذا الهبوط البعيد المدى! وهناك فى مصر العليا للغاية، اكتشف أخيرًا، بانفعال وتأثر بالغ هذا النبات النادر الذائع الصيت، الذى أُعزيت إليه الكثير من الخصائص الطبية .

فى أثر "فيفان دينون"، وبعد "جولوا" و"ڤلييه دى تيراج"، ها هو أيضًا المهندس "جان مارى كوتيل"، العضو بلجنة "كوستاز" يتدلّه إعجابًا أمام مسلتَىْ معبد الأقصر. وبعد ذلك، بحوالى عام، بمعهد مصر أجرى بحثًا مختصرًا طريفًا وجديدًا عن الأسلوب الذى يمكن من خلاله نقل إحدى هاتين الكتلتين أحاديتَى الحجر إلى فرنسا!.. تبعًا لحلم رآه فى الليلة السابقة". ويتبين أن هذا الرجل الذى ناهز الخمسين من عمره، وكان، منذ زمن قريب يعمل مدرسًا للفيزياء لدى الكونت "دارتوا"؛ ثم أصبح قمندان السرية الأولى لقائدى المنطاد .. غالبًا ما يخلط فعلاً الأحلام بالواقع!!

وهكذا، نجد أنه قد قدَّر وزن المسلة بحوالى ٢٥٠ طنًا. واقترح نظامًا كاملاً لإسقاطها؛ ثم حجزها بوساطة تل من الرمال. بعد ذلك، يتم زحلقتها فوق روافد مُشحَّمة .. لتوصيلها حتى نهر النيل !!.. حيث تنتظرها ثلاث مراكب كبرى، مرتبطة فيما بينها .. ثم يعمل الفيضان على رفعها عاليًا حتى المستوى المطلوب. ومن خلال حلمه هذا، يتخيل، "كوتيل" أن الإنجليز سوف يظنون أن هذه "الآلة" ما هى إلا بطارية عائمة. ولشدة رعبهم.. فسوف يتركونها تمر بالبحر المتوسط. ولكن، بعد مُضى حوالى ثلاثين عامًا، اتُبع أسلوب يكاد يكون مشابهًا .. من أجل نقل المسلة إلى باريس!..

فى مواجهة القصر، كانت مقابر وادى الملوك، تحتفظ بمباهج كبرى للعلماء والفنانين. فها هو "كوستاز" الذى كان يعتقد أنه رأى كل شىء؛ بدت عليه بعض علامات الإرهاق .. كان، لما يراه لا يكاد يصدق عينيه: "لقد شعرت بتأثر بالغ. وتزعزعت روحى

تزعزعًا عنيفًا. أما حب الاستطلاع، الذى كاد أن يخبو وينطفئ لدىّ، فقد انتعش ثانيةً، واستعاد عنفوانه وتأججه".

وبالنسبة للمسَّاح "جومار" والمهندس "شابرول"، والباحث فى الموسيقى "فيوتو"، والكيميائى "روييه" .. فقد أمضوا جميعًا أيامًا كاملة فى التنقيب بتلك المقابر: التى سُلبت ونُهبت كنوزها، على مدى القرون. "إنهم متوقدون حماسًا للبحث والدراسة. حيث يرون، وهم يجرون فى وضح النهار، تارة، مومياوات كاملة، وتارة بعض الأشلاء المتناثرة": فهذا ما ذكره أحد كُتاب التاريخ العلمى والعسكرى للحملة. وكانوا ينبشون تحت هذه الضمادات، بداخل تلك التوابيت، فى أعماق هذه الأبيار المظلمة، يحاولون، من خلال تلك البقايا البشرية قراءة أمور العصور القديمة وخباياها، قانطين لخروجهم من هذه الأقبية .. بدون أن ينتزعوا منها .. الاعترافات الكاملة".

إن حب الاستطلاع لدى "جومار" كان يمكن أن يكلفه الكثير. ففى يوم الثالث عشر من أكتوبر، فى الساعة الخامسة بعد الظهر، دخل فى إحدى المقابر بصحبة أحد زملائه. وكان كل من الرجلين يمسك بشمعة مشتعلة. وبدءا يتعمقان بداخل هذه المتاهة. وفجأة تراءت لهما بئر، لا يقل مدى عمقها عن عشرة أمتار. ولعبورها، اضطُرا أن يجلسا فوق حافتها ويتقدما بأيديهما. ثم استمرا فى طريقهما. وفجأة، تسببت رفرفة أجنحة بعض الخفافيش فى إطفاء شمعتيهما. وبُهت الاثنان من الظلام الدامس؛ فلم يعرفا ماذا هما فاعلان. فأخذ الأول يصفق بيديه. أما الآخر فنادى طالبًا النجدة .. بصرخات حادة!.. ولم يرد عليهما سوى الصدى .. فكررا لمرات عديدة نداءاتهما .. فى نطاق صمت مرعب مخيف .. كان يخترقه، بين وقت وآخر فحيح الخفافيش !..

عندئذ، قرر "جومار" وزميله أن يمسك كل منهما بيد زميله، ويتحركان وهما مقرفصان، ببطء مع الملامسة الدائمة لأحد جانبى

الدهليز .. دون أن يعلما عما إذا كان هذا الجدار قد يؤدى بهما إلى الخروج؛ أو، بالأحرى إلى أعمق أعماق المقبرة!.. وفجأة، أومأ أحدهما إلى وجود فراغ ما. تُرى، هل هى البئر التى قابلاها منذ لحظة، أم عساها بئر أخرى؟!.. وفضلاً عن ذلك، كيف تُراهما سوف يعبرونها؟!.. وبانفعال شديد، جلسا فوق الحافة، وقد تدلت سيقانهما فى الفراغ .. وأخذا يتقدمان ببطء شديد، وهما يكتمان أنفاسهما.

ها هما قد عبرا البئر. وبدءا ثانيةً فى مسيرتهما، دون أن يكونا على يقين من اتجاههما. وبعد لحظة، هُيِّئ لهما أنهما يلمحان ضوءًا ما. تُرى، هل كان ذلك مجرد تخيُّل بصرى؟!.. عمومًا، لقد زادا قليلاً من سرعة تقدمهما. وازداد الضياء تألقًا. إذًا، ليس هناك أدنى شك: ها هو المَخْرَج!!.. وتبينا أن محنتهما ومعاناتهما هذه قد دامت حوالى ساعة.

عند دخوله فى مقبرة أخرى، حقق المهندس "إسكندر سان جنى" اكتشافًا مذهلاً: حيث لم يشاهد، للمرة الأولى، فوق الجدران، بعض الآلهة أو الملوك الفراعنة، أو الكهنة، والجنود. بل، بالأحرى، رأى أشخاصًا من العامة، منهمكين فى الصيد والقنص، وصيد الأسماك، وبذر الحبوب فى حقولهم، أو الطبخ!.. ولقد تدافع الجميع لرؤية هذه المشاهد الممثلة للحياة اليومية. بل إن العلماء والفنانين الذين كانوا يقيمون فى إسنا، التى تبعد عن هذا المكان بحوالى ٢٥ كيلومترًا، قد سافروا، وحضروا لتأمل هذه الروائع ورسمها!

حقًا، كان الحصاد هائلاً!.. وعمل العلماء والفنانون على جمع الملحوظات والرسوم والبرديات، والتماثيل الصغيرة، والمومياوات .. وحينئذ، كانوا يستطيعون مغادرة طيبة، وللرجوع إلى القاهرة؛ على مراحل قصيرة المدى. وفى يوم الثانى عشر من أكتوبر عام ١٧٩٩، قبل أسبوع من الرحيل، كتب "جوزيف فورييه" لـ"كليبر"؛ فقال: "ها نحن فى وسط معابد وقصور، شيدها أكثر شعوب العالم تميزًا".

وحقيقة أن هذا السكرتير الدائم بمعهد مصر، كان لا يزال تحت تأثير الصدمة لكل ما شاهده؛ ولكنه، مع ذلك، لم يُخْفِ بعض المشاعر المتضاربة التى كانت تلاحقه، مثل: "ضمن الكثير من الأشياء التى تجذب الانتباه، يُدهش المرء من غرابة الزخارف، والأساليب الناقصة غير المكتملة فى البناء والتشييد، وغزارة الرموز والعلامات الهيروغليفية، وغلظة وخشونة الرسوم الملونة، والاستعانة التى لا لزوم لها بقوى وضخامة الكتل الهائلة الحجم. وحقيقة، إننا نقابل هنا، بدون جهد، الشعب ذاته الذى بنى الأهرام. وأخيرًا، هناك مزيج عجيب من الفظاظة والمهارة: لدرجة أن المرء، قد يستطيع، طوعًا أن يؤكد: أن أعمال المصريين القدماء، قد تتسم بالوحشية الفائقة .. أو بالسمُوّ والرفعة!".

كما بين "فورييه" لـ"كليبر" بقوله: "عند جمع إنجازات جميع هؤلاء العلماء والفنانين، سوف تتوافر المادة اللازمة لتقديم مؤلَّف كامل عن مصر. فها هى إذًا فكرة لإنجاز جماعى .. تبدأ تلمُّس طريقها. ولقد توقع البعض أن هذا العمل سوف يكون متميزًا واستثنائيًا. بل إنه سيرقَى فوق كل ما أمكن إنجازه حتى الآن عن العصور القديمة اليونانية أو الرومانية !

(٩)
مصر، تُدرس تفصيليًا

وفقًا للتعليمات التى كان قد تركها بونابرت لخليفته، حيث ألزمه بأن ترحل إلى وطنها "لجنة العلوم والفنون" فى شهر نوفمبر من ذاك العام ١٧٩٩، حالما تنتهى من أعمالها فى مصر العليا. ولقد انتهت الأعمال فعلاً. ولكن، لوحظ أن "كليبر" كان يعتقد أنه يفتقد الوسائل المادية، لكى يُرجع العلماء والفنانين إلى فرنسا. فهل تُراه كان يتمنى ذلك حقًا؟!.. ألن يُوجَّه إليه اللوم بأنه قد تخلص من هؤلاء المواطنين؟!

ها هو "جيوفرى سان هيلير" يتأوه متأسيًا فى خطاب له إلى أحد مراسليه: "لقد بُعث علماء القاهرة البائسين إلى مصر .. لكى يمكن أن تُقرأ من خلال تاريخ بونابرت المزيد من أسطر الثناء والتمجيد. ثم ها هم قد حُجزوا، حتى لا يتراءى فى تاريخ "كليبر" أى توبيخ أو تأنيب".

وبتاريخ السابع والعشرين من نوفمبر، من خلال رسالة له إلى "كوفييه" نجد أن عالم الطبيعيات هذا يُلمح إلى مظاهر تجدد العداء من

جانب الجيش تجاه المدنيين؛ فيقول: "تُقابلنا فى كل مكان علامات عدم الاعتبار والسخرية. وربما أن بونابرت قد استطاع كبح جماح جيشه إزاءنا، ومواساتنا لتحمل المرارة؛ بقوله، حقيقة أن العسكريين يمزحون مع العلماء، ولكنهم، مع ذلك يقدرونهم. أما الآن، فلم يتبقَّ لنا .. سوى التدثر بداخل معاطفنا ..".

استسلم "جيوفرى سانت هيلير" للغم والكمد. ولكن، على أية حال، فإن العلماء والفنانين كانوا يُكنون الكثير من التقدير لـ "كليبر". بل واقترحوا عليه أن يتبوأ منصبًا فى معهد مصر. وهنا، تصنَّع هذا القائد بعض التواضع، ورفض عرضهم هذا: حيث صرح إنه لا يعرف، فى أى فصل يمكن قبوله!.. ولكن الجميع كانوا يعرفون أنه عمل معماريًا فى حوالى عام ١٧٨٠ حيث أنجز، ضمن الكثير غيره جناحًا مصريًا فى مقر "أمراء مونتبيار". وفى نهاية الأمر أذعن وقبل؛ وقال لهم: "ضعونى فى فصل الفنون.. ففى إطاره قد يمكننى أن أتفهَّم وأستوعب إلى حد ما".

انتُخب "كليبر" فى يوم العاشر من نوفمبر. وعلى الفور اتخذ مبادرتين مهمتين. الأولى: تجميع كتابات وأعمال جميع العلماء والفنانين، لنشرها فى مؤلَّف مشترك. وفى خطاب له إلى حكومة المديرين؛ بين أن الأشخاص المعنيين قد كونوا معًا جمعية؛ ووجدوا السُبل من أجل تدبُّر مصاريف النشر. كما أُعد مشروع لإنشاء شركة تجارية: بمساهمة أحد التجار الفرنسيين القائمين فى مصر: "أنطوان هاملين".

فى رسالة له إلى "كوفييه" بتاريخ السابع والعشرين من نوفمبر، كتب "جيوفرى سانت هيلير" ما يلى: "ربما أن كتاب لجنة الفنون، سوف يغفر، فى نظر الأجيال اللاحقة .. طيش أُمتنا ورعونتها .. وهى تندفع نحو المشرق. وعند التأسِّى على مصير الكثير من المحاربين البواسل الذين، بعد تحقيقهم لمفاخر وأمجاد عظيمة..

سقطوا صرعى فى مصر، فإننا سوف نُعزّى أنفسنا بوجود مثل هــذا المؤلف القيّم النادر". ها هنا إذًا عبارات مُنذرة ..

أما عن المبادرة الثانية التى اتخذها "كليبر"، فهى: إنشاء لجنــة دراسية عن مصر الحديثة؛ حيث تُضم إلى تلك اللجان التى تكتشف العصور القديمة. ولا شك أن ذلك سوف يكون نمطًــا مــن دراســة أحوال مختلف المجالات .. لن يتوارى منها فى الظلال أى نطــاق. وهكذا، سوف تُعفى الأجيال اللاحقة من البحث تحت أطلال القرون، وفى خِضَمٍّ بحر من الظنون والتخمينات ليعرفوا كيف كانت مــصر خلال الحقبة التى مر فيها الفرنسيون، مــن الحكــم الملكــى، إلــى "الحكومة الجمهورية".

من أجل البدء فى دراسة مصر الحديثة، تم تأسيس مكتب يتكون من تسعة أعضاء. وبدوره، كوَّن عشر لجان، تُكلف كل منها بأحــد المجالات التالية: التشريع، والأعراف المدنيــة والدينيــة، والإدارة، والشرطة، والحكــم والتــاريخ، والوضــع العــسكرى، والتجــارة والصناعة، والزراعة، والجغرافيا والهيدروليكا، والتاريخ الطبيعــى للسكان والنُصب والمنشآت، والملابس. عامة، لم يُنسَ شيء مطلقًــا فى مخطط المعركة هذا، أو بالتحديد الإعداد لإنجاح المشروع .. ولا حتى الرحلة السنوية التى تقطعها القافلة المتوجهة إلى "مكة": حيــث تكفلت بها اللجنة الأولى. ولم تنس مطلقًا علاقات مصر بأفريقيــا .. وقد اهتمت بها اللجنة الرابعة ..

مجتمع تحت المِجْهَر

لقد أُنجزت الكثير من الأعمال أو تُعد فى طور التنفيذ. وعلــى سبيل المثال، نجد أن "جيرارد" رئيس المهندسين فى الطرق والكبارى قد عاد بدراسة جديرة بالإعجاب من رحلته بالجنوب. وفى حين كان

معاوناه "جولوا" و"ڤلييه" منهمكين فى دراسة الهيروغليفية، كان هذا الشخص المتشدد المتصلب إلى حد ما، يقوم بجمع مواد ضخمة عن الجغرافيا الفيزيائية والاقتصادية بمصر العليا. ولقد تضمن تقريره الذى قدمه للمعهد تحليلاً مفصلاً عن حال الزراعة، وفحصًا لكل منتجات الأرض؛ والنظام الخاص بالملكية والضرائب، ثم الصناعة والتجارة. وكذلك، قدم اقتراحًا للسُبل الكفيلة بإعادة الخصوبة السابقة إلى هذه المنطقة؛ وأن تُهيأ بها عدة وسائل اتصالات تؤهلها لتكون مرة أخرى: مستودعًا لثروات الهند. والجدير بالذكر أن الكثير من أعمال الرى التى اقترحها، قد نُفذت خلال القرن التاسع عشر.

وعن "تاليان" المسئول عن اللجنة الثانية، فقد قدم من جانبه: "مذكرة عن الإدارة فى مصر، بحقبة وصول الفرنسيين". ومن خلالها، نطالع عدة ملحوظات جيدة، عن الأسلوب الذى استعان به المسيحيون الأقباط للسيطرة على الشئون المالية المحلية منذ وقت بعيد. وعن الأتراك، فهم عامة جهلاء؛ ولا يُولُون اهتمامًا كبيرًا بأعمالهم: وفقًا لما بينه هذا التقليدى السابق. وفيما يتعلق بالمماليك .. فهم لا يعرفون حتى القراءة!.. وهكذا كان كل من أصحاب الأملاك يحظى بمدير أو مشرف على أملاكه قبطى؛ يُكلف عادة بجبى كل إيراداته وتسديد مصروفات منزله. وفيما بين الأقباط المتكتلين معًا فى هيئة طائفة، كان يسود نمط من التوافق والتناغم المثالى. "إن المصلحة تجمعهم معًا دائمًا: وهكذا، يعيشون فى أُلفة فائقة، حيث يحرصون خاصة على عدم إطلاع أى إنسان على أسرار إدارتهم. وبما أنهم كانوا قد تعودوا على الحياة تحت وطأة الجَور والظلم، فهم يتحملون بصبر وهدوء كافة الإهانات التى تُكال لهم. كما أنهم، فى كل الأحوال، يفتدون أنفسهم بالمال .. ويُلاحظ أن حساباتهم غامضة وغير مفهومة تمامًا!!.. وهم الوحيدون الذين يعرفون فاعليتها وأسرارها. ولا ريب أن هناك غرضًا ما، وراء تقديمها دائمًا بهذا

النمط. فلأنهم لا يعرفون مدى بلاهة أسيادهم.. فهم يضعونهم أمـــام استحالة تفهُّم .. هذا الكَمِّ الضخم المخيف من الأرقام !".

لقد أنجزت اللجنة المكلفة بدراسة ملبوسات المصريين، عمـــلاً هائلاً!.. فلم تُفتقد فى إطارها، حتى كسوة أو عمامة. وكذلك الأمـــر فيما يتعلق بالدراسة الخاصة بالمساكن؛ حيث تمت أيـــضًا بمنتهـــى الدقة. وفى مجال الحياة اليومية والعادات والتقاليد، فإن كل ما يمكن ملاحظته قد أومئ إليه. فبالنسبة للنوم، على سبيل المثال، تبـــين أن أثرياء الرجال المصريين .. ينامون بمفردهم — وليس مع الزوجة — فى صالون فخم كبير. و"بالنسبة للرجال السِّمان، فإن المخدع لا يعدو أن يكون سوى سَجَّادة مفروشة فوق الأرض وتحفُ بها أربع وسائد: اثنتان يمينًا، واثنتان يسارًا. وفوق هـــذه الـــسجادة، يوضـــع غطـــاء وناموسية من الحرير أو قماش الموسلين: ومنها ما طُرزت بالخيوط الذهبية والفضية. وغالبًا، يرقد المرء على جانبه. وتُتخذ الوسائد عادة كمسند للساقين والذراعين".

ومن أجل إيقاظ النائم من نومه، فلا يمكن أبدًا هزه أو الصراخ فى أذنه: "فعادة، تقترب منه إحدى الجوارى بدون جلبة أو ضوضاء؛ وتلاطفه بالربت بيدها على باطن قدميه .. حتى تعمل هذه الدَّغدغة، برفق وليونة على إيقاظه". ولكن، ها هو كاتب هذا التقرير، لا يتمالك نفسه من التعليق قائلاً: "قطعًا، إن هذا الحرص الرقيق الناعم .. ينبئ عن طراوة ورخاوة الشعب الذى ينتهجه. بل إنه علامة على الحيـــاة الناعمة التى يعيشها".

ربما أن لهجة التعالى هذه تبدو غالبة. ومع ذلك، ففـــى بعـــض الأحيان أيضًا يعبر العلماء عن إعجابهم. فنجد، أن المدارس الابتدائية مثلاً، قد أوحت إلى "جومارد": ببعض ملحوظات الإطراء والمـــديح.

فها هو، فى هذا الصدد، يكاد أن يقترح تطبيق هذا المثال فى فرنسا ذاتها: حيث يذكر: "إن أسلوب التعليم والكتابة والقراءة، يبدو هنا رفيع المستوى؛ بالقياس بما هو سائد فى الكثير من قُرانا (الفرنسية)، بل ومدن أوروبا ذاتها. ففى هذه الأخيرة، ما زالت تُتبع حتى الآن الوسيلة الفردية. ولكن، فى القاهرة، يتم تعليم جميع التلاميذ معًا فى آنٍ واحد. وَكذلك الحال، فهم يتعلمون معًا فى الحين ذاته القراءة والكتابة. أو بمعنى أدق: إنهم عند كتابة المقاطع الهجائية للكلمات.. ينطقونها ويرددونها جميعًا معًا بصوتٍ عالٍ".

إن وصف مصر الحديثة ليس كافيًا. بل يتحتم الأمر عرضها. ومن هذا المنطلق، ملأ "كونتيه" علب كرتون عديدة برسومه، منذ قدومه إلى القاهرة. وهكذا، فإن الجنرال "كافاريللى" المسئول عن لجنة العلوم والفنون قد دعاه لأن يُمعن النظر ويلاحظ كافة أنماط الفن الآلى والكيميائى السائد فى البلد. وكذلك، أن يجمع الملحوظات والرسوم المتعلقة بهذا الموضوع، وأن يُدمج الإتقان والتحسين الذى يتفتق عن نبوغه الاختراعى. وبالرغم من مشاغله المتعددة، فقد أبدع هذا المبتكر الكثير من اللوحات بدقة جديرة بالإعجاب؛ بالإضافة إلى حوالى خمسين مشهدًا مرسومة بالألوان المائية. وبفضل قلمه وريشته، فإن التقنيات المحلية ــ مثل أفران شَىّ الدجاج، وطواحين الجص، وماكينات الرى أو ضرب الغلال ــ قد تحولت إلى كتاب بديع مفعم بالصور. ومن خلال صفحاته، يُرى صناع دبغ وتلوين جلد الماعز وهم يعملون، عرايا فى ورشة مظلمة. وفى الحين ذاته، يُشاهد سارقو التبغ وهم جالسون بهدوء فى الهواء الطلق. ثم ها هى إحدى صانعات قطع الطين المتماسكة اللازمة للحرق، وقد سترت وجهها، جالسة فى وسط حديقة. أما الحلاق المرتدى جلبابًا، وقد مال نحو رأس أحد الزبائن، وأمسك بأداة ما .. فيبدو وكأنه جراح !!

فنانون – علماء بالسلالات

كان هناك فنانون آخرون، أقل انشغالاً من "كونتيه"؛ وبالتـالى، يكرسون كل وقتهم للرسوم أو النقش. وهكذا كـان الأمـر بالنسبة لــ"أندريه دوترتر" رفيق الدراسة السابق لــ"ديفيد" الذى كان قد ركز مهمته فى الرسم السريع للشخصيات الرئيسية المدنيـة والعـسكرية بالحملة. فإليه يرجع الفضل فى رسم سلسلة من الصور "البروفيـل" بالقلم أو بالفحم الخشب، ويبرزها ويزينها ببعض اللمـسات بالرسـم المائى. وعلى ما يبدو، أن الجميع أو معظمهم قد تنـاولتهم ريـشته. وعند الرجوع من معركة سوريا الدامية، وكان هذا الرسام قد بقى فى القاهرة، وأخذ يستقبل الناجين ويستفسر عن أولئك أو هؤلاء: "كيـف حال فلان؟" فيُرد عليه ــ "لقد تُوفِّى" ــ "أوه! هذا مزعج، خـسارة". "ليس لدىَّ رسمه". ــ "وفـلان؟!"ــ لقد مات هو الآخرــ أوه!!.. هذا عندى".

لحسن الحظ، أن "دوترتر" كان يُولِى اهتمامه أيضًا للمصريين. فلا شك أن الصورة التى رسمها لــ"مراد بك"، تُعد بمثابة تحفة فريدة من نوعها. فيلاحظ أن كل قوة وعنفوان هذا الزعيم المملوكى، الذى كان عدوًا ثم غدا صديقًا للفرنسيين، قد عبر عنها بوساطة عمامـة، وذقن مشعثة. لقد مُثِّل جالسًا من خلال ثلاثة أرباع الوجــه؛ بجــوار نافذة أحد القصور، ويُرى كرباجه وسيفه موضوعيْن بجواره. ويمسك فى يده بمِنَشَّة. ومن خلال أسلوب آخر مختلف تمامًا؛ يقدم الرسـام لوحة سوداوية كئيبة عن العوالم: فتُرى اثنتان من هؤلاء الراقـصات العموميات جالستيْن متجاورتين فوق حصيرة. إنهما مكتنزتان إلى حد ما.. وقد يتراءى أنهما تنظران إلى الرسام، ولكنهمـا لا تريانــه .. فعيونهما مفعمة بالغموض!

فى سبتمبر عام ١٧٩٩، اقترح "دوترتر" على معهد مـصر أن يفتتح مدرسة عامة للرسم. ولن يكون بها أساتذة مُعدون بـل جميـع

الفنانين، يتقاسمون فى نطاقها فنهم. بالإضافة أيضًا إلى الإخصائيين فى علم التشريح. وكما يرى الرسام، أن مثل هذه المدرسة، سوف تسمح بتقديم مصر: سكانها، وحيواناتها، ونباتها، ونُصبها ومنشآتها وتقنياتها من كل جوانبها. ولكن، لم يتحقق هذا المشروع. ولكن، فيما بعد، احتل الرسم مكانًا هائلاً مرموقًا فى "وصف مصر" المقبل.

من ناحية، قام الرسام "ميشيل ريجو" بإبداع صُور شخصية للكثير من كبار شخصيات القاهرة ووجهائها وفقًا لطلب بونابرت. ولقد قبل هؤلاء الرجال المُعممون أن يجعلوا أنفسهم نموذجًا أمام الفنان؛ بالرغم من تحفُظ المسلمين فيما يتعلق بتمثيل الشكل الإنسانى. وعند عرض اللوحات فى قاعات قصر القائد الأعلى .. أثارت إعجاب المؤرخ المصرى "الجبرتى"، حيث قال: "عند تأملهم، يُهيأ للمرء أنهم على وشك أن ينفصلوا بكيانهم من أماكنهم، ويستهلوا الحديث!".

عن "ريجو"، الذى كان يُعتبر، خاصة، حتى ذاك الحين بمثابة رسام للحيوانات، فإنه لم يقتصر على رسم كبار القوم ووجهائهم. فها هو قد أُخذ وسُحر بسمات وجه قائد قافلة مكة، النوبى الأصل، المدعو "عبد الكريم". ونجح فى جذبه إلى ورشته فى مقابل مبلغ مالى مبهر. ووفقًا لما نشرته جريدة "البريد المصرى" أن النوبى كان يشعر ببعض التخوُف والرِّيبة. ولذا، فقد حضر وبصحبته عشرة أفراد من مواطنيه. وفى نهاية الأمر، عزم، بعد صعوبة جمة، على صرف حراسه، لكى يقف كنموذج أمام "ريجو" .. الذى كان قد أزمع رسمه بالحجم الطبيعى. وحقيقة أن المخطط الإجمالى بالقلم قد أثار دهشة النموذج وعجبه .. ولكنه لم يستقبحه أو يبغضه. ولكن .. عندما بدأ الفنان فى تلوين الوجه، قام "النوبى" فى قفزة واحدة وهو يطلق صرخات رعب وفزع .. وولى الأدبار بأقصى سرعته !.. وأخذ يصيح للمارة مبينًا أنه هارب من منزل ما: حيث أُخذ رأسه ونصف

جسده!!.. هذا إذا صُدق ما جاء بجريدة البريد المصرى: المصدر الوحيد للمعلومات؛ للأسف الشديد، بالنسبة لهذه الواقعة، أو لغيرها. والمدهش فى الأمر، أن "عبد الكريم" هذا، قد أحضر معه إحدى النوبيات إلى ورشة "ريجو". ولم توافق هذه المرأة الشابة على أن تكون "موديل" إلا مُرغمة. وكلما كان الفنان يقوم برسم رأسها أو ذراعيها، كانت توجه إليه سؤالها هذا: "لماذا تأخذ رأسى؟! لماذا تنزع عنى ذراعى؟!".

إن فك رموز مصر، يستوعب كذلك فى نطاقه معرفة موسيقاها وتفهُّمها. ولقد انكبَّ على هذا الأمر أحد الفرنسيين، ويُدعى "جيوم أندريه فيلوتو"؛ منذ اليوم الأول لمجيئه. إنها لمسيرة عجيبة حقًا تلك التى قطعها فتى الكورس السابق هذا فى "مانس". وحقيقة أن عائلته أرادت إرغامه على أن يصبح قسيسًا. ولكنه فضل ترك مدينته. وأصبح موسيقيًا متجولاً. ثم التحق بفرقة الدراجون (التِّنين). ثم أخيرًا، قرر، لانعدام موارده المادية .. أن يُجند فى الجيش. وعند اندلاع الثورة، خلع "فيلوتو" ثوب الكهنوت .. ألقاه فى الحريق. وبعد ذلك، أصبح مرتلاً فى جوقة أوبرا باريس. وهناك، وقد ناهز التاسعة والعشرين من عمره، جنّدته لجنة العلوم والفنون للسفر إلى مصر.

منذ وقت وقوف الباخرة فى مالطة، اكتشف "فيلوتو" موهبته الجديدة. ولقد انتهز فرصة هذه الإقامة، لكى يدرس بعض الألحان الشرقية. وخلال وليمة كبرى، خاطر بإغضاب بونابرت، حيث رفض غناء نشيد "المارسييز"؛ وكذلك، أعلن جهرًا أنه مؤلف موسيقى .. وليس موسيقارًا. وربما أن الجنرال الأعلى، إذا كان يريد شاعرًا بطوليًا وغنائيًا لحث ودفع حمية وحماس جيشه .. فلا شك أنه اختار "النمرة الغلط"!!

فى القاهرة، بدأ "فيلوتو" فى متابعة دروس المرتل والمنشد الأول بالكنيسة اليونانية الكاثوليكية. إنه رجل مُسن يدعى "جبرائيل".

وها هو فتى الكورس السابق بالأوبرا، يحكى عنه قائلاً: "إن صوته، رفيع، مرهق، ومرتجف .. ذو صَدًى مصدوع. وخلاف ذلك، فهو يغنى من طرف أنفه، بأسلوب مُتصنَّع ومتعاظم".. وبين كل ضحكة وضحكة هيستيرية .. أخذ يخنخن هو الآخر!

لُقن "فيلوتو" على التوالى موسيقى السوريين والأتراك، والأرمن واليهود بمصر. ولقد بدأ من أشياء ضئيلة، ولم يستطع الاعتماد على أية توليفة موسيقية. وللوهلة الأولى، لم تكن هذه الأنغام تجذبه، فهذا أقل ما يمكن أن يُقال. وهو يتذكر: "التأثير المستفز لموسيقى تكاد تمزق آذاننا، وتغيرات صوتية مفتعلة، صلبة وغريبة؛ وزخرفة ذات مذاق مفرط وهمجى. وكل ذلك، كان يُؤدَّى بأصوات عقيمة، وغير واثقة. تصاحبها آلات ذات رنات رفيعة وبهيمة، أو حادة ونافذة".

مع ذلك، تعودت أذنا فيلوتو" شيئًا فشيئًا على هذه الأنغام. وتعلم كيف يكتشف الإضافات والتشويهات التى أتخمتها وأثقلتها على مدى الزمن. تُرى، هل عساه بدأ يحبها؟!. فنجده يكتب قائلاً فى "وصف مصر": "إن المصريين، لا يحبون أبدًا موسيقانا. ويجدون أن موسيقاهم جذابة وسارة. أما نحن، فإننا نحب موسيقانا، ونجد أن موسيقى المصريين كريهة وبغيضة: إن كل طرف، من جانبه، يعتقد أنه على حق". يُلاحظ إذًا، أن الموسيقى المفترضة التى تعمل على التقريب ما بين الشعوب، قد صارت، فى بداية القرن التاسع عشر، مجالاً لعدم الفهم الفائق ما بين المصريين والفرنسيين!

ولكن، ربما كان هناك استثناء ما: ألا وهو، الأسلوب الذى تطابَق، من خلاله موسيقيو الشوارع مع الاستعمار. فعلى مقربة من الثكنات الفرنسية، كانوا يجيئون لتحية "بطل الأهرام"، بأنغام تكاد تكون مقتبسة من أنشودة "ذهب مارلبورو محاربًا بحماس". إن الترجمة من العربية للكلمات، تعيد إلى حد ما هذا المعنى: "يا له من وسيم جميل، المواطن "بونو"؛ هذا الجنرال ذو عيون الغزلان؛

والشعر البديع!!". ولكن، يُلاحظ أيضًا، شيء من الزحف الناعم .. من التمجيد والتعظيم .. إلى المعارضة والمناوأة: فها هى أغنية أخرى، قد تسببت حقًا فى حيرة العلماء المستشرقين: "تجعلنا نتنهد ونتأوه لغيابك، أيها القائد الأعلى الذى يحتسى القهوة بالسكر .. وجنوده السكارى؛ يجوبون المدينة .. بحثًا عن النساء!".

كافة الأنغام كانت تجذب انتباه "فيلوتو": سواء ما يترنم به المؤذن أو بائع المياه، أو حتى الإلقاء الرتيب من جانب المتسولين. وكان يجرى إلى كل مكان؛ ويكتب ملحوظات. ويتبع مواكب الزفاف. ويصعد مجرى النيل. وينتقل من مدينة إلى أخرى؛ ترصدًا لأى جهوريات محلية. وقد لاحظ: أن المصريين يميلون إلى الإيقاع، ولا يمكن أن يستغنوا أبدًا عن الموسيقى. بل إن الفلاحين أنفسهم يزاولون أعمالهم .. وهم يغنون.

مرورًا بكل ذلك، أخذ هذا "الباريتون" السابق (جهير أول) يتعلم العزف على كافة الآلات الموسيقية .. سواء ذات الأوتار، أو آلات النفخ والمزمار، أو النقر والإيقاع التى يجدها أمامه: بداية من الأرغول، المزدوج الكلارينيت المصنوع من البوص الذى لا تقل أكثر نماذجه طولاً عن ٢,٥٠ متر؛ وحتى الربابة، وهى آلة موسيقية بسيطة ذات وترين من شعر عنق الجياد. أما علبة رنينها، فهى من ثمرة جوز الهند. ولكن، كانت هناك آلة ناقصة من مجموعته، "الزخارة". إنها نمط من مزمار القِربة، بدون ناقوس. وقد حاول "فيلوتو"، بدون جدوى، أن يجد نموذجًا منها. وأخيرًا، وجده برشيد، فى شهر أغسطس عام ١٨٠١ .. قبل رحيله مبحرًا إلى فرنسا.

من خلال "وصف مصر" يُلاحظ أن إسهام رائد علم السلالات الموسيقية هذا، قد ملأ ما لا يقل عن ألف صفحة! فإن ذلك يُعد بمثابة بحث فعلى بكل معنى الكلمة، عن الموسيقى المصرية، فى الماضى والحاضر: حيث أكمله بعض المضاهاة المتعمقة بالموسيقى الأخرى.

سفر كاذب على السفينة "الطائر"

فجأة، فى أواخر شهر يناير عام ١٨٠٠؛ عندما أُعلن عن إبرام معاهدة العريش، أوقف "فيلوتو" وزملاؤه فى لجنة العلوم والفنون أعمالهم. قطعًا، اعتُبر ذلك بمثابة خبر طيب قوبل بكل ترحيب وحماس من جانب جميع من يريدون العودة إلى فرنسا .. وهم كثيرون جدًا. فقد تفاوض "كليبر" مع العثمانيين والإنجليز فى أمر الجلاء عن مصر لأنه كان على يقين أن جيش المشرق يعانى من صعوبات مالية؛ وبذا، فمن الأجدى له أن يُمارس نشاطه فى ساحات الحرب الأوروبية، بدلاً من التسكع على ضفاف النيل. ولكن، على ما يبدو، أن خادم حكومة المديرين هذا، كان يجهل أن بونابرت قد أمسك، لتوّه بمقاليد السلطة فى باريس.

وهكذا، أُمر العلماء والفنانون بأن يتجمعوا، ويعدوا حقائبهم. وكان العديد منهم، يعانون من وطأة الحنين إلى الوطن. فرحبوا كثيرًا بهذا الخبر. ويُلاحظ، أن "جيوفرى سان هيلير" قد كتب قبل ذلك بشهر، فى رسالة له إلى "كوفييه" قائلاً: "لقد وصلت لأدنى حد من شجاعتى. ولم أعد أطيق مصر. وها أنا أتذكر، بمشاعر الألم .. كل ما استبدلته فى مقابل وضعى الحالى. فلقد تركت أصدقاء أوفياء وحقيقيين .. لكى أُلقى بنفسى فى مجتمع، يتسم بكل معالم أحد الأديرة. أو أنها شبيهة بمصنع بمدينة صغيرة فى أحد الأقاليم: فنحن نرقب بعضنا بعضًا، لكى نتبين بالتبادل نقائصنا ونتخذها موضعًا لسخريتنا وهُزْئنا. لقد عانيت دائمًا من المرض. بل إن جسدى قد أصبح واهنًا مرهقًا .. لدرجة أننى اعتقدت أننى لن تسنح لى الفرصة أبدًا .. لأن أرى ثانيةً أعز أفراد أهلى وأصدقائى".

فى يوم الرابع من فبراير، أبحر أربعون فردًا من أعضاء "اللجنة" على متن عدة سفن التى ستقلهم إلى الإسكندرية. وقد حملوا معهم كل مجموعاتهم، بما فيها حجر رشيد ذائع الصيت. ولكن،

ها هى حالة طارئة: فقد أُعلن عن ظهور وباء الطاعون. وبذا، فقد تم عزلهم فوق جزيرة صغيرة بالنيل، لا تبعد كثيرًا عن الساحل. وفى السابع والعشرين من مارس، استطاعوا أخيرًا أن يصعدوا إلى ظهر القَلْعِيَّة(*)، المعروفة باسم: "الطائر"؛ بمصاحبة زملاء آخرين؛ انضموا إليهم فى الإسكندرية .. للتوجه إلى فرنسا.

عند ذاك، تبدت كارثة جديدة: حيث نُقضت اتفاقية العريش. وطالب الإنجليز باستسلام الفرنسيين بدون أية شروط. ورأى "كليبر" أنه قد خُدع!! وأمام جيشه، صاح فى تعالٍ وتكبُّر: "أيا أيها الجنود، يجب علينا أن نرد على هذه الوقاحة .. بوساطة انتصاراتنا. فلتستعدوا إذًا للقتال". وها هو جيش "المشرق" الذى كان قد استهل رحيله من بعض أجزاء مصر .. يرفع رأسه عاليًا ثانيةً. ويعيد تكوين تشكيلاته المربعة. ومن خلال معركة تاريخية فى هليوبوليس، استطاع ثمانية آلاف فرنسى أن يهزموا أربعين ألف عثمانى!

ولكن هذا النصر المبين قد تبعته فورًا ثورة مسلحة جديدة بالقاهرة؛ أكثر أهمية وضخامة من تلك التى اندلعت فى نوفمبر عام ١٧٩٨: حيث شارك فيها عثمانيون ومماليك ومغاربة وبدو قادمون من التخوم المجاورة. وفى هذه المرة، لم يكتف الثائرون بإقامة المتاريس: بل لقد جُهزت ورش لصناعة السلاح والبارود بكل معنى الكلمة. كما اتُّهم بعض المسيحيين بالتعاون مع المحتل؛ وبالتالى هوجمت منازلهم .. وكذلك، فإن الشيخ "البكرى" نفسه قد تورط فى النزاع ..

كان الأمر يقتضى شهرًا كاملاً لكى يتمكن "كليبر" من استعادة الهيمنة على المدينة. وقام بحصارها؛ قبل أن يأمر بقصف بعض أحيائها. ثم اقتحمتها ثلاث فرَق عسكرية. وتم الاكتساح التام لحى

(*) قلعية: سفينة شراعية بصاريين، متعددة القلوع المربعة.

بولاق. وفى هذا الصدد، يقول الكولونيل "فيجو ـ روسيون": "كان الأمر يُحتم الاستيلاء على كل بيت، الواحد تلو الآخر. ومن أجل بث الرعب فى أنحاء القاهرة، صُرح للجنود بأعمال السلب والنهب. وبعد أن ارتكب هؤلاء الخيّرون الكثير جدًا من البشاعات .. أشعلوا النيران فى هذه المدينة البائسة .. لقد بدا الأمر رهيبًا مروِّعًا!". وهناك جزء من حى الأزبكية وهو أجمل أحياء العاصمة.. قد تحول إلى تل من الأطلال والحطام!

ولعقاب سكان القاهرة على تمردهم، فُرضت عليهم ضرائب ثقيلة الوطأة. ولقد خضع الجميع لها باستثناء المسيحيين؛ الذين أُذلوا وأُهينوا من جانب المتمردين بمن فى ذلك مُروِّضى القِرَدة، والحُواة. ونجد أيضًا أن مكلف مصر الأول، الشيخ "السادات" الذى ناهز الثامنة والسبعين من عمره، قد طُلب منه مبلغ باهظ ضخم. فأبدى بعض التردد. وبذا، زُج به فى السجن بداخل "القلعة". وكان يُضرب مرتين يوميًا .. حتى قرر أن يسدد المال. كما تم الحجز على كافة ممتلكاته.

فى يوم السابع والعشرين من أبريل، هبط العلماء والفنانون، الذين لم يغادروا ميناء الإسكندرية من "الطائر". وبدوا منهكين غاضبين: ليتبينوا أن الحياة فى مصر ما زالت تستمر، إلى حد ما على نفس المنوال. وعندئذ، لم يكن "كليبر" يعتمد أبدًا على الرجوع قريبًا إلى فرنسا. واستتباعًا لامتداد مدى بقاء الاحتلال، عمل على إعادة تنظيم النظام الضريبى المصرى. كما ضاعف من قواته المسلحة: حيث جنّد أعدادًا من الجنود المحليين. وهكذا، انبثق فجأة فيلق من المماليك، وفرقة من الأقباط، وكتيبة من اليونانيين؛ ثم فيلق من فرسان الإنكشارية ..

بأمر من القائد الأعلى، عاد "كونتييه" فورًا إلى القاهرة؛ وذلك، بعد واقعة الإبحار الزائف من جانب "الطائر". ولكى يعيد فتح ورشه المتعددة وينتج كميات ضخمة من البارود. ولكن المعهد، من جانبه،

لم يعاود وقتئذ عقد جلساته. وكان الكثيرون من العلمــاء والفنـانين، الذين وهنت عــزيمتهم وثُبِّطــت همــتهم، يتــسكعون فــى أنحــاء الإسكندرية. وعندما أخبر عالم الفلك "نوييــه" كليبـر باحتجاجـات زملائه، أجابه هذا الأخير بكل خشونة: "بأنه لا شأن له مطلقًا بفـشل سفرهم. وأنه لا يمنع أيًا من أعضاء اللجنة من الإبحار إلى فرنسا .. تحت مسئوليته الشخصية".

فى يوم الرابع عشر من يونيو عام ١٨٠٠، بعد الظهر، كــان القائد الأعلى يتنزه فى جنبات بــساتين وحــدائق مقــره الخــاص؛ وبصحبته المعمارى "بروتان". وها هو فتى عربــى يقتــرب منــه، متصنعًا التماس حظوة أو فضل ما .. وحالما سمع "كليبر" صوت هذا الغريب .. سدد إليه هذا الأخير عدة طعنات بخنجره!!.. وقد أُصيب "بروتان" أيضًا ببعض الجروح. وعندما أقبل الحراس مسرعين، وقد تنبهوا لصرخات الضحيتين .. كان القائد الأعلى يلفظ آخر أنفاسه!!!

وقد ضُبط القاتل، فى حديقة مجاورة. إنه سورى، مــن حلــب. ويُدعى "سليمان" عمره أربعة وعشرون عامًا. ولا شك أن "بارتليمى" الرهيب قد أرغمه على الاعتراف.. بما أنزلــه بــه مــن ضــروب التعذيب!!.. وعلى ما يبدو، أن هذا الفتى، قد اقتــرف فعلتــه هــذه بتحريض من جانب الإنكشاريين العثمــانيين .. بــدون أى تــورط مصرى. وكان قد ألمح فقط بعزمه هذا إلى بعض شــيوخ الأزهــر، الذين ربما قد حاولوا، بدون جدوى، أن يقنعوه بالعدول عــن فعلتــه هذه. وأُلقى فورًا القبض على ثلاثة منهم. وصدرت دعوة لاجتمــاع محكمة عسكرية فى اليوم التالى. وحُكم على الشيوخ بقطع رؤوسهم. أما "سليمان الحلبى"، فقد حُكم عليه "وفقًا للعقوبة السائدة فى البلد فيما يتعلق بالجرائم الكبرى بأن تُحرق قبضة يده اليمنى. ثم تتم خَزْوَقته. ويبقى فوق الخازوق حتى تلتهم الطيور الجارحة جثته". وعلــى مــا يبدو، أن "الجبرتى" لم يُعلق بأية كلمة على هذا الحكــم. بــل علــى العكس، فإن هذا المؤرخ المصرى، قد أبدى إعجابــه بــالإجراءات

القضائية التى اتبعها الفرنسيون. وقارنها بالأساليب الأكثر سرعة لدى العثمانيين.

كل نصف ساعة، كانت طلقات المدافع تُدوى إيماء عن الحداد. وعن المراسم الجنازية؛ فقد تم تنظيمها، خاصة من جانب "كونتييه" ورئيس المهندسين "جاك مارى لوبير" فى يوم السابع عشر من يونيو أمام معهد مصر. وقام السكرتير الدائم "فورييه" مساعد وصديق "كليبر" بإلقاء كلمة التأبين. ومن الواضح، أنه لم يكن هناك أية حدود فاصلة ما بين المدنيين والعسكريين؛ وبين السلطة والعلم: "أيا أيها المواطنون، ما النجدة التى كان ينتظرها أعداؤنا من وراء هذه التجربة؟!.. هل كان لهذا الجنرال المنتصر، كفيل بإبادة الجنود الذين يطيعونه؟!".

فى اليوم ذاته، تمت الإطاحة برؤوس الشيوخ الثلاثة. وأُوقع العقاب الرهيب بسليمان. ولم يتوانَ "دوترتر" عن رسم ذاك المشهد. وبعد مُضىّ حوالى أربع ساعات، نقض أحد الجنود الذى يتسم بالشفقة تعليمات "بارتليمى": محاولاً وضع حد لعذاب "الحلبى" .. فقدم له كوب ماء !!

حالما شُفى المعمارى "بروتان" من جروحه وصدمة انفعالاته، رسم تخطيطًا لنُصب جنازى؛ يبلغ طوله ٣٠ مترًا، أما ارتفاعه فإنه ١٧ مترًا؛ وبداخله يستقر تابوت مصنوع من حجر السُّماق. ولكن، يتبين أن هذا المدفن الإمبراطورى .. قد بقى دائمًا فى زوايا النسيان!

وحصل رئيس الجراحين "لارى" على السماح بالاحتفاظ بجثة "سليمان الحلبى": التى أُزمع نقلها إلى فرنسا .. لأهداف علمية. فإن مخ هذا الشخص المعاقَب بالقتل، كان سيسمح لطلبة الطب الباريسيين، بأن يقيسوا مدى ضخامة الجريمة والتعصب. و"ذهبت" أداة الإدانة والإثبات، بعد ذلك إلى "متحف الإنسان". ثم تمت مواراتها عن أنظار الجمهور؛ كما خُبئت بكل عناية .. حتى لا تُلقى ظلالاً على العلاقات الفرنسية المصرية ..

(١٠)
كل أسماك النيـــل

بصفة عامة، كان العلماء والفنانون يُقدرون "كليبر"، بالرغم من أنهم كانوا يلومونه لأنه لم يتمكن ــ أو لم يرغب بـــالأحرى ــ فـــى إرجاعهم إلى الوطن. أما بالنسبة لخليفته "مينو" فهذا موضوع آخـــر. فعلى ما يبدو، أن هذا الرجل الذى ناهز العقد الخامس مـــن عمـــره، المتكرش البطن، الذى اعتنق الإسلام، انتهازًا للفـــرص الـــسياسية؛ وأيضًا، لكى يتزوج من مُسلمة .. لم يكن يحظى بأية شعبية، ســـواء فى الجيش أو بالمعهد. كما أنه عُرف بلقب "عبد الله" المرتد. خاصة، عندما تفتق ذهن هذا القائد الأعلى عن هذه الفكرة الغريبـــة الـــشأن: أضفى على وليده نفس اسم قاتل "كليبر".... "سليمان"!!

لم يكن "جاك عبد الله مينو" زعيمًا عسكريًا بارعًا؛ بل وسرعان ما أكد ذلك فعلاً. ولكنه، بالأحرى كان إداريًا كفئًا. خاصة أنه تميـــز بمقدرته على إعداد مشروع سياسى متماسك. ففى حين كان "كليبـــر" يرغب فى إرجاع جيش الحملة إلى فرنسا، وممارسة صراعه علـــى الجبهة الأوروبية .. فإن خليفته قد استدار نحو "الشرق". فقد كانـــت مصر بالنسبة له بمثابة مستعمرة فرنسية .. ومن ثَم يجب تنظيمها.

فى الخامس من سبتمبر عام ١٨٠٠، من خلال جدول أعمـال، ها هو الجنرال يُزمع تنظيم سلوك جنوده؛ فيقول: "أيها الجنود، تعلموا أن تكونوا كرماء مع المصريين. ولكن، ماذا عساى أن أقول؟!.. إن المصريين اليوم هم بمثابة فرنسيين. إنهم إخوانكم ..". وحقيقة، لـم يصل الأمر إلى اعتبارهم متساوين بالفرنسيين. ولكن، الأمر يقتضى إخضاعهم لقوانين "الجمهورية". وهكذا، نجد أن "جوزيـف فورييـه" السكرتير الدائم بالمعهد قد تولى منصب الحاكم القـضائى لمـصر. وترتكز مهمته على تطبيق قانون جديد مـن الإجـراءات المدنيـة والتحقيق الجنائى.

وحقيقة أن "فورييه" كان مقربًا جدًا من "كليبر" ولكنه، مع ذلك، ظل يشغل فى القاهرة دائمًا مركزًا رفيع المستوى. فبعـد أن كـان "مينو" قد عينه مندوبًا فرنسيًا فى هيئة "الديوان" الجديد، أسـند إليـه أيضًا مشروعًا خاصًا بجريدة باللغة العربية: إنها جريـدة "التنبيـه"، والهدف من ورائها: "أن تنشر فى كافة أنحاء مصر معرفة أعمـال الحكومة الفرنسية وإنجازاتها. وكذلك، أن تنبه الأهالى ضد الظنـون والآراء المسبقة والبلبلة .. التى قد يعمل البعض على الإيحـاء بهـا إليهم. وأخيرًا، للحفاظ على الثقة والاتحاد، التى تتدعم وتقوى أكثـر وأكثر بين هذه الشعوب والفرنسيين".

وقد أُزمع أن تحصل جريدة "التنبيه" على إجـازة طبـع مـن العلماء. وكذلك أن تُخصص عدة نسخ منها لتوزيعها علـى القوافـل المارة بالقاهرة. ولكن، يبدو أن هذه الجريدة ـ وكان من المُقدَّر لها أن تكون أولى الدوريات باللغة العربيـة ـ التى يتم نشرها .. لم تر النور أبدًا. وربما يرجع ذلك لضيق الوقت .. أم أن المشروع برُمَّته يتسم بالتعقُّد والغموض!!

وضمن المهام الدقيقة التى أُسندت إلى "فورييه" نجد أنه قد كُلف أيضًا بالإهابة بكبار موظفى الديوان لكى يكتبوا رسـالة لبونـابرت

ليهنئوه على تنصيبه فى منصب "القنصل الأول". ويُلاحظ أن "مينــو" الذى كان يميل دائمًا إلى التذلل أمام الرجل الجديد القوى فى باريس، قد أومأ قائلاً لعالم الرياضيات: "كلما كانت صيغ عبــارات الرســالة الموجهة من "الديوان" .. شرقية السمات، فإنها حتمًا ستبدو متفــردة ومتميزة، بل وحاذقة لاذعة فى فرنسا". عمومًا، لم يخب ظنه. فها هم كبار الموظفين المصريين يكتبون إلى بونابرت قائلين: "لقد تجليتم فى هذا البلد؛ وكأنكم وميض من الله. ولقد حمدنا الله وشكرناه على مــا حققتموه من نجاحات. وها نحن نقول لكم، لأن ذلك يُعد كأمر واقــع حقيقى: إن الأمتين، مصر والفرنسيين.. هما شعب واحد .. وها نحن نلتمس منكم ألا تنسوا أبدًا أن مصر .. هى بلدكم".

حينما كُلف العالم الفلكى "نوييه" بوضع سجل للمساحة، استُهلت أعمال ضخمة فى القاهرة. حيث تم بناء عدة مبانٍ وجــسور علــى القناة. كما شُق ميدان فسيح المدى، مرتفع غير غــرُوق فــى وقــت الفيضان: إنه يبدأ من الأزبكية وينتهى عند بولاق. وأيضًا، اســتمر توسيع الشوارع، لكى تسمح بمرور عربات النقل (وللجــيش لكــى يتدخل سريعًا فى حالات القلاقل والاضطرابات).

مشروع لتعمير المستعمرات

عمل "مينو" على تشجيع إقامة صناعات جديدة. وكذلك، إدخال مزروعات حديثة فى مصر: سواء "أهلية أصلية" مثل قصب الــسكر والقطن؛ أو فرنسية على غرار البطاطس ونبات الجنجل. وفى عــام ١٨٠٠، بعث إلى بونابرت عدة أقمشة وملاءات أسِرَّة ومائة قالــب سكر. "حتى يمكن أن تُرى فى فرنسا عيِّنة لمــا يمكــن أن تنتجــه مصر". وفى الخامس من فبراير التالى، وضع عالم النباتات "رافينو دوليل" فوق مكتب المعهد الكثير من ثمار البطاطس المزروعة فــى مصر .. حيث بلغ وزن أضخمها حجمًا: ٢١٥ جرامًا!!

عملت المصادفة البحتة على مساعدة القائد الأعلى. فعلـى مـا يبدو، أن الإنجليز قد اضطُروا إلى فك حصارهم البحرى. وبالتـالى، بدأت بعض السفن الفرنسية تتجه إلى مصر: وكانت محملة بالبضائع. بل وعلى متنها أيضًا الكثير من التجار والصناع .. الذين يرغبـون فى الإقامة بأرض وادى النيل. وهكذا، ففى كل يـوم، كانـت تنـشأ بالقاهرة العديد من معامل الجعَة، والدكاكين، والصناعات الـصغيرة المتعلقة بالقبعات، والجالونات والجعة أو الشموع.

بداخل المقهى الكبير "الجيش المنتـصر" القـائم فـى ميـدان الأزبكية، كانت تُقام عدة حفلات راقصة؛ وموسيقية. وأيـضًا، كـان جمهور أكثر تميزًا، يمكنه أن يستمع، بمقر القائد الأعلى، إلى بعض المقطوعات الموسيقية (عزف موسيقىّ منفرد لـ"رجيل"، على نغمات البيانو "جيرأرد" الذى استُورد من فرنسا على ظهر السفينة "أورينت" (المشرق).

فى الحادى والثلاثين من ديسمبر عام ١٨٠٠، افتُتحـت قاعـة مسرحية جديدة، تضم خمسمائة مقعد بالمنطقة المجاورة. حيث لوحظ للمرة الأولى، أن الأدوار النسائية.. لم يؤدّها الرجال. ولذا، ها هـو "أنطوان جالان"، المصحح بالمطبعة القومية، الذى لا يفوتـه شـىء بنظرته الثاقبة يقول: "ها هو الجنس اللطيف قد قبل أخيرًا أن يظهـر على خشبة المسرح. وبذا، فإن الجمهور، شاكرًا ممتنًا قـد اسـتقبله بالتصفيق والتهليل الجدير به". وضمن الأتراك، يُرى بعـض كبـار شخصيات البلد، والكثير من المسيحيين الشرقيين، وعدد قليل جدًا من زوجاتهن، وبعض الزنـوج والزنجيـات، وعـدة نـساء جمـيلات جيورجيونيات من المرتبطات بجنرالاتنا، وقـد جلـسن فـى لـوج (مقصورة) مجابه لمقصورتهم؛ وكذلك عدد من نـسائنا الفرنـسيات ومعظمهن أقل جمالاً وفتنة، ولكن، عامة أكثر رقة ونعومة وسحرًا، كُنَّ يكوِّنَّ مع سيدات أوروبيات أخريات، ومجموعـة كبيـرة مـن

الفرنسيين .. هذا التجمع البديع الذى كان يتم مـرة أو مـرتين كـل عشرة أيام".

وفى هذا المسرح، كانت تُؤدَّى مسرحية "الخصوم المتـداعون" لـ"راسين" وعدة كوميديات؛ وأوبرات أعدها عضوان من لجنة العلوم والفنون، "بلزاك" و"ريجل". إن العلماء لم يستهجنوا أو يحقروا هـذا النمط من اللهو والتسلية. وهكذا، فقد ذكر "فلييـه دى تيـراج"، فـى يومياته بتاريخ الثالث والعشرين من فبراير عـام ١٨٠١: "ارتـأى المجلس أن يعقد، فى يوم محدد .. جلسة كوميدية ..".

اصطحب عدد قليل من الضباط زوجاتهم إلى مصر. فها هـى الجنرالة "فيرديبه" الإيطالية الجنسية، النزقة المتوقدة حمية وحماسًـا، قد أشاعت البهجة والسرور فى أجواء سكان المستعمرة. وكانت من قبل قد تميزت وتألقت خلال معركة سوريا. فإنها كانت تُرى غالبًـا وقد انكبت على رعاية الجرحى، بل وأحيانًا تعيرهم جوادهـا. كمـا يُلاحظ أن عددًا من العسكريين كانوا يعيشون مع محظيات وعشيقات مصريات. كما تزوج أيضًا بعـض العلمـاء والفنـانين. فنجـد أن "جاكوبان"، رئيس المهندسين الجغرافيين؛ قد اقترن بابنة أحد التجـار الأوروبيين فى القاهرة. أما عن الشاب "ديبوا إيميه" فقد حصل علـى جارية تُدعى "عَيُوشَة". ورئيسه "جيرار" المثير لبغـضاء وكراهيـة رئيس مهندسى الطرق والكبارى، فقد اشترى امرأة قوقازيـة بمبلـغ ٣٨٠٠ جنيه. وكان البعض الآخر يجدون سعادتهم فـى العلاقـات الشاذة (المِثْلِيَّة): فكان المترجم المدعو "ريج" يتلقى قصائد غزل مـن أحد الكتبة المصريين بالديوان .. إسماعيل الخشاب!!

باعتباره داعية الاستعمار، كان الجنرال "عبد الله مينو" ينظـر بعين الرضا إلى مختلف هذه الأساليب للتوطد والتأقلم فـى مـصر، وللتسجيل فى "الديكور"! بل واضطُر أن يشجع على التسرية والتسلية .. التى قد تساعد مواطنيه هؤلاء .. على نسيان الحنين إلى الوطن!

تُعد الأهرام بمثابة إحدى الرحلات المفضلة لدى الفرنسيين فى القاهرة. فعندما يغمر الفيضان الأراضى، بداية من أغـسطس حتــى ديسمبر، فمن الممكن أن ينطلق المرء على ظهر مركب مــن أمــام منزله، عند أطراف الأزبكية؛ ويبحر نحو الجيزة. وها هو "جايانــد" يسرد تفاصيل إحدى هذه النزهــات الــصغيرة الــساحرة، بــصحبة الجنرال "جالبو" والمدير العام للـشئون الماليــة المــدعو "ســتيف"، وسيدتين. وعادة، يتم الإبحار فى الصباح الباكر، للوصول فى الساعة الحادية عشرة على مقربة من "خوفو". وتُــرى، عندئــذ، مجموعــة صغيرة صامتة من الأفراد، وقد انهمكوا فى تـسلق تلــك الأحجــار الضخمة .. التى تتطلب الاستعانة باليدين والقدمين على حد ســواء. كما كتب قائلاً: "لقد أراد بعض المجانين أن يدفعوا جيــادهم أيــضًا للارتقاء .. ولكن، الجياد، كانت أكثر تعقــلاً .. ورفــضت ذلــك!". وكذلك، فإن السيدات بمجموعة "جالاند" لم يوافقن على التسلق؛ حيث قيل: "إن الضرورة كانت تلزم ارتداء ملابس الرجال". أما بالنــسبة "للجنرالة" "فيرديبيه" وأربع صديقات، فلم يبــدين أى تــردد. وعنــد وصولهن إلى القمة بمصاحبة مرافقيهن .. أخــذن يتــأملن المنظــر الطبيعى، ويحفرن أسماءهن على الحجر؛ وتناولن فطورهن بمــرح وسرور فوق المصطبة، انتظارًا لاحتساء القهوة التى سـيُعدها لهــن الزُنْجى الصغير التابع لهن ..

ولتدعيم مشروعه الاستعمارى وتقويته، اعتمد القائــد الأعلــى على مُناصير ومؤيد فعال يُدعى "تيودور دى لاسكاريس". وهو فارس سابق "بوحدة مالطة". ثم أصبح عضوًا بلجنة العلوم والفنون. ولقــد اقترح هذا المتحمس للغاية، إنشاء عاصمة جديدة، يُطلق عليها اســم: "مينوبولس"؛ تعبر عن الانصهار ما بين الشرق والغرب. ولقد تقرر أن تكون مثلثة الشكل؛ تربطها عدة قنوات بالطرق التجارية الكبــرى فى العالم. وكذلك، أُزمع أن يكون موقعها عند أطراف الدلتا؛ حيث

يلزم الأمر أيضًا بناء سد (لم يتحقق مشروع هذه المدينة أبدًا. ولكن، فيما بعد، فإن فكرة إقامة السد، قد استعارها وحققها، بعد عشرات السنين، الحكام المصريون).

اعتقد "لاسكاريس" أن مصر لم تنضج بعد، من أجل استيعاب المبادئ الجمهورية. ولذا، نجد أنه، فى البداية، أخذ يُطنب وينادى بالعمل على توفير "نمط من التوازن ما بين مظاهر التعصب المتعارضة". حيث كان يؤازر المسيحيين الأقباط ويعضدهم .. ويرتبط بهم ارتباطًا وثيقًا. ولقد تمادى هذا الفارس السابق فى هذه "الفانتازيا" .. لدرجة أنه قد تخيل نوعًا من الجمهوريات المؤيدة لفرنسا فى منطقة مصر العليا: وحيث يرتبط عدة آلاف من الأقباط بالمماليك التابعين لمراد بك .. المنضمين لفرنسا!!.. وفى واقع الأمر، أن هوس أفكار "لاسكاريس" هذه؛ الذى كان يدير شئون هيئة الحقوق المكتسبة .. لم يعمل إلا على الترويج لأهداف أعداء "مينو"!!

كان القائد الأعلى منطقيًا ومعقولاً فى قرارة نفسه؛ ولذلك، فقد رغب فى تشغيل العديد من العمال المصريين فى صناعات جديدة خاصة بالأقمشة من أجل الجيش. ولكنه سرعان ما صُدم بالتجار الفرنسيين، الذين كانوا يرون: أنه ليس من اللازم مطلقًا؛ بل وخطر للغاية تلقين الأهالى المحليين وتعليمهم عدة تقنيات صناعية .. لا يعرفون عنها شيئًا!.. لا شك إذًا، أنهم قد قرءوا فى جريدة "أنباء مصر" هذه الملحوظة التى أبداها "ديزجينت" رئيس الأطباء قائلاً: "إن مجرد الانتباه البسيط لكل ما يحيط بنا، يوضح تمامًا أن المصريين يستفيدون من دروسنا. وإذا كنا قد لاحظنا أنهم متأخرون بحوالى عدة قرون .. فإن عقولهم المقلدة ومهارتهم قد جعلتهم يكسبون قرنًا كاملاً .. فى مدة عام فقط". وقطعًا، كان هناك الكثير من التقنيين المحليين الذين ينافسون الصناعة الفرنسية. بل إن "كونديه" الكريم الخيِّر، المكلف بتصنيع آلات صناعة الأقمشة هذه .. قد اعترض فى نهاية

الأمر على فكرة نقل التكنولوجيا هذه. وبذا، نجده يكتب لزوجته قائلاً: فى هذا المنشأ الجديد، "لن يُعين سوى الفرنسيين، حتى لا تُلقن الفنون أبدًا للأتراك". وربما أن ذلك قد قلل، إلى حد ما من ظاهرة الاهتمام الأكيد، منذ بداية الحملة، "بتمدين وتحضير" مصر: بإمدادها بالعلوم والفنون: الآتية من أوروبا..

عارض "تاليان" صراحة وجهرًا مشروع الاستعمار. فعلى حد قوله: أن فرنسا ليس لديها الوسائل للحفاظ على مصر. بل إنه وجَّه لومه وتأنيبه للقائد الأعلى، قائلاً إنه يتجاوز حدود مهامه. خاصة، وعلى سبيل المثال، عندما سَنَّ بعض القوانين المحلية عن حقوق الخلافة .. بدلاً من أن يترك قوانين العاصمة لتُطبق على الفرنسيين القائمين بوادى النيل. وهنا، تَملَّك الغضب من "مينو". وانتهى به الأمر إلى إبعاد هذا الشخص الاصطلاحى السابق. بل وطلب منه: أن يذهب بعيدًا بنفثاته النتنة المفسدة". وسافر "تاليان" إلى فرنسا فى نوفمبر عام ١٨٠٠.

قنـوط ويـأس

بخلاف من سبقوه، لم يُنتخب "مينو" فى معهد مصر. واعتبر ذلك بمثابة إهانة، عملت بالتالى على تعقيد العلاقات مع العلماء والفنانين. ومع ذلك، فإن هذا القائد الأعلى كان يولى أهمية قصوى للدور الذى كانوا يقومون به؛ ولذلك، أبدى تعضيدًا ومساندة للمشروع المتعلق بجمع كافة أعمالهم فى مؤلَّف ضخم. وهكذا، صرح قائلاً فى الخامس من فبراير عام ١٨٠١: "إذا كان التاريخ قد بين للأجيال القادمة المعارك والانتصارات التى أحرزها الجنود الفرنسيون فى مصر .. فلزامًا عليه أيضًا، أن يوضح لها .. أن هناك فرنسيين آخرين فاضلين وجديرين بالاحترام بفضل علمهم ومعارفهم، قد أسسوا فى الحين ذاته الحضارة وأمدوها بالعلوم العريقة القِدَم".

كان "مينو" يميل إلى جانب المصلحة العامة؛ ولقد دفعه ذلك للاعتراض على المشروع الأساسى. حيث يرتكز هذا الأخير على تكوين مجتمع من خلال أوجه النشاط. فإنه كان يرى أن مثل هذا العمل لا يجب أن يكون شخصى السمات. وبذاء، فها هو يكتب لبونابرت: "إن كافة هذه الأعمال، ترجع للجمهورية .. وهذه الأخيرة، هى الوحيدة الملزمة بالقيام بهذا العمل، وبمكافأة العلماء والفنانين مكافأة رائعة". ولا شك أن وجهة النظر هذه، كانت الراجحة، فى وقت انطلاق: "وصف مصر".

إن أكثر ما كان يفضله "مينو" .. هو أن يقوم بالإدارة. وهكذا، قام بإدارة أوجه نشاط العلماء والفنانين. كما كان يطالبهم، بأن يدونوا على الورق، تفصيليًا كل ما يلزمهم من مواد ومعدات. كما طُلب من المعهد أن يقدم بيانا بكل كتبه، ومخطوطاته وأدواته الفيزيائية والفنية: والهدف من ذلك، تكوين "مجموعة قومية". ومن المؤكد، أن هذا الاهتمام قد أعجب المعنيين .. إن لم يكن القائد الأعلى يريد أيضًا أن ينظم نمط عملهم وأوجه نشاطهم!!

كما رفض "مينو" أيضًا إجراء عدة تنقيبات جديدة فى منطقة مصر العليا. وأزمع، فى هذه المرة .. مدها حتى أراضى النوبة. ولا ريب أن "إعادة السلام لهذه المنطقة كان، مع ذلك، قد أصبح أمـرًا فعليًا .. منذ انضمام "مراد بك" إلى الفرنسيين. وها هو الجنرال، يوكل بالأحرى عدة مهام فردية لعدد من المهندسين فى مصر الوسطى وفى الدلتا. ولكن، لوحظ أن "بروسبير جولوا" الذى يتصف بالعناد، قد رفض التوجه إلى "منوف" .. مبينًا أن وجوده هناك سيكون عديم النفع. ولذا .. اعتُقل وراء القضبان بداخل القلعة. وردًا على التماسه، رد عليه "مينو" برسالة أبوية، حيث حدد قائلاً: "إنك إذا كنت ابنى .. لكانت العقوبة مضاعفة فى قوتها وشدتها .. بثلاث مرات، عن تلك التى أوقعها عليك الآن".

عندئذ، هب "قليبه دى تيراج" والكثيرون من الشباب معارضين جماعيًا أمام "مينو". وللإجابة عليهم اكتفى هذا الأخير بالإهابة بهـم: "بأن ينجزوا أعمالاً عظمى على غرار "القنصل الأول"، بدلاً مـن أن ينكبُّوا على تدبير دسائس ضئيلة، يتصف بها بالأحرى مرتادو بيوت البغاء.. وليس ذكور فخورون جمهوريون". ومع ذلك، لـم يستـسلم المعنيون، فردوا عليه بكل علياء وترفُع: "إن الاعتياد على تجميعنـا معًا فى إطار مضمون سطحى جدًا .. ربما لم يسمح لك بأن تـرى فينا، سوى مجموعة من الشباب الصاخب المشاكس. ومع ذلك، فـإن معظمنا قد بلغ السن، التى قد تسمح له، فى نطاق مهنة أخـرى، أن يقوم بكل تميز وجدارة، بأكثر الأعمال أهمية".

ربما أن ذاك البرهان قد يدعو إلى الابتسام. وهـا هـو أكبـر المعارضين سنًا، وقد ناهز الرابعة والعشرين من عمره .. "قليبه دى تيراج" ومعه رفقاؤه يُبْدون ملاحظتهم هذه: بأن البعثات الفردية لـن تكون ذات فاعلية. واقترحوا: بعثهم فى مجموعات تتكون من ثلاثـة أفراد أو أربعة، إلى أحد الأقاليم، ومعهم حراسة. وهذا ما تم، إلى حد ما، فيما بعد .. ولكن لم يثمر ذلك نتـائج مهمـة. لأن الأحاسـيس والمشاعر كانت قد تلاشت. وبذا، نجد أن خطابات "قليبه" إلى أسرته تعبر عن: الملل، والشعور بأنه عديم النفع، والرغبة العارمة المعذبة فى الرجوع إلى فرنسا. ولم يكن المهندس الـشاب؛ علـى يقـين أن رسائله كانت تصل للمُرسَل إليه. فإن الإنجليز كانوا يحتجزون جزءًا من البريد (بل ويقومون بنشره لأغراض الدعاية) أما الخطابات التى قد تفلح فى الإفلات منهم .. فغالبًا لا يمكن قراءتها .. بعد أن تكـون قد غُمست فى الخل فى مارسيليا، لدواعٍ صحية !

فيما بعد، أخذ "قليبه" يتذكر: "كنا محبطين، يائسين. فما الفائـدة فى القتال الدائم من أجل أن نثرى، رغمًا عنهم، وضـد لامبـالاتهم وعدم اهتمامهم، فلاحين أغبياء وروتينيين نـسقيين؟!.. لقـد فقـدنا

الرجال، الذين كانوا، من خلال مناصبهم يوفرون لنا الحماية، مثل: بونابرت، ومونج، وبرتوليه .. الذين رجعوا إلى فرنسا. أما عن "كافاريللى"، و"كليبر" .. فقد تُوفِّيا. كما أن الكثيرين من العسكريين يصفوننا بأننا أفواه لا لزوم لها. بل إن البعض كانول يعتقدون اعتقادًا دائمًا .. أن الحملة قد قامت .. "من أجل العلماء". وأخيرًا، فإن جميع الجنود كانوا على يقين بأن حقائبنا الثقيلة الخاصة بالآثار، التى نحرسها حراسة دقيقة .. مملوءة بالكنوز".

"جيوفرى"، الذى لا يتعب أبدًا

"جيوفرى سان هيلير" من ناحيته، انتابته حال من الإعياء واليأس والقنوط. ولقد كان، منذ سنتين، يشعر بالانبهار والافتتان إزاء أحوال العمل بالمعهد؛ بل ويُهيأ له أنه "بداخل مأوى متأجج بالضياء والنور". ولكنه، الآن، يتوسل لصديقه "كوفيه" الذى بقى فى باريس .. أن يساعده على مغادرة مصر. وها هى الآن رسائله، تبدو وكأنها فقرات نحيب وتأوه!!

ربما لا يستطيع المرء أن يلوم "جيوفرى" لأنه أضاع وقته، حتى هذا الحين فى أرض وادى النيل. إنه عالِم حيوانات بارع ماهر. وأخذ يتصل بمعظم صيادى السمك، والصائدين، والحواة. بل لقد قام بشق الطرق ونقَّب فى الكثير من الكهوف. وهكذا، جمع عددًا هائلاً من الحيوانات، ولديه منها أنواع نادرة؛ مثل: الوشق المُحتزّ بحزمة سوداء الذى ذكره "بروس"؛ أو نمس ذى ذيل طويل كثيف الشعر: كان اليونانيون يسمونه (إخنيومون). ولقد ركز اهتمامه خاصة على الحيوانات الثديية الصغيرة غير المعروفة فى أوروبا. وعبر تجولاته، اكتشف نوعًا جديدًا من الأرانب البرية، والثعالب، والقنافذ، وأربع فصائل من الفئران، وعشرًا من الخفافيش (إنه يفوق بذلك "دوبنتون"

أستاذه الذى لم يعثر منها إلا على خمسة أنواع على امتـــداد مهنتـــه كلها!).

وحقيقة أن "جيوفرى" يملك كافة فصائل ثعابين مصر؛ ولكن، لا شك أن مجموعته السمكية، هى التى تجذب الانتباه. إنـــه، بمـــساعدة صائدى السمك المحليين، قد نجح فى الحصول على أسماك عجيبـــة وغريبة الشأن: من البحر المتوسط والبحر الأحمر. وغالبًا، تبدو هذه الأسماك متماثلة ومتطابقة: ربما قد تدعو إلى الاعتقاد، بـــأن هـــذين البحرين، كانا فى الماضى البعيد .. مجرد بحـــر واحـــد فحـــسب!!. وخلاف ذلك، تمكن "جيوفرى" فيما بعد من جمع كافة فصائل أسماك النيل. وضمنها، يُرى نوعان مذهلان حقًا، هما: "الجرجور" و"الفهاقة" ويُلاحظ أن أولهما، تبدو أعضاؤه رائعة مذهلة. إنها تجمع، فـــى آنٍ واحدٍ بين مميزات الحيوانات رباعيات الأقدام، وبين تغيـــر مـــستوى الماء !!.. أما عن النوع الثانى فإنه بمثابة استحداث حيوانى فعلى .. ربما قد يبرر فى حد ذاته السفر إلى مصر. فإن هذه السمكة تتراءى استثنائية وغير عادية تمامًا. سواء لحراشيفها العظمية الصلبة، وكذلك للأسلوب الذى تفتح به خياشيمها إلى الخـــارج !.. وأيـــضًا، لـــنمط الأذرع التى تستند وتدعم زعانفها الصدرية!!.. وكأنها أطراف إحدى الثدييات !.. ولقد سمحت سمكة الشنم لجيوفرى بأن يحدد أبحاثه فى مجال علم التشريح .. بل وأن يقوم فيما بعد بنـــشر كتابـــه الـــشهير المعنون بـــ "الفلسفة التشريحية".

وقد حُفظت كافة هذه الحيوانات فى بعض السوائل الكحوليـــة، لكى يسمح ذلك بدراسة جلدها الخارجى؛ بل وكذلك أجزائها الرخـــوة وهيكلها العظمى. فها هى، باختصار .. مجموعة ثلاثية.

توازيًا مع المومياوات البشرية، كان "جيوفرى" يولى اهتمامـــه للحيوانات المقدسة: التى حاول المصريون القدماء أن يضفوا عليهـــا الأبدية. ومنها: الثور، والقط، والتمساح، وطائر الإبيس. ومن خلال

تنقيبه فى بعض كهوف مصر العليا أو سقارة، اكتشف عـدة أمـاكن خاصة بالحيوانات .. المكتملة تقريبًا. وهنا، بلغ تأثره مداه !.. فنجده يقول: "عند دخولى إلى المقابر الخاصة بالتماسيح فى طيبة؛ وجـدتها جميعًا، كما كانت قد رُصت أصلاً: فها هنا إذًا عدة تماسـيح معبـأة ومربوطة .. بدون أن ينالها أى تلف أو عطب .. فإن هـذه البقايـا المبجلة قد مرت من أيدى الذين استودعوها هنا .. إلى يدى. وذلـك، بدون أن يشوب أو يعترض حدث ما، هذا الارتباط المتوالى!.. ففـى واقع الأمر، أن الحركتين قد تتابعتا فى أثر بعضهما البعض . بدون أى اعتراض آخر .. سوى ليلة مداها ثلاثون قرنًا من الزمان، مرت ما بين الحركة الأولى .. والأخرى".

إذًا، والحال هكذا، فعلى ما يبدو، أن "جيـوفرى" لـم "يـسرق" الجمهورية، وهو على ضفاف النيل. وبالتالى، فمن حقه أن يطالـب بعودته إلى وطنه. وبذا، ففى التاسع من نوفمبر عام ١٨٠٠، كتـب لـ"كوفييه" ليخبره بأنه قد أُصيب، على التوالى، بأربعة التهابات فى عينيه. وصار كفيفًا تمامًا، خلال شهر كامل. وما زالـت حتـى ذاك الحين القراءة ممنوعة عليه. وبالإضافة لذلك، فإن معدته لا تـستطيع هضم الأغذية الصلبة. كما حذره الأطباء، إنه لا أمل فى شفائه .. فى مصر. وبعد أن صدَّر شكواه بهذه الاعتبارات الشخـصية، أضـاف إليها غيرها، ذات سمات علمية. فقال: "يجدر بى الرجوع من أجـل شغل وظيفتى بمتحف التاريخ الطبيعى. أما هنا، فى مصر فلا نفع لى تمامًا. حيث إننى قد أنجزت غرضى. وها أنا قد أثريت بالمجموعات والملحوظات العديدة. كما أن أقلمتى أكثر من ذلك فى هذا البلد، لـن تعود عليكم بأى شىء. فإن مجموعاتى سوف تُدمر تمامًا. فها أنا قد فقدت كل جلودى المُصبَّرة: فعند استهلالى لمشروع عودتى؛ وضعت متعلقاتى فى قاع عنبر المركب؛ وبقيت به طوال أربعة أشهر كاملـة .. على أمل السفر فى اليوم التالى!.. ولم يتبقَّ لـى سـوى حقيبـة

المومياوات، وبراميل مياه الحياة .. وعلى ما يبدو، أن مـــاء الحيـــاة هذا، الذى تُحفظ به بعض الحيوانات، يتبخر سريعًا جدًا. ويلزم الأمر زيادته بتكلفة مائة فرنك شهريًا. وفى النهاية، اختُتمت الرسالة بهـــذا التوسل: "أيا عزيزى كوفيه، أرجوك، ابذل كل جهودك.. لإخراجـــى من هذا البلد".

مع ذلك، فإن "جيوفرى سان هيلير" لم يتوقف أبدًا، فى الأسابيع التالية عن تكذيب هذه العبارات اليائسة .. من خلال أوجـــه نـــشاط مدهشة!! فإن المراسلات التى بعث بها إلى معهد مصر، خلال شتاء ١٨٠٠/١٨٠١، كانت ضخمة وهائلة، ســـواء بالنـــسبة لعـــددها أو لتنوعها. ففى تاريخ السابع من نوفمبر، قدم "عرضًا لعدة تجارب من أجل التوصل للدليل الذى يثبت وجود تعايش الجنسين فى نُطف كافة الحيوانات". وفى الثانى والعشرين مـــن نـــوفمبر، عـــالج بإســـهاب موضوع تكوين البيضة. وفى السابع مـــن ديـــسمبر: عـــن أوتـــار العضلات. وفى السادس من يناير، تحدث عن أجهزة التنفس. ونرى، أن عالم الحيوانات هذا، قد انتقل إلى أمر مغاير تمامًـــا فـــى جلـــسة الرابع والعشرين من يناير؛ من خلال تقرير قدمه عن المقـــابر فـــى منف القديمة. ثم عاد ثانيةً إلى العصور الغابرة، بتاريخ الخامس من فبراير، لكى يتناول موضوع حيوانات النيل التـــى عرفهـــا قـــدماء المصريين. أما فى الثانى والعشرين من مارس، أى موعد آخر جلسة للمعهد، فقد قدم لزملائه تقريرًا مفصلاً .. عن تمساح النيل. نجد إذًا، أن "جيوفرى سان هيلير"، ربما قد استحق أكثر من غيره، حتى نهاية إقامته فى مصر .. لقب "عالم".

(١١)
بوساطة مطمار(*) مسَّاح الأراضى

عند نزولهم من السفينة فى بلد الفراعنة، كان الضباط والعلماء يحوزون على خريطة عجيبة وغريبة الشأن عن مصر. وكان قد وضعها "جان بابتست بورجونيو" من "آنفيل": ولم يكن قد وضع قدميه أبدًا فى أرض وادى النيل! وفى واقع الأمر، أن هذا الجغرافى، من حجرة مكتبه، لم يكن يعرف حتى بلده الأصلى. وعلى ما يُعتقد أنه لم يقم إلا برحلة واحدة .. من باريس إلى سواسون .. ومع ذلك، فقد توصل إلى إعطاء رؤية أمينة إلى حد ما عن مصر؛ وذلك من خلال ما جمعه .. من كافة المصادر القائمة.

تُرى، هل كان من الممكن الوثوق فى مثل هذه الخريطة التى نُشرت فى عام ١٧٧٦؟!.. خاصة أنها كانت تخلط ما بين المعلومات التى قدمها رحالة العصور القديمة، والعصور الوسطى، والعصر الحديث؟!.. على أية حال، فإن المواقع التى حُددت فوق تلك الوثيقة لم تكن كثيرة. كما أن المقياس كان صغيرًا للغاية .. لدرجة لا تسمح بإرشاد جيش أثناء زحفه.

(*) مطمار: قياس من عشرة أمتار.

ولذا، كان من أول أهداف الحملة الفرنسية: وضع خريطة جديدة. وفور وصولهم، وجد المهندسون الجغرافيون والمدنيون والعسكريون أهلياتهم وإمكاناتهم من أجل وضع رسم هندسى للإسكندرية. وعملوا ذلك أيضًا بالنسبة للقاهرة. حيث قاموا، بعملية مسح لا نهائية لهذه العاصمة ــ المتسعة .. ذات الستين حيًا .. التى اضطُرت، فى نهاية الأمر، أن تكشف عن سرها ..

ها هنا صعوبة ضخمة!!.. فإن الضرورة تحتِّم التجول فى بلد معظمه أراضٍ صحراوية. بل حيث لا يستتب الأمن والأمان دائمًا. ومع ذلك، فإن حوالى ثلثى الأراضى سوف يتم رسم مخطط لها، بوساطة آلة المسح، ومقياس المساحة، وأيضًا إن لم يتوافر الأفضل، بالخطوة والبوصة. ونرى الشاب "قلبيه دى تيراج" يسرد، من خلال مذكراته الشخصية: الأسلوب البدائى الذى بيَّن بوساطته الطريق البادئ من القاهرة حتى السويس، عن طريق "وادى التِّيه". وذلك، بتتبُّعه لمسيرة إحدى القوافل؛ فيقول: "كنت أتبين الزوايا بوساطة البوصلة. كما كنت أقيس المسافات من خلال الوقت الذى تقطعه الجمال ما بين محطتين. حقًا، إن خطوة الجمل تتسم بتناسق وانتظام كامل. بل إنه بمثابة بندول حيوانى فعلى !!..".

وهكذا، تحت قيادة "بيير جاكوتين" المهندس الجغرافى، أخذ سبعة وثلاثون ضابطًا وعالمًا يجوبون ويتفحصون سريعًا كافة أنحاء مصر وجنباتها. وكانوا يُجْرون حساباتهم وفقًا للأماكن. ولكن، النتائج كان يجب ترجمتها إلى أمتار .. فى تقاريرهم. خاصة أن النظام المترى، كان قد استُهل تطبيقه وقتئذ فى فرنسا. ولقد لقوا مساعدة قيِّمة من جانب العالم الفلكى "نوييــه". خاصة، أنــه بخلاف بعض العلماء الآخرين .. قد واتاه الحظ، ولم يفقد أدواته ومعداته عند غرق السفينة "باتريوت"؛ أو من خلال سلب ونهب بيت "كافاريللى"!.. وكان عميد "المعهد" يملك دائرة مضاعفة للأعداد: ماركة "بوردا"، وساعة

بحرية: "برتود"، ونظارة (أكروماتيك): دوللوند. وعمل على تحديد خطوط الطول، من خلال مراقبته لخسوف أجرام كوكب المُشترِى.

من جانبهم، ولعدم تــوافر المعدات ذات الحد المدبب جدًا، التى لا تستطيع ورش "كونتيه" تصنيعها، اضطُر المهندسون الجغرافيون أن يلجؤوا إلى بعض الحيَل. ووفقًا لقول "جاكوتين" الذى كان يرى أن الأمر أفضل هكذا: فإن الوسائل المبسطة، تتطابق وتتواءم تمامًا مع مصر .. هذا البلد المسطح الأراضى قليل التشجر.

من خلال استفتاء فائق التفصيل، طُلب من المهندسين الجغرافيين أن يبينوا اسم كل منطقة باللغة الفرنسية والعربية، وأيضًا عدد سكانها وعائلاتها، وأوجــه نشاطهم؛ وأنواع النباتــات المزروعــة، وطرق المواصلات البريــة، والبحريــة الصالحة للملاحــة؛ وحال القنوات وحوافها، والقبائل البدو الرحالة فى أطراف المدينة وجوانبها، وأماكن مضرب خيامهم، وعدد جمالهم وجيادهم .. وألا تُنسى أيضًا كافة النُصُب والمنشآت والأشياء النادرة القيمة. فلا ريب إذًا أن الاهتمام بالأطلال أو بالنظم المائيــة التى ترجع إلى القرون الغابــرة، يوضح فعلاً: أن الأمر لا يــتعلق بمجرد الهيمنــة على المنطقــة جمعاء، لأغراض عسكرية أو اقتصادية .. فحسب. بل بالأحرى، إلى محاولة اقتراب إجمالى من المجال كله ..

لا شك أن هذا العمل الهائل، كان سابقًا لعصره. بل إنه يجسد مسبقًا فن رسم الخرائط الموضوعى .. الذى تأسس واستتب بفرنسا خلال القرن التاسع عشر. ولقد استتبع، ضمن الكثير غيره خريطة ذات مقياس رسم: (١/١٠٠٠٠٠)؛ فائقة الدقة؛ لدرجة أن نشرها قد مُنع حتى عام ١٨١٤.. للدواعى الأمنيــة العسكريــة! وهكذا، فإن الخريطــة التى وضعها "م. دانفيل"، هى التى كُرمت بنشرها فى الطبعة الأولى من كتاب: "وصف مصر".

مع ذلك، فإن إنجاز علماء بونابرت قد تداعى، إلى حد ما، بعد نشره بحوالى ربع قرن: فإن "جاكوتين" ومعاونيه، لم يتوقعوا أن يقوم "محمد على" المسيطر الجديد على مصر، بأعمال طموحة ضخمة من أجل تنظيم الأراضى .. تعمل على تغيير الشبكة المائية. وكذلك، كانت الضرورة تقتضى إعادة تصميم خريطة الإسكندرية لأن هذه المدينة قد قُدر لها أن تكون قلعة حصينة؛ ثم بعد ذلك: موقعًا تجاريًا مهمًا. حيث ازداد عدد سكانها، فى الفترة القائمة ما بين (١٨٠٠ ـ ١٨٤٠). ولكن، عوضًا عن ذلك، فإن خارطة القاهرة ـ أطلس رائع، يتكون من ٨٠ لوحة، يصاحبها أكثر من ٢٥٠٠ تفسير وتوضيح ـ قد بقيت كما هى، بمثابة أداة ضرورية على مدى القرن التاسع عشر كله.

قيـــاس الأهـــرام

تُرى، هل كان العلماء والفنانون يستطيعون أن يتجاهلوا الأهرام .. التى تسحر الأوروبيين وتثير اهتمامهم؟!.. ونجد، أن هذه النُّصُب الثلاثـــة المذهلـــة، مع قدوم الحملـــة الفرنسيـــة، قد غيرت حالها .. وأصبحت هدفًا علميًا. فلم يعد أحد يبحث مطلقًا عن الكنوز، على غرار ما كان يفعله بعض العلماء وتجار العاديات، أو الفضوليون. بل بالأحرى، تركز الاهتمام فى قياس أبعادها، وتفهُّم الطريقة، التى أمكن من خلالها تشييدها؛ ووظائفها ومهامها. بل لقد وصل الأمر إلى هدم أحد الأهرام الصغيرة التى تحيط بهرم "منكاورع"، على هضبة الجيزة!!.. فها هنا قطعًا عملية جراحية، تهدف كما بين المهندس "كوتيل" إلى التعرف على ما يلى: "كيف عساها وُضعت فى سراديب الدفن، تلك المتعلقات الأثرية، والأوانى التى يُعثر عليها مبعثرة هنا وهناك .. أو التى يحضرها لنا العرب؟!".

• قبل مجيء "الحملة" تمت عدة محاولات، من جانب الكثير من الرحالة الأوروبيين؛ من أجل قياس أبعاد هرم "خوفو". ولكن، بدت الأرقام غير متطابقة. وعملت العديد من العناصر على إعاقة الحساب أو تحريفه: فإن قاعدة هذا النصب قد أُتخمت بالرمال. أما زواياه، فهى متآكلة. وعن كسوته .. فقد تلاشت!

أُزمع الالتجاء، على التوالى إلى تطبيق عدة سُبل من جانب علماء بونابرت. وقد لجأ المهندسان "جومار" و"سيسيل" إلى اختيار أكثرها بساطة: أن يتم قياس درجة فى إثر درجة. واستهلوا عملهم هذا من السطح العلوى الذى تبلغ مساحته ١٠٠ متر مربع؛ حيث إنه قد حل مكان القمة المدببة. وعند هبوطهم، أحصوا ٢٠٣ درجات؛ حتى القاعدة. وفوق كل كتلة حجرية، وضعوا مسطرة فى وضع أفقى تمامًا؛ تم فحصها بوساطة مستوى الماء. وفى الحين ذاته، ثُبتت مسطرة أخرى بوضع رأسى، بوساطة ميزان البناء. ومن خلال طرحهما لدرجات القمة الناقصة .. توصل "جومار" و"سيسيل" إلى تحديد الارتفاع بمقدار ١٣٧,٢١٨ مترًا.

أما العالم الفلكى "نويه"، فقد طبق أسلوبًا أكثر براعة، حيث اختار قطعتين محددتين فوق الأرض، وقام بقياس المسافة التى تفصل فيما بينهما، والزاوية التى تُرى من خلالها قمة الهرم .. فى كل من النقطتين. ثم، بعد ذلك، طبق إحدى الوسائل المثلثاتية؛ التى أعطته: ١٣٦,٩٥ متر.

تُرى، هل يقل الضغط الجوى مع الارتفاع؟!.. ها هو "كونتيه" بدوره حاملاً لجهاز بارومتر.. يتقدم نحو "خوفو"؛ ولكن هذا البارومتر، مميز وخاص؛ ومن اختراعه. إنه عبارة عن أنبوبة معدنية، يصل ارتفاعها إلى متر طولاً. وتحوى كمية من الزئبق: لا يُوجه الاهتمام من خلالها إلى مستوى هذا السائل. بل بالأحرى إلى الوزن الذى يُصرف عندما تُقلب الأنبوبة. وهكذا، توصل "كونتيه"

إلى النتيجة ذاتها التى حققها "نويه" . مع فرق حوالى بضعة سنتيمترات. وبعد مُضى ما يقرب من حوالى قرنين، كانت هذه المقاييس لا تزال سارية.

الهرم الأكبر: يبلغ طول كل جانب من جوانبه ٢٣٠ مترًا. أما حجمه، فيصل إلى ٣,٢ مليون متر مكعب. ومن خلال عملية حسابية، تبين أن الأحجار التى يتكون منها، تسمح بإحاطة فرنسا بجدار، يبلغ ارتفاعه مترين، وسمكه ٣٠ سنتيمترًا. ولكن، لم يكن اهتمام "نويه" موجهًا خاصة إلى تلك الأرقام، بل بالأحرى إلى عدة اعتبارات فلكية .. فعند بناء هذا النصب، كانت زواياه الأربع موجهة نحو الجهات الأصلية الأربع .. تُرى، هل عساها بقيت دائمًا على ما هى عليــه؟!.. الإجابــة: نعم. فإن أقطاب الأرض لم تتحرك منذ العصور الغابرة .. عكس ما كان يؤكده البعض. ورغمًا عن ذلك، كان "نويه" يعتقد، أن قدماء المصريين قد أخطؤوا بمقدار (١/٣) ثلث درجة فيما يتعلق بالاتجاه. وقطعًا، لا يُعتبر ذلك ذا أهمية تُذكر؛ بل يمكن التغاضى عنــه .. إذا وُضع فى الاعتبــار المعدات والأدوات المهيأة لهم.

من أجل دراسة مواقع الجيزة، ومنف، وسقارة، أُعدت ونُظمت فى فبراير عام ١٨٠١ ساحة تنقيبات بكل معنى الكلمة. بل إنها الأولى من نوعها. وكان يديرها المهندس "كوتيل" والمعمارى "لوبير" .. والأمر يتعلق إذًا بدراسة متعددة الاختصاصات: تحت حماية وحراسة مائة جندى. وبمساعدة حوالى مائة وخمسين عاملاً مصريًا. وفى حين كان الرسامون والمزخرفون يقومون بعملهم، كان عدد من الكيميائيين ينكبُّون على تحليل عدة عينات من الحجر. وقد تم وضع الأنقاض المحيطة بقاعدة الهرم الأكبر، حيث استخلص أحد الأبيار. وأخذ "كوتيل" يستكشف داخل هذا النصب الضخم؛ وقد عُلِّق من وسطه بحبل غليظ؛ وضم بين أسنانه شعلة. وأمسك بترمومتر وبوصلة. حقًا، لقد

أُجرى قياس لكل شيء، وتقديره .. حتى حجم رَوَث الخفافيش الذى تراكم على مدى القرون: ٢٦٦٢,٦٢٨ مترًا مكعبًا!!

الجلسة الأخيرة

لم يتم تتبُّع البئر حتى الغرفة السفلية. حيث عملت بعض الأحداث الخطيرة على توقيف أوجه النشاط. ففى يوم ١ مارس عام ١٨٠١، اقتربت من "أبو قير" حوالى مائتَىْ سفينة قتالية إنجليزية كبرى، تحمل على متنها ما لا يقل عن اثنى عشر ألف جندى!! ولا ريب مطلقًا أن بونابرت أو كليبر، فى مثل هذه الأحوال، كانا سيهُبان لجمع كافة الفرق .. ويندفعان للانقضاض على العدو. لكن، بالنسبة لـــ"مينو"، فإنه من جانبه، لم يَرَ فى هذا الأسطول الإنجليزى .. سوى مناورة للتضليل فقط لا غير. كما أنه قد توقع هجومًا من جانب العثمانيين من ناحية سيناء. وهكذا، فقد ارتكب خطأ جسيمًا بتوزيع قواته.. ما بين غرب وشرق الدلتا!

لم يقرر القائد الأعلى التدخل، إلا بعد نزول الجنود الإنجليز من سفنهم، أو بالتحديــد بعد انقضاء أسبوع كامل. وعند وصولـــه إلى "أبو قير"، فى الثامن عشر من مارس.. علم أن الحامية الفرنسية قد استسلمت لتوّها. ولكن "مينو" كانت لديه قوات تكاد تكون متساوية مع تلك الخاصة بالعدو. وتفجرت معركة "كانوُب"، فى يوم الحادى والعشرين، الساعة الثالثة صباحًا .. وكانت بدايتها سيئة للغاية. فقد اعتقد القائد الأعلى أنه يستطيع أن يعيد ثانيةً هجمة فرقة الفرسان بقيادة "مورات". ولقد أثار أمره هذا ذهول مرؤوسيه؛ ولكنه طُبق ونُفذ. وهكذا، اندفع بكل بسالة فرسان الجنرال "رواز" .. وفى نهاية هذا اليوم، كان الفرنسيون قد فقدوا ٢٠٠٠ جندى!

فى الثانى والعشرين من مارس، بالقاهرة، بإحدى قاعات منزل "دى فورببيه" عقد معهد مصر جلسته الثانية والستين. وكان العلماء والفنانون يشكّون وقتئذ .. أنها الأخيرة؟!.. وبدأ السكرتير الدائم يقرأ رسالة من الجنرال "مينو"؛ يعلن من خلالها أنه سوف يحارب الإنجليز. ولم يستطع أحد أن يعرف أن معركة "كانوب" قد وقعت فى عشية اليوم السابق .. وانتهت بكارثة! خاصة أن التلغراف عن طريق السيمافور، الذى كان "كونتيه" قد انتهى من إنشائه .. لم يتم تشغيله بعد !!

لم يكن مستبعدًا أبدًا حدوث قلاقل واضطرابات جديدة فى القاهرة؛ حتى إذا كان "عبد الله مينو" قد هدد مشاركيه فى الدين المصريين .. بعقاب رهيب فى حالة قيامهم بحركات عصيان وتمرد. ولقد أكد لهم، فى إحدى نداءاته، مبينًا أن هؤلاء الإنجليز الكفار، يرغبون فى غرس الصليب بأرض مصر؛ ولكن، ليس لديهم أية فرصة للفوز: "إن الله هو الذى يهيمن على الجيوش. إنه يمنح الانتصار لمن يروق له. كما أن السيف المتوهج الخاص بملاكه .. يسبق دائمًا الفرنسيين .. ويدمر أعداءهم".

عقد "المعهد" جلسته وكأن شيئًا لم يكن. حيث قدم رئيس الأطباء "ديزجينت" نتيجة القوائم الخاصة بالوفيات، فى القاهرة، خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة. أما جيرارد" رئيس المهندسين بالكبارى والطرق ، فأخذ يقرأ تقريرًا عن الأبحاث التى يجب أن تجرى على مدى امتداد البحر الأحمر. وعن "جيوفرى سان هيلير"، فأخذ يشرح ويفسر عدة ملحوظات تشريحية عن تمساح النيل، حيث تناول على التوالى حركة الفكين، وعملية الهضم، والتنفس، وأجهزة التناسل. ثم قدم، بعد ذلك عدة توضيحات إضافية عن الكبد والأحشاء! ومن خلال مجال آخر أقل تفاهة أيضًا قرأ العالم الفلكى "نويه" مذكرة بعنوان: تطبيق المقاييس اليونانية والمصرية على ملحوظات "إراتوستين Eratosthene" من أجل تحديد قدر درجة الهاجرة الظهيرية الأرضية عند خط عرض تسع

وعشرين درجة، ما بين الإسكندرية والمدار الصيفى أو الشتائى. ثم اختُتمت الجلسة. وافترق الجميع .. مع شيء من التوجس والهم.

حينما كان الخطر الإنجليزى العثمانى قد تحدد، وبدأ وباء الطاعون ينتشر ويسقط الكثير من الضحايا؛ أخذ الجنرال "بليارد"، قومندان القاهرة، يجمع جميع الفرنسيين فى القلعة وبالحصون. حيث نُقلت إليها كافة معدات وأجهزة الطباعة والمجموعات والمخطوطات. وبخصوص جريدة "أنباء مصر"، فقد أصبح عنوانها: "من داخل قلعة القاهرة". ولقد ساهمت ورشة "كونتيه" فى عملية الدفاع عن العاصمة: حيث صنعت سلسلة ثقيلة للغاية، طولها ٣٠٠ متر .. لكى تعوق السفن المعادية من استمرارها فى صعود مجرى النيل.

طالب عدد كبير من العلماء والفنانين بالذهاب إلى الإسكندرية؛ ومنها يبحرون إلى فرنسا. إنهم خمسون فردًا، غادروا العاصمة فى يوم السادس من أبريل. وعند وصولهم إلى "الرحمانية" فى اليوم الحادى عشر، سرعان ما صدمتهم للغاية الكراهية والبغضاء التى يضمرها لهم العسكريون. حيث أصبحت أمتعتهم هدفًا للطمع والرغبة؛ بل والشك والريبة أيضًا. وقد أخذ بعض الجنود الصناديق، معتقدين أنهم سيجدون ذهبًا: وفى الواقع، إنها لم تكن تحوى سوى بعض العيِّنات المعدنية المستمدة من صحراء سيناء .. ولشدة غيظهم وحنقهم، أخذ العسكريون يلعبون بتقاذف هذه الأحجار الصغيرة.. ولكن، ها هو قائد وحدة "الجمل" المسمى عن حق بـ "الفارس"، قد سارع وهبَّ لنجدة العلماء والفنانين. بل قَبِل القيام بحراستهم حتى الساحل.

بدت الإسكندرية مختلفة ومتغيرة، ويصعب التعرف عليها؛ بل كانت تبدو كجزيرة: حيث هدم الإنجليز الجسور، وأخذت المياه تتعمق فى بحيرة مريوط التى أصابها الجفاف. وأثناء عبورهم لهذه الأغوار الوحلة، فقد العلماء والفنانون بعض صناديقهم. وفى نهاية الرحلة، وصلوا مرهقين ومنهكين. حيث استقبلهم "مينو" وقد استشاط غضبًا.

وحقيقة أنه تركهم يقضون ليلتهم تحت أسوار المدينة؛ ولكن، بعد ذلك، فرض عليهم "كارنتينة" مداها خمسة أيام.

حقًا، لقد ساء الوضع العسكرى. وها هو "مراد بك"، حليف الفرنسيين، خلال فترة هبوطه من مصر العليا مع مماليكه .. قد قتله الطاعون. كما وصل حوالى ٦٠٠٠ فرد من الأتراك لدعم الإنجليز. وكذلك، سقطت مدينة "رشيد" بين يدَى العدو. ووصل الانقسام والتفرق أقصاه فى إطار أركان الحرب الفرنسى!.. وبذا، ففى يوم الثالث عشر من مايو، أصدر "مينو" أمره باعتقال الكثيرين من الجنرالات .. الذين كانوا يستهجنون أسلوب قيادته. وفى اليوم التالى، بالدلتا، استسلمت سرية "الجمل" للإنجليز.

كان العلماء والفنانون، يعانون من السأم والملل بالإسكندرية؛ ولذا، طالبوا بكل إصرار برجوعهم إلى فرنسا. وفى نهاية الأمر، أذعن "مينو" لمطلبهم. ولكنه ألزمهم بأن يتركوا، فى مكانهم هذا، كافة مجموعاتهم، ومستنداتهم ووثائقهم. فثارت العديد من الاعتراضات. وهنا، جرت عدة مجادلات جديدة. ويتبين أن المهندسين فقط هم الذين قبلوا التخلى عن أعمالهم.

وفى يوم الخامس من يونيو، تلقى ثمانية وأربعون عضوًا باللجنة جواز مرورهم: بعد أن أعطوا، كتابيًا كلمة شرف، بأنهم لا يحملون معهم، أى شىء إذا وقع بين يدَى العدو، قد يفيده بمعلومات عسكرية أو سياسية، أو اقتصادية. ثم صعدوا إلى ظهر السفينة "لوازو" .. أو بالأحرى هذه المركب القلعية الضخمة .. التى كانت قد أعطتهم منذ حوالى عام واحد فقط، الكثير من الآمال الخادعة. عامة، لم يصلهم التصريح بالسفر .. إلا بعد خمسة وثلاثين يومًا!

فى القاهرة، بذاك الحين، بدت الأحداث متلاحقة ومتسارعة. حيث أشاع الطاعون الخراب. وضمن الضحايا الفرنسيين البالغ عددهم خمسمائة فرد، كان هناك الكثير من أعضاء لجنة العلوم والفنون.

ومنهم الكيميائى الشاب "شامبى"، وعـالم النباتـات "كوكبير دى مونتبرت". أما عالم الفيزياء "مالوس"، فكان قد أُصيب لمرتين اثنتين بهذا المرض .. واعتُبر إنقاذه بمثابة معجزة!

عند وصول القوات الإنجليزية والعثمانية إلى أبواب المدينة، نظما معًا عمليـة حصارها. وعندئـذ، تفاوض الجنرال "بيّار" بخصوص استسلام .. لم يوافق عليه "مينو". وبذا، فإن العلماء والفنانين الذين بقوا فى العاصمـة ــ من ضمنهم "كونتيـه"، و"ديزجينت"، و"دوترتر"، و"جاكوتين" ــ قد سُمح لهم بأخذ أدواتهم ومعداتهم. وبذا، فقد استطاع "فيلوتو" أن يسافر بأجهزته الموسيقية الكثيرة. كما تم استخراج "كليبر" من مقبرته، لكى يعود بداخل تابوته إلى وطنه. وقد شُحن هذا الأخير فوق سفينة يرفرف عليها علم أسود. وفى يوم الرابع عشر من يوليو ــ ويا له من موعد عيد قومى حزين!! ــ غادر العاصمة ١٣٥٠٠ فرد فرنسى، وعدد من المصريين المتآزرين معهم. وعند وصولهم إلى "رشيد"، استقلوا السفينة فى يوم التاسع من أغسطس، إلى فرنسا.

غنيمة مُشتهاة جدًا

لا ريب أن العلماء والفنـانين الذيـن أخطؤوا بذهابـهم إلى الإسكندرية .. لم تكن معاناتهم قد انتهت بعد. وحقيقة أن "الطائر" (لووازو) قد غادرت لتوّها الميناء فى الحادى عشر من يوليو، فإنها سرعان ما تم إيقافها، بمكان غير بعيد من الساحل، من جانب الإنجليز. ولأن هؤلاء الأخيرين لم يُحاطوا علمًا (بقدومها) .. فبالتالى رفضوا مرورها. وما زالت هذه المأساة الهزلية مستمرة !.. وهنا، قام "فوربيه" بإقناع العميد البحرى "سيدنى سميث" بعدم حجز العلماء كأسرى حرب، وعدم الاستيلاء على شحنتهم؛ ولكن، تركهم يدخلون الإسكندرية. ويتبين أن هذا الإنجليزى كان عالمًا بالرياضيات هاويًا. وقد سحرته صحبة السكرتير الدائم لمعهد مصر، فأصر على استبقائه لعدة أيام على

متن سفينتـــه. بل وعمل على الاحتفاظ بوثائقـــه ومستنداتـــه المتعلقة بالمعادلات الجبرية.

ها هو إذًا، قد تم دوران نحو الإسكندرية، فى يوم السادس عشر من يوليو. ولكن، هذه المرة، كان "مينو" هو الذى منع المرور .. ومن خلال رسالة لاذعة عنيفة، وُجهت إلى المسافرين: اتهمهم القائد الأعلى؛ بخروجهم فى وَضَح النهار، ومرورهم بسفينة يرفرف عليها العلم الإنجليزى .. دون التعرض لرشقة مدفع واحدة. وصرح قائلاً: "إننى أحب وأقدِّر وأُجلُّ العلوم، ومن يدرسونها. بل أُكنُّ مشاعر خاصة تجاه البعض منهم، وأعرفهم جيدًا .. ولكننى أحب، قبل كل شىء: الشرف والوطن".

عندئذ، سارع العلماء والفنانون بكتابة رسالة موضحة إلى "مينو" ولكن، لم ينجحوا فى جعله يخفف من غضبه. ولم يبق أمامهم سوى التوجه .. للأميرال الإنجليزى. وكانت "لووازو" قد ألقت مرساها فى مرسى "أبو قير". وفوق متن السفينـــة، كان الجميع يشعرون بتوتر عصبى فعلى. وتفجرت بعض الانشقاقات ما بين القبطان وأعضاء اللجنة. ثم، أيضًا، بين أعضاء اللجنة أنفسهم. وفى اليوم التالى، قرر القبطان الفرنسى، الإقلاع رغم ذلك إلى الاسكندرية. ولقد أراد الكثير من العلماء والفنانين أن يثنوه عن ذلك، بل وأمسكوا بالدفة. وهنا، تدخل بعض الملاحين. وفى وسط هذا الشجار والتلاحم .. سقط "فورييه" من فوق سطح السفينة، فى أعماق قارب صغير.

فى يوم السابع والعشرين من يوليو، تم الوصول أخيرًا إلى تسوية ما. كما أن "مينو"، كان قد هدأ ولان. وهكذا، دخل المسافرون إلى الإسكندرية. ولكن، كان الأمر يحتم أن يمروا بـــ "كارنتينة" جديدة؛ مداها خمسة أيام؛ قبل أن يُدمجوا فى الحرس الوطنى المكلف باستتباب الأمن. ويلاحظ أن الإسكندرية المحاصرة، قد وقعت ضحية لوباء الدوسنتاريا والإسقربوط. وعندئذ، حاول "لارى" رئيس الجراحين، أن

يحصل من "مينو" على إذن بذبح الجياد. خاصة أنها لم تكن لازمة فى ذاك الحين .. للتغذى بها كحَسَاء.

نجح "جيوفرى سان هيلير" فى الحصول على سمكتين، يمكنهما أن تُشعا شحنات كهربائية. أولاهما: سمكة الــسلور والأخرى، سمكة الرعَّادة (سمكة مكهربة). ووقتئذ، انتابه ثانيةً الحماس والتوقد للعمل .. مما جعله ينسى عوارض الحصار ومحاذيره. فإنه، على مدى ثلاثة أسابيع كاملة؛ وبدون أن يأخذ كفايته من النوم .. قد مر بمراحل تحمس فائق مثمرة للغاية. ولقد استتبع هذا العمل، فى السنة التالية، صدور مذكراته الذائعة الصيت عن: "التشريح المقارن للأعضاء الكهربائية".

لم تضع الحرب أوزارها بعد. وها هو الجنرال "مينو ــ كان يعتقد دائمًا، أنه سوف يتلقى دعمًا من فرنسا الذى لم يأت أبدًا ــ يكتب لبونابرت: "سوف أدافع إلى أقصى مدى عن أسوار الإسكندرية. فلأننى أعرف كيف أموت .. ولكننى لا أعرف الاستسلام".

ولكنه، استسلم فى الثلاثين من أغسطس، بعد هجوم الإنجليز على المدينة. ولقد أراد الجنرال "هتشينسون" أن يستولى على الغنيمة العلمية الخاصة بالفرنسيين. واعترض "مينو" على ذلك، بطراوة ولين. هنا، قرر العلماء والفنانون أن يدافعوا عن أنفسهم بأنفسهم. وقاموا بتعيين ثلاثة مبعوثين، هم: "دوليل"، و"سافينى"، و"جيوفرى سان هيلير". وقد بدأ هذا الأخير، يشرح، بكل تعقُّل واتزان للجنرال "هتشينسون"؛ قائلاً: إن المجموعات والوثائق لا يكون لها أية قيمة، إلا بمصاحبة مؤلِّفيها وكُتَّابها: "فإنها بمثابة مخططات يجب أن تعمل مشاعرنا الشخصية، وملاحظاتنا، وذكرياتنا، على تكملتها. وبدوننا، تصبح هذه الوثائق بمثابة لغة ميتة لن تفهموا منها شيئًا .. لا أنت ولا علماؤكم.. والأجدر بنــا، بدلاً من أن نسمح باقتراف هذا الاغتصاب الظالم المجحف، الهمجى..أن ندمر ممتلكاتنا. بل سوف ننثرها وسط رمال الصحراء

الغربية. أو نلقيها فى البحر.. ثم بعد ذلك سوف نحتج أمام أوروبا قاطبة ..".

بعد مُضى وقت ما، أرسل الإنجليزى رده بوساطة أحد معاونيه، مبينًا أنه لن يرضخ أبدًا. بل لقد هدد باحتجاز العلماء والفنانين .. كأسرى حرب!.. هنــا، استشاط "جيوفرى سان هيلير" غضبًا. ومن خلال وصلة تأنيب وتعنيف شهيرة، رشق المنتصر (الإنجليزى) بهذه العبارات: "لا، ولا، لن نطيع أبدًا. إن جيشكم لن يصل إلى هذا المكان إلا بعد يومين. حسنًا!.. وحتى يحين ذلك .. سوف تتم التضحية. ويمكنك بعد ذلك، كما تريد أن تفعل بنا ما تشاء. كلاَّ، وأنا أقولها لك .. لن تُرتكب أبدًا مثل هذه الذبيحة. فإننا سوف نحرق بأيدينا ثرواتنا وكنوزنا. قطعًا، إنك تشرئبُ نحو الشهرة. حسنًا!.. فلتعتمد فى ذلك على ذاكرة التــاريخ .. فربما كان يمكنك أن تحرق أيضًا مكتبــة الإسكندرية!!".

أمام كل هذا الإصرار، اضطُر الإنجليز أن يسمحوا للعلماء والفنانين بأن يأخذوا معهم أوراقهم، ومقتنياتهم الشخصية. ولكنهم، استولوا على الأشياء الأكثر أهمية، مثل: تابوتين؛ ومسلتين صغيرتين، وبعض التماثيل، وقبضة ضخمة مصنوعة من الجرانيت الوردى، عُثر عليها بين أطلال منف .. وبكل تأكيد: "حجر رشيد"! ومع ذلك، فقد احتفظ الفرنسيون بــعدة مومياوات، والميداليــات، والمعادن، وكتب الأعشاب، والمخطوطات. هكذا، فقد أخذ علماء الطبيعيات معهم حوالى خمسين صندوقًا. أما عن "جيوفرى سان هيلير"، فلا شك أنه سافر بصحبة نمسه المستأنس.

قرر بعض الفرنسيين البقاء فى مصر. وضمنهم، رئيس الصيادلة السابق، "دوتيه" (لقى مصرعه فى القاهرة بعد ذلك بثلاث سنوات). وفيما بين الموتى، والمختفين والهاربين من العسكرية، فَقَد "جيش المشرق" ما لا يقل عن ١٣٥٠٠ رجل. إنهم حوالى ثلث عدد القوات

المسلحة التى جاءت إلى مصر، قبل ذلك بثمانية وثمانين شهرًا. قطعًا، إنه لعدد ضخم. ولكنه، على أية حال، لا يماثل أبدًا المجازر التى وقعت خلال بعض معارك نابليون فى أوروبا. ونجد، أن الطاعون فى حد ذاته، يُعد مسئولاً عن خُمس حالات الوفاة. وهكذا، فقد قال البعض: "إن حملة مصر .. قد هزمتها الأمراض والأوبئة!!". كما يُلاحظ، أن اثنين وثلاثـين من أعضاء لجنـة العلوم والفنون ــ خُمس الأعضاء ــ قد سقطوا صرعى خلال تلك المغامرة!!

خلال الأسابيع التالية، غادر عدد من الجنود والعلماء والفنانين فوق عدة سفن متباينة. وها هو بونابرت، "القنصل الأول"، يعبر عن تكريمهم وتعظيمهم .. بشيء من المرارة: "لقد تركوا وراءهم فى مصر ذكريات لا تُمحى أبدًا؛ بل ربما فى يوم ما، سوف تُحيا بها الفنون والمؤسسات الاجتماعية. عمومًا، إن التاريخ، على الأقل، لن يكتم أبدًا ما فعله الفرنسيون، لكى يُحضروا بها حضارة ومعارف أوروبا.

ربما، إذا كان العبور من "طولون" إلى "مارسيليا"، يبدو شاقًا ومرهقًا .. فكيف عساه كان الرجوع؟!.. فها هم العلماء والفنانون مكدَّسين مع العسكريين فوق السفينة (أميكو سينسيرو Amico Sincero) صغيرة الحجم، ذات المائة والخمسين طنة، قد تعرضوا لأعاصير وعواصف كثيرة. وفى هذا الصدد يقول "ڤلييه دى تيراج": "كنا جميعًا فى غاية الإرهاق، ومبللين بللاً شديدًا". وفى ليلة ما، عاصفة الرياح، صعد بعض الملاحين اليونانيين فوق عارضة الصارى الضخمة، من أجل طى القلاع .. فانقلبوا جميعًا، وسقطوا فى البحر .. ولم يُر لهم أثر بعد ذلك!

فى "طولون"، بعد فترة انتظار مداها ثلاثة أيام .. مُنع النزول من السفينة؛ ولا شك أن ذلك كان لدواعٍ صحية. واقتضى الأمر أن نبحر ثانيةً إلى "مارسيليا". وهناك، كان يجب أن نتحلى أيضًا بالصبر طوال أسبوع كامل .. حتى تخلو بعض الأماكن بالحَجْر الصحى! فها هم

علماء بونــابرت الأمجاد، قد تــم استقبالهم هنا، باعتبارهم مصابين بالطاعون. وفى هذا المجال، يحدد "قلّييه" قائلاً: "هناك، تم إيواؤنا بداخل عنابر منفتحة تمامًا لكافة تقلبات الفصل؛ للأمطار والبرد، التى لم نكن معتادين عليها أبدًا. عمومًا، لقد حاولنا حماية أنفسنا بقدر استطاعتنا، بوساطة بعض قطع الشراع. وكنا ننام فى أسرّتنا المعلقة الخاصــة بالسفن أو الشاطئ؛ وقد غمرتنــا، بالرغم من ذلك مشاعر السعادة .. لأننا كنا على مقربة من فرنسا ونتلقى بعض الأخبار عن أهلنا وأصدقائنا".

غادر آخر أعضاء المعهد الإسكندرية، بتاريخ السابع والعشرين من أكتوبر عام ١٨٠١؛ إنه الجرَّاح "لارى"؛ حيث رافق "مينو" وعائلته فوق الفرقاطة الإنجليزيــة: "ديانا". أما القائــد الأعلى، فقد أصابــه الطاعون. وطوال الرحلة كان يتلقى علاج الطبيب ورعايته.. ووصل مُعافًى إلى "طولون". ولكن، قطعًا، لا يُعد ذلك بمثابة المفخرة "العلمية" النهائية لحملة مصر. فهناك مغامرة أخرى. إنها افتتاحية، بل وتوجيهية .. وكانت على وشك أن تُستهل وتتسع على مدى السنين !

(١٢)
عشرون مُجلَّد علم ومعرفة

لقد فاق "دومينيك فيفان دينون" الجميع فى تصرفه سريعًا. فحالما رجع من مصر مع بونابرت، سارع إلى جمع ملحوظاته، ورسومه. ثم كتب نصًا، وعمل على نقش عدة لوحات. وهكذا، نجد، أن كتابه المعنون بـ"رحلة فى مصر السفلى ومصر العليا"، الذى نُشر فى عام ١٨٠٢، قد لاقى نجاحًا كبيرًا؛ ثم تُرجم إلى عدة لغات. وعلى مدى ذاك القرن، طُبعت ما لا تقل عن أربعين طبعة من هذا المجلد الذائع الصيت والذى وجه المؤلف إهداءه لبونابرت: "إن اقتران توهج وتألق اسمك بروعة وسحر نُصُب ومنشآت مصر .. هو بمثابة جمع ما بين انتصارات عهدنا والعصور الأسطورية فى إطار التاريخ. بل للعمل على إحياء مراكز سنوسرت ومندس؛ إنهما مثلك غازيان، وعلى غرارك خيِّران. ولا شك أن أوروبا، عندما تعلم أننى رافقتك فى أكثر حملاتكم عظمة وشهرة، فإنها سوف تتلقى كتابى هذا، باهتمام بالغ. إننى لم أهمل شيئًا مطلقًا، لكى أجعله جديرًا بالبطل الذى أردت .. أن أهديه له".

من خلال هذه الصفحات الدقيقة، المفعمة بالتلون، تتعاقب مشاهد المعركة مع الاكتشاف المبهر، والمدهش، لبلد الفراعنة. وتبدو الرسوم جيدة، وموحية، بالرغم من سرعتها الواضحة. وعامة، لا يتوه النص أو يضل فى متاهات أى استطرادات تاريخية ـ فلسفية .. التى كان يميل إليها كثيرًا كُتّاب ذاك العصر. ونجد أن هذه "الرحلة"، قد تحررت من كافة الأساليب والأنماط .. أو بالأحرى، إنها جمعت بينها كلها. فأمامنا هنا، أحد مراسلى الحرب يقدم سردًا. أو بالأحرى إنسان متذوق للجمال، ينظر ويرسم. أو ربما مؤرخ أو جغرافى يقدم المشاهد من خلال فن الرسم المنظورى. أو قد يكون عالم سلالات، يلاحظ، ثم يحلل، ليخطو أحيانًا فى اتجاه علم النباتات، أو علوم الحيوانات.. خاصة عند تأمله وتفحصه لبعض أشجار نخيل الدوم .. أو التماسيح النائمة!!.. عمومًا، يُلاحظ أن القارئ لا يصيبه الملل مطلقًا للحظة واحدة. وسُحقًا للمتخصص فى هذا المجال أو ذاك، الذى قد يُبْدى تحفظه أمام تفسير ما، يتسم بالتسرع، أو نسبة لم تُحترم كما يجب!!.. فإن "دينون" ليس عالم آثار ولا مهندسًا.

عندما أصبح بونابرت، نابليون، فإنه سرعان ما استعان بهذا المتدخل فى كل شيء. وبوّأه مركز مدير المتحف. ثم بعد ذلك، جعله وزيرًا للفنون الجميلة. وباعتبار أن الإمبراطورية، لم يكن لها ماضٍ، فإن الضرورة قد استدعت، أن يوجد لها أسلوب خاص. عامة، فإن عظمة مصر، وارتباطها بالانتصارات العسكرية التى حققها المنتصر فى موقعة الأهرام، قد ساهمت كلها فى تحقيق ذلك. فنرى، من خلال التوصيات الرسمية التى وجهها "دينون" للفنانين، أن الفن الفرعونى، يحتل مكان الصدارة والتميز. وهكذا، فإن ستًا من النافورات الخمس عشرة الباريسية الجديدة، التى أقرها مرسوم عام ١٨٠٦.. قد استُلهمت من الفن المصرى القديم. أما عن صناعة الصينى المشهورة باسم "السيفر"، فقد استعانت بلوحات "الرحلة"، لكى تقدم، ضمن الكثير

غيرها، "أدوات التقديم" للحلوى فائق الفخامة؛ ومعه صينية للزينة توضع على المائـدة هائلـة الحجم من الخزف المبرغل الأبيض البورسلين: لا يقل طولها عن: ٦,٥ متر .. وقد قُدم أول نموذج لها للقيصر "إسكندر الأول".

بالنسبة للفنانين فى عصر الإمبراطورية، لم يكن الأمر يلزم أبدًا الضغط عليهم. فإن مصر كانت، من قبل تسحر ألباب الفرنسيين؛ ثم ازدادت أهميتها من خلال النصوص الخاصة بالحملة. فإن "فيفان دينون" لم يكن الوحيد الذى يتغنى بأشعار الفروسية!!.. فقد كان هناك شهود آخرون؛ ينشرون الكثير من الكتب، وقد يتفاوتون؛ إلى حد ما فى مدى نبوغهم وبراعتهم. وكذلك، فإن الأفراد المماليك الذين كان نابليون قـد كرَّسهم لخدمتـه، قـد ساعدوا، هم أيضًا، على نـشر ما عُرف بالـ"إيجيبتو مانيا" (الولع بالمصريات) كما ذاع وانتشر، فى باريس؛ من خلال طُرُز الأثاث، وأدوات المائـدة، وورق الحائـط الملون، والحياة الاجتماعية المصرية .. أسلوب: "العودة من مصر".

طبع وصف مصر ونشره

قررت "الدولة" أن تجمع أعمال العلماء فى كتاب ضخم. وكان الأمر يلزم الإسراع فى ذلك. حيث كان البعض يميلون إلى إصدار كتب منفردة. وبتاريخ السادس من فبراير عام ١٨٠٢، صدر القرار التالى: أن الحكومة سوف تقوم بالنشر والطبع، بحيث تعود الفوائد للمؤلفين. وها هو وزير الداخلية، وهو ذاته الكيميائى "شابتال"ـ يبدو أن العلوم والسلطة لا تنفصلان أبدًا!!.. ـ يكون لجنـة من ثمانية أعضاء، ومهمتها نشر "وصف مصر". ورئيسها: "برتوليه"، ومندوبها ..(وهو المباشر الفعلى للعمل): "كونتيـه"، والسكرتير: "لانكريـه". ويحيط بـهم جميعًا كل من: "فورييـه"، و"مونـج"، و"ديـزجينت"، و"كوستاز"، و"جيـرار". ولقد أُلحق أعضاء اللجنـة بوظائفهم بحيث

يقضون وقتهم كله فى العمل؛ ويتلقون أجورًا. ويقيمون مؤقتًا فى اللوفر، انتظارًا لأن يحظوا بحجرات كبيرة فى نطاق معهد فرنسا؛ بحيث يُجهز بخزائن ضخمة، من أجل ترتيب اللوحات والوثائق وتنظيمها. وقد كُلف "فوربيـــه" بتحرير المقدمـــة. أما عن "كونتيـــه" ومجموعته، فقد أُوكلت إليهم مهمة اختيار النصوص، ومراجعتها، وإجـــراء التصحيحات اللازمـــة؛ وأيضًا، توقيـــع التصريح بنقش اللوحات. ولكن، يتبين أن كل مساهمة مالية يتحتم الموافقة عليها من جانب الجمعية العامة للمتضامنين: عددهم ستون فردًا وأغلبيتهم ينبثقون من لجنة العلوم والفنون السابقة.

حقًا، لم يكن من السهل الجمع بين عدد من الإخصائيين، فى الكثير من النظم. وكانوا قد أحضروا معهم من مصر عدة مجموعات شخصية. وهكذا، ثارت بينهم عدة انقسامات؛ يُضاف إليها، رغبة البعض منهم فى أن يتبوأ مكانة .. الفارس الأول. فها هو، على سبيل المثال، الرسام "دوترتر"، قد بدأ يفصح عن رغبته، فى نشر كتابه الخاص. ثم بعد ذلك، قبل فكرة الانضمام إلى اللجنة: ولكن كل من "جيوفرى سان هيـــلير" و"سافينى" يتنازعان "الحيوانـــات ذات الدماء الحمراء" (الفقاريات). ولقد كُونت خصيصًا إحدى اللجان من أجل فض هذا النزاع. وأخيرًا، تم الاتفاق على: أن يولى "سافينى" اهتمامه بالطيور. ولكن، يترك الثدييات والأسماك والزواحف لـــ"جيوفرى". وكذلك، فإن كلاً من عالِمَى الحيوانات هذين، يمكنه، فيما بعد، إكمال عمل الآخر ..

وفقًا لما كان يتمناه "كليبر": فإن "وصف مصر" .. يجب أن يكون كتابًا منقطع النظير ولا مثيل له. بل ويَرْقَى على كل ما كان قد قُدم حتى الآن. ولقد كُرست ست آلات طباعة. بحيث يتوافر لها نوع خاص من الورق، يُنتج فى مدينة آرش Arches بمنطقة "فوسجى Vosges ".. لم يتمكن أى مصنع ورق فى أوروبا أن يصنعه من

قبل!.. وبالنسبة لمقاسات اللوحات؛ فسوف تكون أحجامها غير مسبوقة؛ مثل "العالم الكبير" (١٣٥٤×٧٠٤ ملليمترات)، أو "مصر الكبرى" (١١٣٧×٧١٢). وبذا، نجد أن "حجر رشيد" سوف يُصوَّر بحجمه الطبيعى، من خلال النقوش المصنوعة من الجص التى أعدها فى مصر "رافينو دوليل".

أتاح "وصف مصر" الفرصة لعدة استحداثات تقنية. فمن أجل طبع رسوم فخمة ثرية بألوان طيور النيل، جهز "ريدوتيه"، أسلوبًا حاذقًا: فقد لُونت اللوحة النحاسية بمجموعة الألوان المطلوبة؛ بوساطة بعض العِصِىّ الصغيرة المكسوة بالقماش. وتم طبع اللوحة فوق الطباعة. ولقد زُينت التجارب بألوان مائية، بوساطة الريشة. وطُبقت هذه التقنية أيضًا من أجل طبع خمسة لوحات رائعة، خاصة بمجال التعدين؛ بفضل مهندس المناجم "فرنسوا ميشيل دى روزيير"، وتضمنت مائة واثنتى عشرة صورة بيانية.

ولكن، كيف عساها تُصور سماء مصر الخالية من السُّحب؟!.. وأيضًا تلك المساحات الناعمة المترامية المدى؛ التى تمثل خلفية النقوش الغائرة؟!.. بل كيف يمكن أن تُنقش، بدون تكاليف باهظة الآلاف المؤلفة من الخطوط، رفيعة أو سميكة، متوازية أو متباعدة، مستقيمة أو منحنية؟!.. ومرة أخرى، يدخل "كونتيه" فى المشهد.. ويُنجز روائع!!.. فها هو مخترع القلم الصناعى، والتلغراف بوساطة السيمافور، يقوم بإعداد آلة جديدة تسمح بتحقيق مؤثرات الظلال والضوء المطلوبة. وكذلك، بالاستعانة بعمق الخطوط الغائرة ومسافاتها. ومن أجل إخفاء كثافة النحاس وسُمْكه، فإن الكبس فوق اللوحة يتباين أتوماتيكيًا وفقًا لمقاومة المعدن. ويتبين أن هذه الماكينة التى لم يُسجل اختراعها، سرعان ما طُبقت من جانب الصناعة. بل وأحدثت ثورة فى عالم طباعة النسيج والورق الملون ..

انكبَّ على العمل ما لا يقل عن مائتين وسبعين نقاشًا: معظمهم يعملون بالإزميل أو يحفرون بماء الفضة. وبفضل آلة "كونتيه" هذه، أُمكن، خلال يومين أو ثلاثة نقش عدد من اللوحات .. ربما كانت تقتضي ثمانية أشهر من العمل اليدوى .. ولا تكون بمثل هذا الإتقان والاكتمال. وقطعًا، إن هذه المغامرة الافتتاحية، تُعتبر أيضًا ذات أهمية فى تاريخ الكتاب بفرنسا.

تسببت الكثير من العوامل، إلى أقصى مدى فى تأخير نشر .. "وصف مصر". فقد تُوفِّى "كونتيه" أثناء ممارسته لعمله، فى عام ١٨٠٥. أما "لانكريه"، الذى خلفه، فقد لحق به، بعد حوالى سنتين إلى العالم الآخر. وعندئذ، حل "جومار" مكانه. ولقد أوصت إحدى اللجان فى لندن: من أجل أن تُستنسخ ــ أو تُقولَب ــ بعض القطع الأثرية التى كان الإنجليز قد استولوا عليها. أما فى باريس، فعلى ما يبدو أن السلطة كان قد نَفِد صبرها. وحينئذ، تقرر تدريج عمليــة النشر. وحقيقة أن الكتب الأولى قد ظهرت فى عام ١٨١٠، فإن اللوحات الأخيرة لم تُعرض بالأسواق إلا فى عام ١٨٢٦؛ بعد وفاة نابليون بفترة ما. وفى أثنـــاء ذلك، حصل الناشر "بانكوك" على التصريح بإصدار طبعة جديـــدة: تتميز خاصة بسهولة الاستعمال، وأقل ثمنًا. وسُجل إهداؤها إلى "لويس الثامن عشر". أما عن الرسم المواجـــه للعنوان .. لتمجيد نابليون وتعظيمه، فقد حلت مكانه "لوحة" تتسم بالمزيد من الحيادية. كما سُحبت من المقدمة عدة إيماءات عن المنتصر فى معركة الأهرام.

تتضمن الطبعة الإمبراطورية خمسة كتب للنصوص وأحد عشر كتابًا للوحات. وطُبعت فى حوالى ١٠٠٠ نسخة. ومنها ثلاثة أنواع متباينة. ومن خلال أكثرها فخامة وأبهة، على ورق قضيم، يُلاحظ أن كافة اللوحات الملونة، قد أُجريت بها عدة رتوش باليد. ولا تُعد هذه الطبعة بمثابة فرصة مواتية للمكتبات. خاصة أن ثمنها باهظ للغاية.

كما أهداها نابليون لعدة مئات من الشخصيات البارزة أو المؤسسات.. الذين كانوا قادرين على شرائها. وعلى خلاف "الرحلة" بقلم "فيفان دينون"، فإن "وصف مصر" .. لم يُترجم.

من أجل تنظيم وترتيب الكتب، الفائقة الضخامة هذه، فقد أُعدت قطعة أثاث خاصة، قام "جومار" برسمها، ونفذها أحد نجّارى الأثاث الشهيرين؛ يُدعى "موريل". وقد تكفل بزخرفتها المتخصص فى النحت على الخشب "دانتان". وتُرى الركائز ذات الأعمدة بهذه المكتبة المصنوعة من خشب البلوط الهولندى، وقد زُينت بإفريز مصرى الطراز. وتسمح أربعة عشر رفًا، بأن تُرص، أفقيًا كتب اللوحات. وفى ذات الحين، يتحرك الجزء العلوى .. ليصبح بمثابة قِمَطْر. فيما بعد، أُنجزت أنواع متباينة من هذه المكتبة بفضل "موريل"، أو غيره من نجارى الأثاث.

مثاليـــة مصـــر

لقد احتلت مقدمة "فورييه" كتابًا بمفرده. ومن خلالها، صُوِّرت مصر، باعتبارها "أكثر متاحف الدنيا ثراء فى العالم كله". أما الحملة الفرنسية، فقد مُثلت فى هيئـــة: "المشروع الذى أرجع إلى ضفاف النيـــل، العلوم، التى أُبعدت إلى حد فائـــق". وفى إطار هذا النص التاريخى، الذى كتبه عالم رياضيات، رُوعى تجنب موضوع دقيق للغايـــة. وذلك، لعدم جرح مشاعر الكاثـــوليكيين؛ ألا وهو: ظهور الإنسان فوق الأرض. فنجد أن الكنيسة قد أرَّخت خلق العالم عند عام ٤٠٠٠ قبل ميلاد المسيح. ولكن، يُلاحظ أن الاكتشافات التى تمت فى مصر عن الكثير من الإبداعات الفنية الفلكية، ومنها فلك البروج بدندرة .. قد جعلت العديد من العلماء (وربما هم مخطئون) يعتقدون، أن الحضارة المصرية، تُعد أكثر قدمًا من ذلك ..

ها هو "وصف مصر"، وقد دُعم بخريطة طبوغرافية (رسم المكان وتخطيطه) مكونة من سبع وأربعين صفحة مزدوجة، قد قُسم إلى ثلاثة أجزاء، هى: العصور القديمة، والعصر الحديث، والتاريخ الطبيعى. إنه يتكون، إجمالاً من مائة وسبعة وخمسين من المذكرات الفردية أو الجماعية؛ بالإضافة إلى ألف لوحة. ويُلاحظ أن بعض هذه المذكرات، لا تقل عن عدة مئات من الصفحات. إنها بالأحرى، فى حد ذاتها، تُعد بمثابة كتب فعلية!

ويُرى، أن الاهتمام بالدقة المتناهية، يتضح تمامًا فيما يتعلق بالنصب والمنشآت المصرية. لقد تراءى علماء بونابرت، وهم يقدمون العديد من مساجد مصر، وكأنهم معماريون فعليون. فهم يتفحصونها من كافة زواياها، ومن داخلها وخارجها. حقًا، لم يفلت منهم شيء، حتى الأخطاء الطفيفة، فيما يتعلق، مثلاً باستدارات إحدى القباب. وبالنسبة لنصب العصور القديمة ومنشآتها، بدا المهندسون الشباب على ثقة تامة فى خرائطهم: لدرجة أنهم قد أصدروا نشرة موجهة "للرحالة الذين سيخلفوننا". جملة القول، لقد قالوا لهم؛ لا تضيعوا وقتكم فى التفحص والتمعن فى المعمار: فليس هناك ما يجب إضافته. ولكن، إذا أردتم أن تكونوا ذوى نفع .. فالأحرى بكم أن تستنسخوا التفاصيل الهائلة العدد بالنقوش التى غُطيت بها النصب والمنشآت.

مع ذلك، فقد أبدى واضعو لوحات "وصف مصر" بعض الجرأة والفانتازيا. ففى بعض الأحيان، كانوا يصورون معبدًا فرعونيًا مكتملاً ومدفونًا لنصفه فى الرمال .. أو يعيدون تنظيم بعض المشاهد الغابرة، مثل عيد النيل فى دندرة. ومن خلال رسومهم، لم يترددوا فى تصوير بعض الأشخاص من أجل المقياس فحسب، بل وكذلك، لإضفاء لمحة من الحيوية: عدد من الفلاحين المصريين، والجنود الفرنسيين، والعلماء والفنانين.. ولكن، يُلاحظ أن وجوه هؤلاء

الأخيرين كانت غير واضحة المعالم. ومع ذلك، كانت هناك بعض الاستثناءات النادرة: فها هو المهندس "سيسيل" قد رسم المعمارى "لوبير" بداخل هرم خوفو؛ بل لقد أدمج نفسه، بأحد المشاهد (الفرعونية!) من خلال رسم آخر!!

لا يمكن أن يُعتبر "وصف مصر" عملاً مكتملاً. فبداية، قد شابَهُ عدم التناسق؛ ربما يرجع ذلك إلى ظروف الإعداد. كما يفتقر إلى أى فهرس؛ بل ولا حتى قائمة بالمواضيع. وعلى ما يبدو، أن ما تضمنه من مواضيع، قد نُشرت به بدون مراعاة أى نظام .. حالما كانت تصل إلى "اللجنة".

ثم هناك نقيصة أخرى: فإن هذه الدراسة الموسوعية، تبدو ناقصة. لأن العلماء والفنانين لم يكن لديهم الوقت الكافى، لاستكشاف البلد بأسره؛ وأن يدرسوا الواحات النائية؛ وكافة الحيوانات والنباتات. ولقد ارتكبوا خطأً كبيرًا فى تقديرهم لتعداد الأهالى المصريين بـ ٢,٥ مليون فرد. فى حين أن بعض الدراسات القريبة، قدرته بحوالى ٤ ملايين!

إن الرسوم نفسها، ليست فرضية. وحقيقة أن المهندسين الشباب قد نسخوا الآلاف من الرموز والعلامات الهيروغليفية .. ولكن، لم يفهموا فحواها أو معناها. وأحيانًا، كانوا يضيفون أعدادًا منها؛ وذلك لملء فراغ غير مستعمل أو زخرفة جزء معمارى: حيث يستعيرون أحيانًا بعض الكتابات من أحد المعابد المجاورة. ولكن، الجدير بالذكر، أن ما احتوته الخراطيش فقط، قد صُوِّر بدقة فائقة.

ربما أنهم قد أجادوا فى رسم الأشياء ـــ مثل الأثاث ـــ ولكنهم أخفقوا فى تصوير حركات قدماء المصريين. بل إن الوجوه نفسها قد تأوْرَبتْ وتفرْنَجتْ. ويُضاف إلى ذلك أن بعض الشخصيات الملكية، التى مثّلها "لانكريه" .. بدت شبيهة ببونابرت!!. وهكذا، فإن التأهيل والإعداد الكلاسيكى بالنسبة لمؤلفى "وصف مصر"، كان غالبًا ما

يظهر واضحًا: فهم لا يفهمون أن المذهب الطبيعى المصرى يمر عبر التجريد.

إن أبناء "الثورة" هؤلاء، قد عاشوا فى فرنسا، التى لا تحظى فيها العقيدة الدينية بحقوق المُواطَنة. فهم ينظرون للحضارة المصرية نظرة علمية .. ويريدون أن يجدوا بها جنة يسودها العقل والحكمة! فإن جميع هؤلاء الكهنة المصورين فى النقوش الغائرة، يبدون لهم وكأنهم علماء، يهتمون بقوانين الطبيعة .. وليسوا ثيولوجيين. بل لقد كتب هؤلاء العلماء قائلين: إن المصريين كانوا شعبًا سعيدًا، يسوده حكام مستنيرون، يحصلون على مصادرهم من المعابد .. قبل خدمتهم للمدينة. إنهم يداومون على ذكرى أسلافهم. ولذا، فإنهم يحولونهم إلى مومياوات .. لكى يتمكنوا تمامًا من استلهامهم. ويشعرون أنهم قد استُودعوا، حكمة عريقة، ترتكز على مبادئ أبدية خالدة. وكانوا يقدسون العائلة ويبجلونها. ويعتبرون كافة الأجيال .. معاصرة. والوقت بالنسبة لهم .. قد مُحى!

إن علماء بونابرت كانوا على أتم استعداد لغفران كل شىء، بما فيها مشاهد العنف التى نسخوها من النقوش الغائرة. حقًا، لقد لاحظوا أن بعض الأسرى قد بُترت بعض أوصالهم. ولكن، لم يكن يُشوَّه سوى الموتى .. فهذه كانت بمثابة أبسط الطرق لحصر الأعداء!

عندما اختُتم إصدار "وصف مصر"، كان "جان فرنسوا شامبليون" قد انتهى من فك رموز الهيروغليفية .. وهكذا، أبطل الكثير من تأويلات عدة مؤلفين. بل إنه هو ذاته، قد اعتبر هذه الأخيرة مجرد "طرائف" وأخطاء. ولكن، لا شك أن اللوحات فقط لا غير .. التى زين بها جدران شقته فى باريس .. هى التى احتفظت بكل قيمتها واعتبارها.

عامة، وبالرغم من أخطائه، فإن هذا المُؤلَّف الهائل الضخامة .. يُعتبر غير مسبوق فى مجال تاريخ العلوم. فلم يحدث أبدًا من قبل أن

دُرس بلد ما بمثل هذا التفصيل. بل إن فرنسا، ذاتها، بصفة خاصة، لم تحظ بما يماثل "وصف مصر". فنجد "دائرة معارف" "ديدرو وألمبرت"، التى صدرت فيما بين عامَىْ ١٧٥١، ١٧٧٢، ليست سوى قاموس عام: عن الفنون، والعلوم، والمهن. بل بالأحرى، ربما قد يطرح هذا السؤال: هل كان الفرنسيون قادرين على دراسة بلدهم، بمثل هذه الأبعاد .. كمثل علماء بونابرت؟!. قطعًا، إن "وصف مصر"، يبدو وكأنه الإنجاز الفعلى لعصر "التنوير".

وحتى يومنا هذا، فقد لا يستطيع أى مؤرخ أن يدرس مصر خلال أواخر القرن التاسع عشر.. دون الرجوع إلى (وصف مصر). بل إن المختصين بمصر القديمة يجدون فيه قدرًا من الأهمية: بما أن بعض النصب والمنشآت التى اندثرت منذ ذاك الحين، قد مُثلت فيه، مثل: معبد أرمنت، وجوسق طريق الكباش فى دندرة، أو المقصورة ـــ الاستراحة المشيدة فوق جزيرة إلفنتين من عصر أمنحتب الثالث. وبالنسبة لمؤرخ "العصور القديمة"، فإن خريطة الدلتا، المتضمنة للوصف الفائق الدقة لبعض النصب والمنشآت التى كانت قائمة فى عام ١٨٠٠ .. تُعد بمثابة كنز ثمين. خاصة، أن التوسع الزراعى؛ الذى استُهل منذ قرنين .. قد تسبب فى محو مواقع أثرية كاملة!

مهن رائعة

على ضفاف النيل، تدرب بونابرت على مهنته كزعيم دولة. حيث مارس، وفقًا لقول "سانت بوف" تجربة السيادة والإمبراطورية. أما عن أعضاء لجنة العلوم والفنون، فقد اكتشفوا بأنفسهم فى مصر سر عمل السلطة والنفوذ. وعند عودتهم إلى فرنسا، تولى الكثيرون منهم مهنة إدارية أو سياسية. فقد أصبح كل من "مونج" و"برتوليه" سيناتورات؛ بل وارتقوا إلى مرتبة: نبلاء الإمبراطورية. أما البعض الآخر، أمثال

"فورييه"، و"كوستاز" و"شابرول"، فقد شغلوا مناصب حكام. وهناك آخرون، مثل "دوليل" أو "ميشان": قد عُيِّنوا قناصل.

فى أرض وادى النيل، أكمل العلماء تأهيلهم وإعدادهم بشكل متميز للغاية. فقد استطاعوا أن يخرجوا من الإطار الضيق المحدود الذى كان يحصرهم فيه نظامهم ومارسوا أعمالهم فى المواقع ذاتها .. وربما أن المهندس "كوستاز"، إذا كان قد مكث فى فرنسا، فإنه كان سيعمل بعض الحسابات وكفى. ولكنه، فى مصر، استطاع أن يمضى أسابيع كاملة فى دراسة رمال الصحراء، ولون البحر!.. وها هى العلوم التجريدية والعلوم البشرية تمضيان معًا فى وقت واحد، بعالم ثقافى مميز!.. عمومًا، إن فك أسرار مصر وغموضها، يؤدى للتعرف على المصريين وتفهُّمهم.

إن العلماء الذين ذاعت شهرتهم قبل حملة مصر .. قد استمروا فى شغل مهن رائعة بفرنسا. حيث نجد: أن "مونج" قد رجع إلى منصبه السابق كمدير للمدرسة متعددة الفنون، وعضو بالمعهد. ومارس نشر الكثير من المواضيع، والمذكرات: فعمل على تطوير الهندسة الوصفية، ومبدأ العلاقات المحتملة، والمعادلات ذات التفاضلات الجزئية. وعن صديقه "برتوليه"، فقد تميز بدحضه لفكرة التقارب والتجانس، مستعينًا فى ذلك بملاحظاته فى بحيرة النترون. ثم عمل على إدماج مفاهيم حديثة عن التكوين اللا متناهى والكتلة الكيميائية. وبمصاحبة "لابلاس"، أسس شركة "أركوى". وكان يجتمع كل خمسة عشر يومًا، فى بيته بكبار الكيميائيين والفيزيائيين فى عصره (جاى لوساك، وشابتال، وأراجو..)؛ من أجل إجراء عدة تجارب، ثم التباحث بشأنها.

بالنسبة للقطع الأثرية التى أُحضرت من مصر على يد "جيوفرى سان هيلير" وسُلمت للمتحف، فقد تم الترحيب بها بتاريخ السادس من سبتمبر عام ١٨٠٢ بمعهد فرنسا، من جانب هذا الثلاثى الجليل:

"كوفيه"، و"لامارك"، و"لاسبيد". حيث وجهوا هذه العبارات إلى زملائهم المواطنين: "لم يستطع أى رحَّالة، منذ عصر "دومبى" الذائع الصيت، أن يضيف إلى مجموعاتكم هذه الوفرة والكثرة الهائلة!! بعد انتخابه مباشرة فى المعهد، أُوكل إلى "جيوفرى" كرسى الأستاذية فى علم الحيوان بالمتحف وبكلية العلوم فى باريس. ونشر الكثير من الدراسات ذات الأهمية التاريخية عن وحدة التكوين العضوى. حيث بين عن عدة تماثلات غير متوقعة بين مختلف أنواع الحيوانات.

بالنسبة لبعض العلماء الآخرين، الأصغر سنًا، اعتُبرت مصر، بمثابة وسيلة فعلية للارتقاء. فها هو عالم الطبيعيات "سافينى"، قد تميز من خلال بحثه المعنون بـ "التاريخ الطبيعى والميثولوجيا لطائر الإبيس" (١٨٠٥)؛ الذى ساعده على تخطِّى حدود علمه. وتجدر الإشارة إلى أنه، حتى ذاك الحين، كان الجميع يعتمدون على النصوص المصرية القديمة؛ فيعتقدون أن هذا الطائر يتشابه بالبلشون، الذى يتغذى بالثعابين. ولكن، "سافينى" لاحظ أنه بالأحرى يبتلع بعض الحيوانات الرِّخْوَة الصدفية اللافقارية، وكذلك بعض الحيوانات والأسماك ذات القشرة الصلبة. وقد وضح "سافينى" قائلاً: ربما أن مومياوات الإبيس قد تضمنت بعض بقايا الثعابين .. فإن ذلك يرجع إلى امتثال المحنِّطين بالطقوس والشعائر، وليس بالواقع الفعلى .. ولقد ساعدت إنجازاته فى مصر على إلهامه، فيما بعد، بمؤلَّف جوهرى وأساسى: "مذكرات عن الحيوانات اللافقارية" (١٨١٦).

عن الشاب "مالوس"، فلقد أثبت وجوده فى فرنسا كأحد كبار الفيزيائيين فى جيله. ومن خلال دراسته للانحراف المزدوج للضوء، كان أول من لاحظ ظاهرة الاستقطاب بوساطة ارتداد الضوء. وهكذا، وضع "قانون تباين انتشار الضوء"، الذى سُمى باسم: قانون مالوس. ثم أُدمج بالمعهد فى عام ١٨١٠.

لا شك أن الإقامة فى أرض وادى النيل، كانت، بالنسبة لمعظم العلماء والفنانين.. أجمل لحظات الحياة. بل إن من كانوا يسمونهم بالمصريين؛ قد احتفظوا تجاههم بروابط وثيقة. وكان البعض منهم ينتمون إلى أوساط ماسونيـــة كمثل: "منظمـــة أبو الهول العظيم"، فى باريس. وهناك، التقى كل من "مونج" و"نورى" و"جيوفرى سان هيلير"، و"فيلوتو"، وآخرون ببعض قدامى ضباط "جيش المشرق"، بالتنظيم المقدس للصوفيين: "كتابهم الذهبى"؛ بصفحات من ورق البردى، خُتم بصورة "جُعل هيروغليفية".. وفى كل عام، فى هذا المجال، كانت تُقام مأدبة عشاء كبرى، عُرفت باسم "وليمة مصر". وكانت تتيح الفرصة لتبادل الذكريات. بل وكذلك، لدعم ورعاية شبكة للتقوية والمساندة المهنية.

كتب المهندس "ديبوا إيميه" إلى "جومار" فى عام ١٨٢٧، قائلاً: "فى الصيف الماضى، مارست السباحة بالبحر فى جو عاصف، لمسافة تزيد على فرسخ!.. قطعًا، لم يتمكن سباح آخر أن يصمد كل هذا الوقت. ولكنى أؤكد لك إننى لم أتخل أبدًا عن عاداتى التى اكتسبتها فى مصر، فلتعرف، فإننى، فى فترة نهاية الربيع والصيف ما زلت أرقد فوق الأرض، على حصيرة بسيطة، كما هو الحال فى الصحراء".

إن "جومار" يجسد الاستمراريـــة فعلاً. وكان ينـــاهز الحاديـــة والعشريـــن من عمره عنـــد السفر إلى مصر. ويُعد هذا المهندس الجغرافى، أحد مؤلفى "وصف مصر" الخصب الإنتاج للغاية. فهو، يُعتبر مندوب الحكومة، الذى قاد هذا العمل حتى نهايته. بعد ذلك، كان يدير عملية استقبال البعثات المدرسية المصرية إلى باريس. كما أُنعم عليه بلقب "بك". وكان يعارض شامبليون معارضة شديدة. وربما أن ذلك، يُعد من أقل تناقضات صديق مصر الكبير هذا. ولقد عاش "جومار" حتى بلغ الخامسة والثمانين من عمره .. وكانت إحدى قدميه دائمًا فوق أرض وادى النيل. ولقد شغل منصب الرئيس الفخرى للمعهد

المصرى الذى تأسس فى القاهرة عام ١٨٥٩، على نمط الأكاديمية التى كان بونابرت قد أنشأها. واكتسب هذا المعهد فيما بعد اسم: "معهد مصر". بل لقد شغل أيضًا مرتبة الرئيس الشرفى للجمعية العالمية لقناة السويس. ولكنه، تُوفِّى قبل افتتاح هذا المجرى المائى ببضع سنوات .. والذى كان يحلم به مهندسو الحملة.

لا شك أن سعفة الصداقة القوية، تعود إلى كل من "بروسبير جولوا"، و"إدوارد ڤلييه دى تيراج". إن هذين الطالبين الشابين السابقين بالمدرسة متعددة الفنون بفرنسا، اللذين كشفا عن مقدرتهما الأثرية فى منطقة مصر العليا .. قد عادا معًا إلى فرنسا على نفس السفينة. ولقد لحق "ڤلييه" بـــ "جولوا" فى اللجنة الخاصة بـــ "وصف مصر". كما شاركه فى التوقيع على الكثير من المساهمات. وفى العام ذاته، رُقِّى إلى منصب رئيس مهندسى الكبارى والطرق. ولم يتوقفا أبدًا عن الاهتمام بعلم الآثار خلال وظائفهما المتتالية. ولكن، ها هو الموت قد فرَّق بينهما. وكان "جولوا" أول من توارى .. تاركًا صديقه يتعلم الهيروغليفية.

أمام قبر "ڤلييه دى تيراج"، بتاريخ الحادى والعشرين من أبريل عام ١٨٥٥، وقف الرجل الطاعن فى السن "جومار"، وقد اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: "وداعًا، "إدوارد دى ڤلييه". وداعًا أيا "جولوا"، وأنتم جميعًا أيا رفقاء الرحلة.. الذين سبقونا ببضعة أيام.. كانت حياتكم خصبة للغاية .. لقد تركتم وراءكم أسماء لا تفنى أبدًا!".

خاتمة

فى الذكرى المئوية الثانية للحملة الفرنسية، عام ١٩٩٨ .. قامت فى مصر ثورة. فعندما علم الكثير من المفكرين والأدباء، بأن باريس والقاهرة تزمعان إقامة سلسلة من الاحتفالات لإحياء ذكرى قرنين من الآفاق المتقاسمة .. انطلقوا ثائرين ضد البيروقراطيين .. الذين قبلوا الاحتفال بذكرى احتلال مصر!! ولم تكن الضغوط من جانب فئات النمّامين، ولا مشاعر الثأر والانتقام الشخصى كافية لكى تفسر عنف حركة التمرد هذه وشراستها.. التى ألقت بظلالها القاتمة على العلاقات ـ الممتازة ـ بين البلدين!

لا ريب أن حملة بونابرت، تتراءى اليوم أمام معظم المصريين .. كبداية لتسلسل طويل المدى من الاعتداءات الغربية ضد العالم العربى. فها هو الوطنى ذائع الصيت "مصطفى كامل"، من خلال كلمة ألقاها فى مدينة "تولوز" بتاريخ الرابع من يوليو عام ١٨٩٥، خلال الاحتلال البريطانى يتحدث عن: "فرنسا الخيِّرة الكريمة، التى أيقظت مصر من سُباتها العميق. فرنسا هذه .. التى نشرت ضياء العلوم والفنون .. وجعلت من مصر: فرنسا الشرقية. فرنسا هذه،

إلتى عاملتنا دائمًا، وكأننا أبناؤها الأعمق إعزازًا .. وجذبتنا جميعًا نحوها .. قلبًا وروحًا".

بعد مُضى أربع سنوات، فى يوم الثامن عشر من يوليو عام ١٨٩٩، خلال أحد المؤتمرات بباريس، نجده يعاود الفكرة ذاتها؛ فيقول: "لن ننسى أبدًا الجهود الدائمة من جانب العلماء الفرنسيين .. لتحريكنا من نومنا طويل الأمد. بل لكى يوقظوا فينا الإرادة والعزيمة للسير قُدمًا. وأيضًا، لكى يُنعشوا فى دمائنا ذاتها ــ إذا جاز تعبيرى هذا ــ حضارة أسلافنا العريقة!".

إن "ناصر" ذاته، قد أقر فعلاً بأن الحملة كان لها عدة جوانب إيجابية. وبذا، فها هو "ميثاق الجمهورية العربية المتحدة"، الذى نُشر فى عام ١٩٦٢، يحدد: ".. ومع ذلك، فإن الحملة الفرنسية، قد قدمت مساعدة جديدة للطاقة الثورية لدى شعب مصر، فى تلك الحقبة. لقد جاءت بعدة مظاهر للعلوم الحديثة، التى كانت الحضارة الأوروبية قد أجادتها وطورتها .. بعد أن استقتها من جهات أخرى؛ خاصة من الحضارتين: الفرعونية والعربية. بل إنها أتت أيضًا بكبار الأساتذة، الذين استهلوا دراسة حال مصر.. وكشفوا أسرار تاريخها العريق".

وفى القاهرة، ها هم أكثر المحبين لفرنسا يؤكدون: "لقد جاء بونابرت إلى مصر ومعه المدافع والمطبعة. فرجعت المدافع .. وبقيت المطبعة". ولكن، هذه الحجة، سرعان ما نقضها تمامًا آخرون؛ فقالوا: "بل إن المطبعة قد رجعت، والمدافع فقط هى التى بقيت!". ولكن، فى واقع الأمر، لم يتبق شىء يُذكر بعد الانسحاب الذى تم فى صيف عام ١٨٠١. فالفرنسيون رجعوا، مثلما جاءوا. وكذلك مصر أيضًا .. عادت إلى عاداتها وتقاليدها!! ولكنها، لم تكن، بالضبط، كما كانت من قبل. فإن مجابهتها العنيفة مع المدنية، ثم مقاومتها للمستعمر .. كل ذلك قد عمل على قلب صفحة من صفحات التاريخ.

فى اللغة الفرنسية، وفقًا لما بينه قـاموس "Le Petit Robert" أن كلمة "حملة"، قد تتضمن معنيين: أولهما: "عملية حربية، تحتم تحرك الفرق المحاربة". بل وتعنى أيضًا: "رحلة استكشافية فى بلدٍ ناءٍ بعيد .. صعب الوصول إليه". وفى واقع الأمر، أن العملية التى تمت فـى عام ١٧٩٨، قد قصدت المعنيين على حد سواء. كما أن مظاهرهـا العسكرية والعلمية، لا تنفصل مطلقًـا عـن بعـضها الـبعض. لأن الاستكشاف، لا يمكن أن يتم بدون الغزو. وكذلك فإن الغزو لا يتبقى منه شيء .. إذا لم يكن الاستكـشاف بالنـسبة لـه بمثابـة وسـيلة للاستمرار؛ وحُجَّة وذريعة أيضًا.

يا لها من حملة علمية عجيبة الشأن!.. لا يعرف أعضاؤها إلى أين سيذهبون! فربما أن البعض كانوا سيرفضون الذهاب إلى مصر. ولكن على العكس، ربما أن آخرين قد بقوا فى باريس، وكانوا، بدون أدنى شك سيذهبون للانخراط فى صفوف الجيش .. إذا كـانوا قـد عرفوا أن الهدف: من أجل استكشاف بلد الفراعنة!.. ويُحتمل أن هذه الرحلة العلمية كانت ستبدو أفضل إعدادًا، لو أن غايتها لم تبقِ فـى طى الكتمان، لدواعٍ عسكرية.

عند وصولهم إلى مصر، لاقى العلماء صعوبات جمة؛ خاصـة لضياع جزء كبير من أدواتهم؛ وأيضًا لانقطاع الاتصالات مع فرنسا. ولكن، مهما كان الأمر، ربما أن مفاجآت المغامرة، وطراوة النظـرة والارتجال من كافة أوجهه، هى جميعها التى أتاحت اكتشاف بمثـل هذه الروعة لأرض وادى النيل.

كان اكتشاف مصر ضمن أهداف المشروع. ولا شك أن الهدف قد تحقق إلى أبعد مدى، رغم ضيق الوقت والصعوبات الكثيرة. ولقد عمل كل هذا الأداء المذهل على فتح الطريق أمام علـم جديـد؛ ألا وهو: "علم المصريات"؛ وكان بمثابة نموذج من أجل استكشاف بقية أفريقيا. ولقد ساهم بكل فاعلية بعض الأشخاص القدماء فـى مـصر

• أمثال "فوربيه"، و"جومار"، و"كوستاز"، و"جاكوتين"، لإنشاء "الجمعية الجغرافية" فى عام ١٨٢١. وفى سياق "وصف مصر"، نُشرت قائمة أثرية وفنية عن الجزائر فى عدة كتب بداية من عام ١٨٤٤.

قد يكون الإجراء العلمى غير برىء. فوفقًا لما ذكره عالم الاجتماع "إدوارد سعيد" أن "وصف مصر" قد افتتح محاولة إيديولوجية من جانب الغرب .. الذى أراد أن يصنع مشرقًا حسب المقاس والطلب لوقايته من مخاوفه .. وليؤكد سطوته الشخصية عليه. وكان الأمر يقتضى إذًا، التقليل من الفرق الذى يعانيه هذا العالم الآخر؛ وأيضًا تقريبه من أوروبا .. واستيعابه وشفطه تمامًا فى نهاية الأمر!.. وهذا ما حققته، رمزيًا قناة السويس: التى جمعت ما بين العالمَيْن.

وكان أمام "حملة ١٧٩٨" أيضًا هدف معلن وظاهرى ألا وهو: "إرجاع العلوم والفنون إلى بلدها الأصلى".

إذًا، فبفضل بونابرت وجنوده، وعلمائه وفنانيه، عادت إلى حد ما الحضارة إلى بيتها. وعلى حد قول "ميشليه": "إنها لم تكن غزوة عادية، مشرئبة نحو الطمع والشراهة ..بل إنها، بالأحرى الأمل المفعم بالخيال والوهم، الساعى .. لبعث جديد".

ربما كان بمثابة أمل. ولكنه أمل فقط لا غير. فإن مصر لم تكن مجرد صحراء قاحلة فيما يتعلق بالثقافة فى عام ١٧٩٨؛ كما أنها لم تغير وجهها، خلال احتلال مداه ثمانية وثلاثون شهرًا فحسب! كما نجد أن الفرنسيين لم يمارسوا تأثيرًا ثقافيًا إلا على عدد محدود جدًا من المصريين .. وضمن هؤلاء الأخيرين تجب الإشارة إلى الشيخ "حسن العطار" (١٧٦٦-١٨٣٥)؛ الذى درَّس اللغة العربية للكثير من أعضاء الحملة. وكان مهتمًا وشَغُوفًا للغاية بروح "الأنوار Les lumieres". ولقد شغل رجل الدين المسلم هذا، على مدى ربع قرن وظائف مهمة بالقاهرة. كمثل: ناشر للجريدة الرسمية، وعميد

جامعة الأزهر. وإليه يرجع الفضل فى إرسال الشاب "رفاعة الطهطاوى" إلى فرنسا؛ فى إطار بعثة دراسية فى عام ١٨٢٦: إنه أصلاً المؤسس لحركة نهضة فكرية وأدبية وثقافية فى بلده. ولكن الأمر، يتعلق هنا، على أية حال، بأحوال خاصة. فإن المصريين القليلين الذين دُمغوا فعلاً بالثقافة الفرنسية .. هم الأقباط، والمسيحيون المنحدرون من أصل سورى. وتجدر الإشارة إلى أن أكثرهم ارتباطاً بها .. قد غادروا بصحبة قوات الاحتلال!!

ربما إذا لم يكن الأسطول قد دُمر فى أبى قير؛ أو إذا كان الفرنسيون قد بقوا مزيدًا من السنين فى مصر .. لكانت النتيجة مختلفة. ولكن، فى هذا الحال، كان الأمر سيبدو مجرد احتلال كلاسيكى بحت .. بكل تجاوزاته وانحرافاته، ومنهاه!

فى واقع الأمر، أن الصدمة التى أحدثتها الحملة الفرنسية كان لها صدى غير مباشر، وطويل الأمد. وكأن الأمر مجرد قنبلة موقوتة!!.. ولا شك أن تدمير النظام المملوكى قد مهد الطريق أمام رجل مصر القوى الجديد .. "محمد على"! ويجب الإشارة إلى أن هذا الأخير لم يستطع تولِّى السلطة فى عام ١٨٠٥؛ إلا من خلال تحالف بين شعب القاهرة والعلماء (المسلمين). وكان هؤلاء الأخيرون قد شعروا بمدى قوتهم .. عندما ثاروا لمرتين متتاليتين ضد المحتل الفرنسى. فها هنا إذًا، للمرة الأولى فى تاريخ الإمبراطورية العثمانية .. يقوم شعب باختيار رئيس .. بل وبفرضه على "الباب العالى"!!

بشكل متناقض، كان الأمر يقتضى الانتظار حتى نهاية الحملة وصدمتها .. لكى تبدأ العلاقات الفرنسية المصرية فى الترابط؛ ولكى تجد فرنسا مكانًا لها فى مصر. ولقد لجأ "محمد على" إلى أعداء الأمس لمساعدته، لإعداد جيْش مستحدث (بقيادة الكولونيل "سيف"، سليمان باشا لاحقًا)، وإنشاء نظام طبى (بمساعدة الدكتور "كلوت"، كلوت بك المقبل)، أو تكوين مشاريع وعمليات كبرى (بمعاونة

• مهندسين أمثال "لينان دى بلفوند"، أو "باسكال كوست"). وبُعثت إلى فرنسا الكثير من البعثات. وفى إطار مجالات عدة، على غرار التعليم؛ اعتُبر النظام الفرنسى بمثابة النموذج الأمثل .. لمختلف المؤسسات المصرية.

وعمل فك غموض الرموز الهيروغليفية بفضل شامبليون، بداية من عام ١٨٢٢، على ازدياد انبهار وسحر الفرنسيين ببلد الفراعنة!.. فقد اندفع البعض منهم للإقامة فى أرض وادى النيل. كمثل: "أ. ماريبيت"، مكتشف السرابيوم والمؤسس للمتحف المصرى بالقاهرة. ويُلاحظ أن منصب "مدير الآثار المصرية"؛ وكان أول من حظى به، فى الفترة ما بين ١٨٥٨ ــ ١٨٨٠، قد بقى طوال قرن كامل .. بين أيدى الفرنسيين.

وبالنسبة لقناة السويس، التى تمت دراستها من جانب مهندسى الحملة؛ وإنشاؤها بعد سبعين عامًا بفضل "فرديناند ديليسبس" .. فقد زادت ثقلاً من الوجود الفرنسى فى مصر. وبشكل متوازٍ، أنشأ بعض رجال الدين الكاثوليك، ومن بعدهم "البعثة العَلْمانية" (الفرنسية) .. أكثر المدارس تميزًا وتفوقًا فى أنحاء مصر. ونمت وتألقت صحافة ناطقة بالفرنسية مزدهرة على ضفاف النيل. واستطاعت لغة "موليير" أن تثبت وجودها فى الصالونات، ومجال الأعمال، والقضاء والإدارة .. فى حين كانت مصر تقع تحت الاحتلال الإنجليزى.

ها هنا إذًا عمل باهر!.. تبقَّت منه الكثير من العلامات والأدلة. وذلك بالرغم من تعريب البلد .. وأمْرَكَة العقول!!. إن هذا الغزو السلمى، لم ينبع أبدًا من القهر والإرغام .. بل من الإبهار والافتتان .. إنه، بلا شك الغزو الذى كان يحلم به، فى أيامهم الجميلة .. أفضل "علماء بونابرت".

الملاحق

ملحق (١)
لجنة العلوم والفنون

إن تكوين لجنة العلوم والفنون، لم يُعرف أبدًا بالتحديد. فهناك حوالى نصف دستة من القوائم تتباين عن بعضها البعض، سواء فى عدد المسجلين، أو بالنسبة للمِهَن المذكورة.

عامة، إن القائمة التى ذُكرت غالبًا هى المقدمة من أمين الصندوق العام المدعو "ستيف". وكانت قد تم وضعها خلال العبور من "طولون" إلى "مالطة". وتضم عددًا إجماليًا من الأعضاء: ١٦٧ عضوًا. إنهم كالآتى: ("٢١ عالمٍ رياضيات"، "٣ فلكيين"، "١٥ عالم طبيعيات ومتخصصًا فى علم المعادن"، "١٧ مهندسًا مدنيًا"، "١٥ جغرافيًا"، "٤ معماريين"، "٣ مهندسين مختصين فى بناء السفن الكبرى"، "٨ رسامين"، "١ نحات"، "١٠ فنيِّى ميكانيكا"، "٧ أدباء وسكرتاريين"، "٣ إخصائيين فى المساحيق والبارود"، "١٥ قنصلاً ومترجمًا"، "٩ ضباط صحة"، "٩ مختصين بالحَجْر الصحى"، "٢٢ طبَّاعًا"، "موسيقيان").

ثم ها هنا قائمة أكثر دقة، وضعها "جان إدوار جوبى". وتتميز بأنها اسمية. وقد نُشرت فى بيان معهد مصر (المجلد الثامن والثلاثون ــ ١٩٥٧). وتقدم ما يلى:

- **عدد ٤ مهندسين:** كورانسيه، وكوستاز، وفورييه، ومونج.
- **عدد ١ كيميائى:** برتوليه.
- **عدد ٣ فلكيين:** نويه، وكينو، وميشان.
- **عدد ٣ مختصين بالآداب:** دينون، ولوروج، وبارسيفال دى جراند ميزون.
- **عدد ١ اقتصادى:** جلوتييه.
- **عدد ١ فارس** مالطة القديم: سان سيمون.
- **عدد ٢ عالم أثرى:** بورلييه، وريبولت.
- **عدد ٨ مترجمين:** بيلليتيست، وديلابورت، وفاتالا، وجوبير، ولونوبل، وبان هوش، وريج، وريال.
- **عدد ٧ جراحين:** ديبوا (أنطوان)، ودوبوا (إزيدور)، ولابات، وبسيير، وديويفر، ولاسيبير، وبوكفيل.
- **عدد ٣ صيادلة:** بوديه، وروجان، وروييه.
- **عدد ٧ علماء فى الطبيعة:** رافينو دوليل (ألير)، ودولوميو، وجيوفرى سان هيلير، ونكتوكس، وساڤينى، وكوكبير دى مونتبريه، وجيرارد.
- **عدد ٤ معماريين:** بلزاك، ولوبير، ونورى، وبروتان.
- **عدد ٨ فنيِّى ميكانيكا:** كاسيكس، ودوترتر، وفوكيه، وجولى، وريدوتيه، وريجل، وريجو، وفيلوتو.
- **عدد ٥ مهندسى مناجم:** كورديه، وديسكوتيل، وبرنار، ودوبوى، وروزيير.
- **عدد ١٤ مهندسًا جغرافيًا:** بورجوا، وفورى، وجاكوتين، وليدوك، ولوفيسك، وسيمونل، وتيستفويد، وبرتر، وكورابوف، ودوليون، وجومار، ولاروش، ولوسسن، وبوتييه.

- **عدد ١٤ مهندس كبـارى وطـرق:** أرنوليـه، وبـودار، وشابرول دى فولفك، ودوفال، وفاى، وفيفر، وجيرار، وجولوا، ولانكريه، ولوبير (جراتيان)، ولوبير (چاك مارى)، ورافينـو دوليل (أدريان)، وسان جينى، وتيفنود.

- **عدد ٣ إخصائيين فى المساحيق والبـارود:** شـامبى (چاك بيير)، وشامبى (چان نيقولا)، ولوبران.

- **عدد ٣ مهندسى ميكانيكا:** سيسيل، وكونتيه، ولونوار.

- **عدد ٣ مهندسين متخصصين فى بناء السفن والبـوارج:** بوشيه، وشومو، وجريزل.

- **عدد ١٣ طالبًا من المدرسة متعددة الفنون:** ألبير، وبوشار، وبرينجوى، وكاريستى، وشابو، وديبوا إيمى، وفافييه، ومولين دى سان يون، وموريه، وبيكيه، وبوتييه، ورينيولت، وڤلييه دى تيراج.

- **عدد ٥ طلاب آخرين:** دوشانوى، وفوسو دى سان كليمنت، ولوبير، وفيارد، وفانسان.

- **عدد ٩ فنيّى ميكانيكا:** آدنيس (بيير أونيسيم)، وآدنيس الابن، وإيمى، وسيروت، كولان، وكوفرور، وديسفور، وهاسـنفراتز، وهيرولت.

- **عـدد ٢٧ مهندسًـا:** آنـسيجليون، وبـودوان، وبيـسون، وبولانجيه، وبواييه، وكارى، وداموجو، ودومينيسيز، وديبـوا، وإيرهـارت، وجاللانـد، و"جـارو"، وجـاردان، ولابـورت، وليتيوكس، ولندمان، وماكانى، ومارسيل، ومارليه، وميزابكى، وبلليجرينى، وبونتيس، ورينو، وريفيه، وروسيللى، وروجـوا، وفيرى.

- **الإجمالى:** عدد ١٤٨ مائة وثمانية وأربعون فردًا.

وها هو أيضًا "چان إدوار جوبى" يبين:

- **عدد ٣ مواطنات:** بيسون، وداموجو، وماربيل.
- **عدد ٢ شخصين مكثا فى مالطة:** أرنولت، ورينيو دى سان چان دانجيلى.
- **عدد ١٥ حالة:** غير مؤكدة.

ويمكننا أن نضيف إلـــى قائمتـــه هـــذه: المهنـــدس "كوتيـــل"، والمستشرق "فـــانتور دى بـــارادى"؛ وكـــذلك الفلكـــى "بوشـــامب"، والاصطلاحى السابق "تاليان"، رغم أن هذين الأخيرين قد حضرا إلى مصر بعد وصول جيش الحملة بأكمله.

ضمن الــ ١٦٠ عضوًا بلجنة العلوم والفنون، فقد تُوفِّى مـــنهم فى مصر: ٢٥ فردًا، ضـــحايا الطـــاعون: "بـــودار"، و"برينجيـــه"، و"شامبى"، و"كوكبرت دى مونتبرى"، و"هيرولت"، و"ليروچ".

الذين اغتيلوا، "ديفال"، و"تيستفويد"، و"تيفينود".

الذين وقعوا صرعى خلال المعارك؛ شابو، وديويفر، وفورى، وفوسو، وجولى، وبيكيه، وسان سيمون، وفانتور دى بارادى.

فى ظروف أخرى: بوشامب، وسيروت، وكولان، ودوليـــون، وجلوتيه، ولابورت، وليدوك، وبانهوسن.

ملحق (٢)

"معهـــد مصـــر"

تم إنشاء "معهد مصر" بمرسوم صـــادر فـــي الخـــامس مـــن فروكتيدور بالسنة السادسة (٢٢ أغسطس عام ١٧٩٨)، مُوقّع عليـــه باسم "بونابرت"؛ حيث يحدد هدفه كالآتي:

١ــ العمل على تقدم وانتشار "التنوير" (العلم والمعرفـــة) فـــي مصر.

٢ــ البحث العلمي، دراسة ونشر الوقائع الطبيعية، والصناعية، والتاريخية بمصر.

٣ــ أن يدلي برأيه فيما يتعلق بمختلف المسائل، التي تستـــشيره بشأنها الحكومة.

ولقد تأسست به أربعة أقسام يتكون كل منها من اثنـــي عـــشر عضوًا. وهي تتعلق: بالرياضيات، والفيزياء، والاقتصاد الـــسياسي، والآداب والفنون الجميلة. ولكن، في البداية، يُلاحظ أن القـــسم الأول هو الذي كان قد زُود تمامًا بما يلزم. ومن خلال القائمة المقترحة من جانب لجنة تأسيسية مكونة ومعدلة بوساطة بونـــابرت يلاحـــظ: أن هناك كرسييْن خاليين في قسم الفيزياء، وستة بالاقتـــصاد الـــسياسي، وأربعة في الآداب والفنون الجميلة.

الرياضيـــــات

أندريوسى	فورييه	ليروى	نُوى
بونابرت	چيرارد	مالوس	كينوت
كوستاز	لوبير	مونج	ساى

ولقد انتُخب "لانكريه" فى الرابع من يوليو عام ١٧٩٩، بعد وفاة "ساى".

الفيزيـــاء

برتوليه	بيسكوتيل	ديبوا	ساڤينى
شامبى	ديزجينت	جيوفرى	سان هيلير
كونتيه	دولوميو	رافينو دوليل	

انتُخب لاحقًا كل من: "بوشامب"، و"لارى"، و"بوديه".

الاقتصاد السياسى

كافاريللى دى فالجا	بوسيلج	سوسى
جلوتييه	سولكوسكى	تاليان

انتُخب لاحقًا: "بورين"، و"كورنسى"، و"ديــسيكس"، و"رينييـــه"، و"دوجا"، و"چاكوتان".

الآداب والفنون الجميلة

دينون	نورى	دوم رفائيل	ريجل
دوترتر	بارسيفال	ريدوتيه	فانتور دى بروتان

انتُخب لاحقًا: "لوبير"، و"ريبولت"، و"كليبر"، و"بروتان".

إجمالاً، يبـــلغ عدد أعضاء "المعهد" واحدًا وخمسين عضوًا. وهم لا يشاركون جميعًا فى لجنة العلوم والفنون.

فيما يتعلق بالرئاسة، التى تتحدد كل ثلاثة أشهر، تتابع كل من: "مونج"، و"بونابرت"، و"برتوليه"، و"ديزجينت"، و"نوى"، و"كونتيـه"، و"شامبى". أما عن "فورييه"، فقد شغل منصب السكرتير الدائم طوال السنوات الثلاث التى استمر خلالها نشاط "المعهد". وبالنسبة لوظيفة أمين المكتبة، فقد تولاها العالم الأثرى "ريبولت". وبعد سفره من مصر فى سبتمبر عام ١٨٠٠، حل مكانه عالم النباتات "كوكبيرت دى مونبرت".

وقد نص قرار بونابرت على: "أن القادة العسكريين يمكنهم حضور كافة الجلسات. وبموافقة من الرئيس ذاته، ويُسمح أيضًا للأشخاص غير المنتمين للمعهد، بأن يحضروا لقراءة بعض التقارير، أو لتقديم اختراعات جديدة. وتقوم لجنة مكونة من خمسة أعضاء باختيار التقارير التى تستحق النشر".

نصت لائحة المعهد على عقد جلستين كل عشرة أيام؛ فى الساعة السابعة صباحًا. ولكن لم يُتبع مطلقًا هذا النظام: فلقد اعتاد الأعضاء أن يجتمعوا مساء. كما تسببت الأحداث فى إلغائهم لمرات عديدة لأوجه نشاطهم!.. ولقد بلغ إجمالى الجلسات التى عقدها المعهد: ٦٢ جلسة.

فى السنوات العشر الأولى من القرن التاسع عشر، تمت عدة محاولات فى مصر من أجل إعادة تكوين جمعية علمية وأدبية. وأخيرًا، فى عام ١٨٥٩، خلال حكم "سعيد باشا"، نائب الملك الذى يجيد اللغة الفرنسية ويناصر الأوروبيين .. تأسس "المعهد المصرى" فى الإسكندرية. ثم تم نقله إلى القاهرة عام ١٨٨٠. بعد ذلك، أضفى عليه السلطان "فؤاد" اسم "معهد مصر" فى عام ١٩١٨. وما زالت هذه الأكاديمية، التى تجمع ما بين المصريين والأجانب، قائمة حتى الآن. ولكنها ليست نشطة أو منتعشة .. كما توضحه مَقارُها غير الأنيقة فى قلب القاهرة!

ملحق (٣)
"وصف مصـــر"

"وصف مصر" .. قدم له "جوزيف فوربيه". وقد انقسم هذا العمل إلى ثلاثة أقسام كبرى، هى: العصور القديمة، والعصر الحديث، والتاريخ الطبيعى.

عن الطبعة الإمبراطورية، فقد طُبع منها ألف نسخة. وصدرت بشكل متتالٍ، فى الفترة الواقعة ما بين ١٨١٠ـ ١٨٢٦. وهى تتكون من تسعة كتب نصفية، من النصوص؛ التى يصل كل منها إلى ٨٠٠ صفحة؛ وأحد عشر كتابًا من اللوحات، تتضمن، إجمالاً أكثر من ثلاثة آلاف رسم. وعن اللوحات، فإن البعض منها ملون. والأصغر حجمًا منها تصل أبعادها إلى: ٧٠، ٥٤ سنتيمترًا. أما الأكبر حجمًا؛ فهى: ١٣٥سم×٧٠سم. وهناك خريطة عن مصر وفلسطين، على مستوى (١/١٠٠٠٠٠)، نُشرت فى ٤٧ صفحة مزدوجة؛ وأُكملت بخريطة عامة فى ثلاث صفحات مزدوجة، على مستوى (١/١٠٠٠٠٠٠).

وعن الطبعة الثانية، التى قدمها للأسواق "بانكوك" فى الفترة ما بين ١٨٢١ و ١٨٢٩ فكان إهداؤها إلى لويس الثامن عشر. إنها تتميز بسهولة استعمالها وقلة الثمن عن الأولى. وقد تضمنت ٢٦ كتابًا قَطْع ١/٨ من النصوص؛ و ١١ كتابًا نصفيًا من اللوحات بالأبيض

والأسود. وتجدر الإشارة إلى أن حال قطع النحاس لم يسمح بالوصول إلى أكثر من ٢٠٠٠ نسخة.

ضمن التقارير البالغ عددها ١٢٦ تقريرًا، القائمة فى كتاب "وصف مصر" خُصصت منها ثلاثون للآثار القديمة، وأربعة وعشرون للجغرافيا الفيزيائية، وواحد وعشرون للتاريخ الطبيعى. وها هنا القائمة ــ تستوعب أيضًا التقارير الجماعية ــ التى تبرز ثراء هذه العملية الكبرى وتنوُّعها. وقد كُتب اسم المؤلف بين قوسين.

(١) العصور القديمة

وصف

الجزء الأول: آثار مصر العليا، وجزيرة فيلة وطيبة.

الجزء الثانى: الآثار، من دندرة إلى الإسكندرية.

تقارير

الجزء الأول

نيلومتر إلفنتين (چيرارد).

الزراعة عند قدماء المصريين (كوستاز).

بحيرة موريس، ومقارنتها ببحيرة الفيوم (جومار).الأوانى المعروفة باسم موران (روزيير).

الجغرافيا المقارنة، بالأحوال السابقة لسواحل البحر الأحمر (روزيير).

فلك البروج عند قدماء المصريين (روزيير).

إلآلات الموسيقية المنقوشة على الآثار القديمة فى مصر (فيلوتو).

مذكرة عن أساليب التحنيط لدى قدماء المصريين (روزيير).

مذكرة عن الفرع الكانوبى (لانكريه).

مقالة عن تفسير مشهد فلكى (جومار).

أطلال أحد الآثار المكتشفة فى خليج السويس (روزيير).

أفرع النيل القديمة (ديبوا إيمى).

مقالة عن العبرانيين فى مصر (ديبوا إيمى).

المقاييس الزراعية عند المصريين القدماء (چيرارد).

الموسيقى فى مصر القديمة (فيلوتو).

أبحاث خاصة بالنقوش الغائرة الفلكيـــة عنـــد المـــصريين (جولوا، وديفيليه).

النظام المترى لدى قدماء المصريين (جومار).

أبحاث فى العلوم والحكومة بمصر (فورييه).

الجزء الثانى

الكتابات القديمة.

نبذة تاريخية عن فن صناعة الزجاج، التى عُرفت فى مصر (بوديه).

ملحوظات عن أهرام الجيزة (كوتيل).

تعليقات عن العلامات الرقمية لدى قدماء المصريين (جومار).

الآثار الفلكية بمصر.

مقارنة بين الأهالى فى مصر القديمة، والحديثة (جومار).

تفسير للعديد من اللوحات القديمة.

ست عشرة لوحة تمثل الكتابات الوسيطة بحجر رشيد.

عدة لوحات تمثل بعض الأوسمة من سوريا، عثر عليها م. كورناسيه.

لوحات تتعلق بالجغرافيا المقارنة.

ملحوظات وأبحاث خاصة بأهرام مصر (جومار).

تقرير قُدم فى المعهد بخصوص رداء مصرى.

(٢) العصر الحديث

الجزء الأول

ملحوظات فلكية ١٧٩٨ـ١٨٠٠ (نوى).

الاتصال ما بين المحيط الهندى والبحر المتوسط (لوبير).

الحدود القديمة الخاصة بالبحر الأحمر (ديبوا إيميه).

مدينة القصير (ديبوا إيميه).

فن تفريخ الفراريج (روزييه وروييه).

نبذة عن الأدوية الدارجة لدى المصريين (روييه).

نظام فرض حكومة المماليك للضرائب، وإدارتها (لانكريه).

بحيرة المنزلة (أندريوسى).

وادى بحيرات النطرون؛ ووادى "النهر" الجاف (أندريوسى).

الشئون المالية فى مصر، منذ أن غزاها السلطان سليم (ستيف).

النوبة والبرابرة .. (كوستاز).

ملحوظات عن عيون موسى (مونج).

وصف لفن صناعة ملح محلول النشادر (لوليه وديسكوتيل).

تقارير وملحوظات عن الأمراض الوبائية (لارى).

نظام الفصول فى مصر.

تقارير عن الكتابات الكوفية التى جُمعت فى القاهرة (مارسيل).

ملحوظات عن العرب فى مصر الحديثة (جومار).

القبائل والعشائر العربية فى صحارى مصر (ديبوا إيميه).

الفن الموسيقى فى مصر، بالعصر الحالى.

وصف للآلات الموسيقية الخاصة بالشرقيين (فيلوتو).

الجزء الثانى

نبذة عن التكوين الجسدى للمصريين (لارى). تقارير خاصة بالجزء الغربى من إقليم البحرية (جراتيان لوبير).

نبذة عن إعداد الجلود فى مصر (بوديه).

مقياس النيل بجزيرة الروضة (مارسيل).

رحلة بداخل الدلتا (ديبوا إيمى وجولوا).

موجز لترتيب زمنى عن تاريخ مماليك مصر (ديلابورت).

قنال الإسكندرية (لانكريه، وشابرول).

وصف هيدروجرافى لمناطق بنى سويف والفيوم (مارتن).

نبذة عن المكاييل العربية القديمة والحديثة (برنارد).

مفردات ومصطلحات خاصة بالقبائل والعشائر العربية، المعسكرة فيما بين مصر وفلسطين (جوبيرت).

ملاحظات عن طبوغرافية (تحديد المواقع والأماكن) شبه جزيرة سيناء (كوتيل).

الأحوال القديمة والحديثة للأقاليم الشرقية بمصر السفلى (مالوس).

قائمة وفيات للقاهرة خلال السنوات: ٧-٨-٩ (ديزجينت).

تقارير عن العملات النقدية بمصر (برنارد).

مقتطف من تقرير عن البحيرات والصحارى بمصر السفلى (جراتيان لوبير).

نبذة طبوغرافية بين الرحمانية والإسكندرية (شابرول ولانكريه).

الزراعة والصناعة والتجارة فى مصر (چيرارد).

تذييل ملحق بتقرير عن الحدود القديمة للبحر الأحمر (ديبوا إيميه).

توضيح وتفسير للوحات المتعلقة بالفنون والمهن.

تقرير عن تكوين خريطة مصر (چاكوتان).

نيلومتر (مقياس النيل) بجزيرة الروضة، الجزء الثانى (مارسيل).

مدينة الإسكندرية (جراتيان لوبير).

صورة جانبية لتسوية أرض وادى النيل وتعبيدها، فى ما بين الروضة والجيزة (جراتيان لوبير).

نبذة عن مدينة رشيد (جولوا).

نبذة عن عادات وتقاليد الأهالى الحديثين فى مصر (شابرول).

تقرير عن وادى النيل ومقياس النيل القائم بالروضة (چاك مارى لوبير).

قائمة بمساحة مصر (چاكوتان).

وصف مختصر لمدينة القاهرة وقلعتها (جومار).

- نبذة عن إنتاج آلات الرى، وبصفة خاصة الشادوف.

قائمة جغرافية أو بيان عام لأسماء الأماكن والمواقع فى مصر.

(٣) التاريخ الطبيعى

الجزء الأول

التاريخ الطبيعى لأسماك النيل (جيوفرى سان هيلير).

وصف لنخلة دوم بمصر العليا (دليل).

مقارنة ما بين نباتات مصر وتلك الخاصة بفرنسا.

النظام المتعلق بطيور مصر وسوريا (سافينى).

وصف لزواحف مصر (جيوفرى سان هيلير).

توضيح مختصر للوحات الزواحف (سافينى).

وصف لتماسيح مصر (جيوفرى سان هيلير).

تكملة للتاريخ الطبيعى لأسماك النيل (جيوفرى سان هيلير).

أسماك البحر الأحمر والبحر المتوسط (جيوفرى سان هيلير).

جدول قياسى خاص بالقربيات (حيوان بحرى)؛ ثلاثة تقارير (سافينى).

النظام الخاص بالحلقيات على سواحل مصر وسوريا (سافينى).

توضيح موجز للوحات الرخويات فى مصر (سافينى).

تفسير مختصر عن لوحات الحلقيات بمصر وسوريا (سافينى).

توضيح مجمل للوحات المتعلقة بالحيوانات والأسماك ذات القشرة الصلبة؛ والعناكب، والحشرات، إلخ..

نبذة عن التاريخ الطبيعى والميثولوجى الخاص بطائر الإبيس.

الجزء الثانى

تقرير عن النباتات التى تنمو تلقائيًا فى مصر (دوليل).

تاريخ النباتات التى تُزرع فى مصر (دوليل).

وصف لوادى التيه (چيرارد).

حديث عن شكل صخور مصر والجزيرة العربية (روزيير).

رسوم عن الزهور المصرية.

وصف يتعلق بالمعادن فى وادى القصير (روزيير).

وصف للثدييات التى تعيش فى مصر (جيوفرى سانت هيلار).

النباتات فى مصر؛ تفسير للوحات (دوليل).

ملحوظات عن تغيرات البارومتر (مقياس الضغط الجوى).

ملحوظات ترتبط بالأرصاد الجوية والرطوبة الجوية (نوى).

ملحوظات عن وادى النيل وعن الارتفاع القديم للأرض (چيرارد).

تحليل لغرين النيل (رينيو).

التكوين الفيزيائى لمصر (روزيير).

توضيح اللوحات الخاصة بالمعادن وتفسيرها (روزيير).

وصف للثدييات، الجزء الثانى (جيوفرى سان هيلير، وأندوين).

وصف موجز للثدييات آكلة اللحوم فى مصر (سافينى).

ملحق (٤)
نبذات عن السيَر الذاتية
(مرتبة حسب الأبجدية العربية)

أندريوسى، أنطوان ــ فرنسوا: جنرال

وُلد فى كاستلنودار أود فى السادس من مارس عام ١٧٦١. طالب نابغة بمدرسة المدفعية فى مدينة متز. وأظهر براعة واضحة فى إيطاليا، حيث ترقى إلى رتبة جنرال لواء.

إن هذا الضابط الكبير، ضمن جيش الحملة، قد أفصح عن إلهام علمى بوادى النيل. واندمج بمعهد مصر فى العشرين من أغسطس عام ١٧٩٨، بقسم الرياضيات. وهناك، انتُخب نائب رئيس، بعد عشر سنوات. وقد أشرف على عملية الاستكشاف ببحيرات النطرون. وباعتباره مسئولاً عن جهاز عتاد ومهمات الكبارى، فقد أجرى عدة عمليات سبر أغوار البحيرات، والخلجان، ومصبات النيل.

بعد سفره من مصر مع بونابرت، بتاريخ الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٩، أصبح الجنرال "أندريوسى" سفيرًا فى لندن، ثم فى ڤيينا؛ ومن بعدها إسطنبول. وضمن مؤلفاته: "تاريخ قناة ميدى" (١٨٠٠). وعُين نبيل إمبراطورية (١٨٠٩)؛ بعد ذلك: صاحب إقطاعية بفرنسا (١٨١٥). كما انتُخب بأكاديمية العلوم (١٨٢٤)؛

وشغل منصب نائب الرئيس (١٨٢٧). وتُوفِّى فى العاشر من سبتمبر عام ١٨٢٨ فى جونتوبان.

بارسيفال جراند ميزون، فرنسوا أوجست: شاعر

وُلد فى باريس، فى السابع من مايو عام ١٧٥٩. وكان أبوه مزارعًا عامًا. وانكبَّ على قرض الشعر بعد عدة تجارب غير ناجحة فى فن الرسم.

ورحل على السفينة "فرانكلين". وبعد انضمامه إلى معهد مصر بتاريخ الثانى والعشرين من أغسطس، قدم لمرات عدة بعض الأشعار دون المتوسط. ولعقابه لأنه رفض أن يأخذ على عاتقه إدارة جريدة أنباء مصر، أرسله بونابرت لتولِّى إدارة الجمرك فى السويس، بالأشهر الستة الأولى بعام ١٧٩٩.

لم يكن من المفترض أن يغادر "بارسيفال" مصر، بصحبة القائد العام، فى شهر أغسطس عام ١٧٩٩. ولشدة إلحاحه تمكن من الإبحار. ولقد انتُخب بالأكاديمية الفرنسية (١٨١١). ومات فى باريس، فى السابع من ديسمبر عام ١٨٣٤.



برتوليه، كلود لويس: كيميائى

وُلد فى مدينة "تاللوار" فى سافوا بتاريخ التاسع من نوفمبر عام ١٧٤٨. وحصل على دكتوراه فى الطب من مدينة تورين. ثم أصبح الكيميائى الخاص لدوق أورليان فى باريس. ولأنه تجنس بالجنسية الفرنسية، فقد شغل منصب مدير الصبغات فى المصنع الملكى

بمدينة جوبلين. وعمل على تحديد أسلوب التبييض وضبطه بوساطة الكلور .. واكتسب بذلك شهرة واضحة والتحق بالأكاديمية الملكية للعلوم. وساهم فى: عدة أبحاث مع "لافوازييه". كما اكتشف الكلورات، واستعان بها فى صناعة المتفجرات. وكان عضوًا بالمعهد الوطنى، وأستاذًا بالمدرسة متعددة الفنون. واعتُبر مع صديقه "مونج" ضمن وكلاء الحكومة للبحث عن النواحى العلمية والفنية فى البلاد التى يغزوها جيش الجمهورية. وفى إيطاليا، تعرف إلى بونابرت.

لقد أبحر "برتوليه" على السفينة "أورينت". والتحق بمعهد مصر بقسم الفيزياء بتاريخ العشرين من أغسطس عام ١٧٩٨: حيث انتُخب نائب رئيس. ونال منصب الرئاسة فى شهر يونيو بالسنة التالية. ولقد أعد نظريته المتعلقة بالتجاذب الكيميائى، بعد قيامه باستكشاف بحيرات النطرون. ولقد ساهم أيضًا فى التعرف على منطقة السويس. واشترك فى غزوة سوريا.

غادر هذا الكيميائى مصر مع بونابرت فى الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٩؛ حيث رجع إلى منصبه بالمعهد الوطنى فى باريس. ولقد عُين رئيسًا للجنة التى كُلفت فى عام ١٨٠٢ بإعداد: "وصف مصر". ومن خلال متابعته لأبحاثه، أعلن عن القواعد التى تسمح بتوقع تفاعلات التحلل المزدوج ما بين، الأملاح والأحماض، والقاعدة.

وقد أقام معمله فى مدينة آركوى. وأسس مؤسسة "آركوى" مع الكثيرين من كبار العلماء. وعلى التوالى، شغل "برتوليه" منصب سيناتور (١٧٩٩)، ثم نبيل إمبراطورية (١٨٠٨)، وصاحب إقطاعية بفرنسا (١٨١٥). ولأنه قد أدلى بصوته، معلنًا عدم صلاحية نابليون، فقد سارع هذا الأخير إلى تنحيته من فريق قاعة الأنداد. ولكنه أُعيد ثانيةً بفضل لويس الثامن عشر. ومات فى مدينة آركوى، بتاريخ السادس من نوفمبر عام ١٨٢٢.

تاليان، چان لامبرت: سياسى

وُلد فى باريس فى الثالث والعشرين من يناير عام ١٧٦٧. وقد عمل كاتبًا لدى أحد النواب، ثم وكيل وناظر مطبعة. وأصبح عضوًا فى "نادى اليعقوبيين"، وسكرتيرًا ـ كاتبًا بالجمعية التأسيسية فى باريس. وبتوقيع الاتفاق انتُخب نائب قطاع "الواظ"، وهى منطقة داخل نطاق باريس. وكون "تاليان" حركة الرعب" فى بوردو. وكان عضوًا بلجنة الخلاص العام. ثم مندوبًا للجنة التآلف فى "بريتانى". وأمر بإطلاق الرصاص على أسرى كيبرون فى يونيو ١٧٩٥. واحتل مركزًا فى مجلس الخمسمائة.

وحقيقة أنه قد أبحر على سفينة حربية صغيرة تُستعمل لحماية القوافل البحرية. عُرفت باسم "لوفيف" (السريع)، فإنه لم يصل إلى الإسكندرية إلا فى الثالث عشر من أغسطس عام ١٧٩٨. وقطعًا، لم يمنعه ذلك من الالتحاق بمعهد مصر، بدءًا من جلساته الأولى.

لقد طُرد من مصر فى شهر نوفمبر عام ١٨٠٠، من جانب الجنرال "مينو". فوجد هذا الاصطلاحى نفسه أسيرًا لدى الإنجليز. ولم يتم الإفراج عنه إلا فى عام ١٨٠٢. وخلال ممارسته لمنصب القنصل فى "آليكانت"، أُصيب بالحمى الصفراء .. وفقد عينًا. ومات فى باريس، فى السادس عشر من نوفمبر عام ١٨٢٠؛ وكان مهددًا من جانب القانون لاعتباره أحد قتلة الملوك (١٨١٦). ولذلك، اضطُر أن يستقر رسميًا فى "بافيير".

چاكوتين، پيير: مهندس جغرافى

تاريخ ميلاده: الحادى عشر من أبريل عام ١٧٦٥، فى شامبينى ـ ليز ـ لانجر (مارن العليا).

رحل إلى مصر على الباخرة "لـوجينيرو"، بـصفته مـساعدًا لـ"تتستفويد" رئيس المهندسين الجغرافيين المدنيين. ثم خلـف هـذا الأخير الذى لقى مصرعه خلال حركة التمرد الأولى بالقاهرة، فـى نوفمبر عام ١٧٩٨. وقام "چاكوتان" برسم خريطة أنحـاء القـاهرة وتخومها، وجزيرة الروضة. وخلال معركة سوريا، توجـه، سـيرًا على قدميه حتى "عكا"، لكى يجهز خريطة تلك المنطقة. وتم انتخابه بمعهد مصر فى الثالث والعشرين من يناير عام ١٨٠٠ .. بعـد أن وضع تخطيطات موقعَى الجيزة ومنف.

ومن خلال صفحات "وصف مصر"، نجد أن چاكوتين هو كاتب التقرير الخاص بخريطة مصر، وبوصف وبيان مساحة مصر. ولقد وافاه الأجل فى باريس بتاريخ الرابع عشر من أبريل عام ١٨٢٩.

جولوا، بروسبير: مهندس



وُلد فى برينون سير أرمانسون (يون) بتاريخ الرابع والعشرين مـن يونيـو عـام ١٧٧٦. وحصل على الدبلوم من المدرسة العـسكرية فى أوكسير، ومن المدرسة متعددة الفنـون، وأيضًا من مدرسة الكبارى والطرق.

قام "جولوا" برحلته على ظهر الـسفينة "جيرييه". وفى القاهرة، كُلف بجمع الأشـياء والقطع المتناثرة فى قصور المماليك.

وبصفته عضوًا فى لجنة "چيرارد"، فقد قام بعمليات رفع بيانات الكثير من الأنصاب والمنشآت فى مصر العليا؛ بمـصاحبة صـديقه "ڤلييه دى تيراچ". ولقد ساعدته، فيما بعد الأعمال الهيدروليكية فـى الدلتا على نشر لوصف آثار تخوم وأطراف رشيد.

عند رجوعه إلى فرنسا، ساهم هذا المهندس مساهمة فعالة فى تحرير "وصف مصر"، ثم أصبح سكرتير اللجنة فى عام ١٨٠٧. بعدئذ، عاد إلى موقعه فى مركزه الأصلى سنة ١٨١٠. وبالتحاقه بأعمال الكبارى وأرصفة الشواطئ فى باريس، عُين رئيس مهندسين (١٨١٩)، وأُلحق على التوالى فى محافظتَىْ فارج، ولوار. وعمل على تعلية نُصُب چان داكر فى "دوم ريمتى" (١٨٢٠)؛ وأصبح مديرًا لقسم "السين" وكبارى باريس (١٨٣٠). ولم يتحقق لجولوا انتخابه لمركز شامبليون بأكاديمية الكتابات والآداب (١٨٣٢). وبعد تنصيبه رئيسًا لجمعية الأثريين فى فرنسا (١٨٣٥)، مات فى باريس فى الرابع والعشرين من يونيو عام ١٨٤٣.



جومار، إيدم ــ فرنسوا: مهندس جغرافى

وُلد فى فرساى بتاريخ السابع عشر من نوفمبر عام ١٧٧٧. وكان ضمن أول دفعة من المدرسة متعددة الفنون.

ورحل "جومار" إلى مصر على السفينة "لوجنيرو". وقد ساهم ببراعة فى وضع خريطة مصر. وقام بدراسة تفصيلية لمدينة القاهرة. وأولَى اهتمامه أيضًا إلى الآثار القديمة. وكان قد تمكن من الانضمام إلى إحدى لجان الاستكشاف بمصر العليا.

برجوعه إلى فرنسا، أُوكلت إليه بعثة إلى المانيا. ثم استُدعى إلى باريس فى عام ١٨٠٣، حيث أصبح أحد المساهمين فى "وصف مصر". وباعتباره سكرتيرَ ثم مندوبَ الحكومة بهذا المؤلَّف، أصبح فى إطارها بمثابة المحرك الرئيسى والكاتب الأكثر إنتاجًا. ثم تم انتخابه بأكاديمية الكتابات والآداب (١٨١٨)، وأمينًا للمكتبة الملكية

(١٨٢٢). وعندئذ، نشر كتابه المعنون بـ"جغرافية فرنسا"؛ من أجل الأطفال.

كما أصبح "جومار" المدير التربوى للبعثة المدرسية المصرية (١٨٢٦): وهكذا استحق لقب "بك". ولقد حظى أيضًا بلقب الرئيس الشرفى لمجلس إدارة شركة السويس العالمية. وكذلك رئيس شرفى للمعهد المصرى، الذى تأسس عام ١٨٥٩.

وأخيرًا، تُوفِّى فى باريس هذا المقدم لدى "المصريين"؛ فى الثالث والعشرين من سبتمبر عام ١٨٦٢، وقد ناهز الخامسة والثمانين من عمره.

چيرارد، پيير سيمون: مهندس

وُلد فى الرابع من نوفمبر عام ١٧٦٥ بـ"كاين Caen". وباعتباره مهندسًا بالطرق والكبارى، فقد سافر "چيرارد" على ظهر السفينة "كونكيرون". والتحق بمعهد مصر فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨، حيث أصبح نائب الرئيس فى السابع من مارس عام ١٨٠١. وخرج على رأس بعثة هيدروليكية فى مصر العليا. وخلالها، حدث نزاع بينه وبين المهندسين الشباب المصاحبين له. ثم كُلف بعد ذلك بمعرفة خط السير البادئ من القاهرة إلى السويس. وقبل الانسحاب الفرنسى، حل مكان "فورييه" فى وظيفته كمندوب فرنسى لدى الديوان.

ومن منطلق وظيفته كمدير القناة ومياه باريس (١٨٠٧)، فقد انتخب "چيرارد" بأكاديمية العلوم (١٨١٥). كما نشر فى "وصف مصر" تقريرًا متميزًا ومهمًا عن الزراعة، والتجارة والصناعة بمصر. وتُوفِّى فى أول ديسمبر عام ١٨٣٦، بباريس.

جيوفرى سان هيلير، إتيان: عالم حيوانات



تاريخ ميلاده: الخامس عشر من أبريل عام ١٧٧٢ فى مدينة إتامب وسُمى بـ "سان هيلير". ثم، فيما بعد، تلقَّى منحة من أجل الدراسة فى باريس. وبذا، فقد تابع محاضرات الأب "هوى" مخترع دراسة البلورة، و"دوبنتون" بالكوليج دى فرانس، و"فوكروى" بحديقة النباتات. وساعد الأب "هوى" هذا الكاهن المنشق .. على الهروب من سجنه. وهكذا، عمل هذا الأخير على إلحاقه بحديقة النباتات فى وظيفة: مساعد موضح. وعند بلوغه الحادية والعشرين من عمره، أُسند إلى "جيوفرى"، منبر، ضمن اثنى عشر أخرى (علم الحيوان الفقارى) بمتحف التاريخ الطبيعى، الذى كان قد تأسس لتوِّه وقتئذ. كما ساهم فى الكثير من المجلات؛ وارتبط بصداقة وثيقة مع "جورج كوفييه"؛ حيث رفض هذا الأخير السفر مع بونابرت.

أبحر "جيوفرى" على الباخرة "ألسست". وفى الحين ذاته، كان أخوه، يحمل رتبة ضابط بجيش الحملة. وقد التحق بمعهد مصر بتاريخ العشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. وفى نطاقه، قدم أربع عشرة مذكرة أو تقريرًا، بعد جمعه للكثير من الأسماك، والثعابين والأفاعى، والثدييات، ومومياوات الحيوانات. وبعودته لفرنسا، رجع عالم الحيوان هذا إلى مركزه فى المتحف. وتم انتخابه بأكاديمية العلوم (١٨٠٧). وباعتباره أستاذ كرسى علم الحيوان بكلية العلوم فى باريس (١٨٠٩)؛ أخذ يدافع عن وحدة التكوين العضوى: ولقد خصص لها أبحاثًا متميزة ومهمة. وتراءت أبحاثه مثيرة للجدل الفائق؛ وقد جُمعت فى كتابين بعنوان: *"الفلسفة التشريحية"* (١٨١٨-

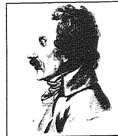
١٨٢٢). لقد اخترع "جيوفرى" نظرية "المتشابهات". كما اخترع علم الأجنَّة الممسوخة والمخلوقات الغريبة. وأصبح كفيفًا فى عام ١٨٤٠. وتُوفِّى فى باريس بتاريخ التاسع عشر من يونيو عام ١٨٤٤.

دوترتر، أندريه: رسام

وُلد فى التاسع من يونيو عام ١٧٥٣ بباريس. وكان طالبًا بمدرسة "كولييه" و"فيان". وتم تعيينه بمعهد مصر فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. وأنجز رسومًا للأنصاب والمنشآت. وأبدع صورًا شخصية للكثير من أعضاء الحملة.

فى أثر رجوعه إلى فرنسا، ساهم "دوترتر" بفاعلية فائقة فى "وصف مصر". ولقد عُين بروفيسور لرسم الصفحات الخاصة بنابليون. ثم فيما بعد، أستاذًا بمدرسة الفنون الزخرفية. وتُوفِّى فى باريس بشهر أبريل عام ١٨٤٢.

دولوميو، ديودات دى جراتيت دى: عالم بالمعادن



وُلد فى قصر دولوميو (إيزر) فى الثالث والعشرين من يونيو عام ١٧٥٠. وانضم إلى أمن مالطة. حيث نال رتبة قائد. ولكنه غادره بعد نزاع وتعارض. ويُعتبر "دولوميو" من كبار الرحالة. وكان أول من تخصص فى البراكين والهزات الأرضية. وقدم وصفًا لكربونات المغنسيوم التى سُميت بعد ذلك باسم "دولوميت". والتحق بالمعهد القومى فى عام ١٧٩٥.

اتجه هذا العالم بالمعادن على ظهر السفينة "تونان" متوجهًا إلى مصر. حيث وجد نفسه، رغمًا عنه، مكلفًا بالتفاوض فى أمر استسلام

مالطة. وانضم إلى معهد مصر بتاريخ الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. وعلى أرض وادى النيل، ضمن الكثير من الملاحظات، راجع النتائج الخاصة بدراسته عن تكوين الدلتا.

ثم وقع خلاف بينه وبين بونابرت، فسافر إلى فرنسا فى السابع من مارس عام ١٧٩٩. واعتُقل فى مدينة تارنت. وسُجن فى زنزانة طوال ٢١ شهرًا، بتحريض من رفقائه القدامى فى أمن مالطة. وأخيرًا، حصلت الطائفة العلمية على حريته. وبعد أن ناله الإنهاك والتهاوى، تُوفِّى فى الثامن والعشرين من نوفمبر عام ١٨٠١ فى شاتو توف (ساون ــ إى ــ لوار).

ديبوا ــ إيمى، چان مارى: مهندس

وُلد بتاريخ الثانى والعشرين من ديسمبر عام ١٧٩٩ فى بونت ــ دى بوفوازان (إيزير). كان طالبًا بالمدرسة متعددة الفنون.

رحل "ديبوا إيمى" على متن السفينة "تونانت". أجرى امتحان التخرج فى المدرسة متعددة الفنون فى القاهرة. والتحق بالطرق والكبارى. وقد ساهم فى أعمال تعبيد مضيق السويس وتسويته، وأيضًا بمهام لجنة "چيرارد" فى مصر العليا. وقدم الكثير من التقارير للمعهد؛ رغم أنه لم يكن عضوًا به.

وعند رجوعه إلى فرنسا، انضم هذا المهندس الشاب إلى إدارة الجمارك؛ وذلك، قبل أن يُنتخب مندوبًا لـ"إيل وفيلان" ؛ ثم لـ"إيزير". ولقد وُقعت حوالى ستة تقارير بوصف مصر بتوقيعه. ومات فى الخامس عشر من مارس عام ١٨٤٦ فى ميلان (إيزير).

ديزجينت، رينيه نيقولا دوفريش: طبيب

وُلد فى مدينة "آلنسون"، بتاريخ ٢٣ عام ١٧٦٢. وعائلته من القضاة

والمستشارين. وتلقى تعليمه فى "الكوليج سانت بارب" بباريس. وبميراثه الضخم، قام بزيارة إنجلترا وإيطاليا فى الفترة الواقعة ما بين ١٧٨٤-١٧٨٩؛ وتابع محاضرات عالم التشريح الكبير "ماسكانى" فى سيين. وأكمل رسالة الدكتوراه فى مونبلييه. وفى باريس، جاهد هذا الطبيب والتحق بالمستشفى المتنقل التابع لجيش البحر المتوسط (١٧٩٣)؛ حيث تعرف إلى بونابرت. ثم أصبح بروفيسور فى الـ"ڤال دى جراس" (١٧٩٦).

حظى "ديزجينت" بمنصب رئيس الأطباء بجيش المشرق؛ فسافر على متن الباخرة "أورينت" إلى مصر. والتحق بمعهد مصر فى العشرين من أغسطس عام ١٧٩٨، وقام بتنظيم الخدمة الصحية فى أرض وادى النيل. وخلال معركة سوريا، من خلال عمل مشهود، لقح نفسه بمرض الطاعون. بعدئذ، ثار خلاف بينه وبين بونابرت، بخصوص المصابين بالطاعون. ولقد انتُخب رئيسًا لمعهد مصر فى العاشر من نوفمبر عام ١٧٩٩.

عند رجوعه إلى فرنسا، ترقى "ديزجينت" على التوالى إلى منصب رئيس أطباء ڤال دى جراس ثم مفتش عام للخدمة الصحية بالجيوش، وأيضًا رئيس أطباء الجيش الأعظم (١٨٠٧). وشارك بكل من معارك "إيلاو"، وفريد لاند، وفاجرام. وأُنعم عليه بلقب بارون إمبراطورية (١٨١٠). وتم أسْره خلال معركة روسيا (١٨١٢) ولكن القيصر أمر بالإفراج عنه.

وبعد عدة سنوات من زوال الحظوة، التى أعقبت سقوط نابليون .. انتُخب "ديزجينت" بالأكاديمية الطبية فى عام ١٨٢٠؛ وكذلك عضوًا مشتركًا بأكاديمية العلوم فى عام ١٨٣٢. وفى العام ذاته، تولى منصب رئيس الأطباء بمستشفى "إنفاليد"، وعمدة الحى العاشر بباريس. وتُوفى فى باريس بتاريخ الثالث من فبراير عام ١٨٣٧.

دينون، دومينيك فيفان: فنان



وُلد فى "شالون سيرساون"، بتاريخ الرابع من يناير عام ١٧٤٧. عائلته من النبلاء الريفيين، فى منطقة برجونيا بفرنسا. وتعلم على يدَىْ مدرس ومُربٍّ خاص. وقد انطلق، وهو ما زال فى ميعة صباه إلى باريس. ولفت أنظار لويس الخامس عشر؛ الذى أنعم عليه وهو ما زال فى الخامسة والعشرين بلقب "نبيل سفارة" فى سان بطرسبرج. ولكنه، طُرد من موقعه هذا بعد سنتين. بعد ذلك، أقام فى "ستوكهلم"؛ ثم فى بعض المقاطعات السويسرية، حيث قدم رسمًا أثار إعجاب "ڤولتير". بعدئذ، عُين سكرتير سفارة؛ ثم مُفوَّض أعمال فى نابولى (١٧٧٦-١٧٨٥). وتم انتخابه بأكاديمية الرسم عام ١٧٨٧.

قام "دينون" بنشر قصته الخليعة: "بداية الغد" Point de lendemain (١٧٧٧). وأيضًا رواية "رحلة إلى صقلية" عام ١٧٨٨. وتم طرده من ڤينيسيا، ثم من فلورنسا أيضًا. وبعد ذلك، توجه هذا الفنان الدبلوماسى إلى باريس فى ديسمبر عام ١٧٩٣. ووضع نفسه تحت رعاية الرسام "ديفيد"؛ لكى يبدع عدة رسوم لأزياء ثورية. ونشر كتابًا بعنوان: "مؤلفات داعرة" وهو كتاب ملىء بالرسوم الإباحية.

ولقد أُلحق بلجنة العلوم والفنون بفضل علاقاته الوثيقة بجوزفين دى بوهارنيه. وهكذا، أبحر "دينون" على السفينة "جونون". وفى مصر، رافق الجنرال "مينو" إلى الدلتا. وأُدمج بمعهد مصر فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. ثم انضم إلى جيش "ديسيكس" فى حملة دامت عدة أشهر فى مصر العليا.

وعاد إلى فرنسا بصحبة بونابرت فى الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٩. ولا شك أن كتابه: "رحلة فى مصر السفلى

ومصر العليا" قد ترك أثرًا عميقًا. وفى العام ذاته، اختير مديرًا لعدة متاحف؛ من ضمنها متحف اللوفر المقبل. وأخذ يمد من صلاحياته، حتى توصل إلى منصب المسئول عن الفنون الجميلة خلال الإمبراطورية. وانطلق مع نابليون فى عدة معارك. وكذلك، أثرى المتاحف الفرنسية بقطع فنية أثرية تم الاستيلاء عليها من الخارج. ولكن، بعد معركة "ووترلو" اضطر أن يعيد معظم هذه الروائع. ثم اعتكف "دينون" فى عام ١٨١٥ ليعود إلى النقش والحفر؛ ويكرس نفسه لمجموعاته الخاصة. وتُوفِّى فى باريس فى السابع والعشرين من أبريل عام ١٨٢٥، وقد ناهز الثامنة والسبعين من عمره.

رافينو دوليل، آلير: عالم نباتات

وُلد فى فرساى بتاريخ الثالث والعشرين من يناير عام ١٧٧٨. خلال فترة صباه الغض كان يميل كثيرًا نحو علم النباتات. وبشكلٍ متوازٍ مع مدرسة الصحة فى باريس، كان يرتاد الحديقة القومية للنباتات.

لقد ضُم "رافينو دوليل" إلى لجنة العلوم والفنون فى نفس وقت التحاق أخيه الأكبر بها؛ ويُدعى "أدريان"؛ ويعمل مهندسًا بالطرق والكبارى. ولقد أبحر "رافينو" على الباخرة "ديان". والتحق بمعهد مصر بداية من الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. وفى حين كان يدرس النباتات المحلية ــ يُعزى إليه، ضمن الكثير غيره، تقرير عن نخيل الدوم ــ فإنه كان يبذل أقصى جهده، لكى يُدخل إلى أرض وادى النيل، بعض النباتات الأجنبية .. كمثل البطاطس.

بعد عودته إلى فرنسا بعامين، أُوكلت إليه مهمة تجارية وخاصة بعلم النباتات فى كارولينا الشمالية. ولقد بقى فى الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٨٠٧. وذلك، من أجل متابعة عدة دراسات طبية. وبعد ذلك اشترك فى "وصف مصر". وفى عام ١٨١٩، مُنح

رئاسة مركز "علم النباتات" بجامعة مونبلييه. وتُوفِّى فى هذه المدينة ذاتها، فى الخامس من يوليو عام ١٨٥٠.

رفائيل، دوم (أنطوان زاكور): رجل دين

وُلد بالقاهرة فى السابع من مارس عام ١٧٥٩. وهو رجل دين سورى الأصل. يتبع الشعائر الكاثوليكية. وأكمل تأهيله فى روما، حيث تقابل مع "مونج" والجنرال "ديسيكس".

التحق منذ الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨ بمعهد مصر. وفى نطاقه، اعتُبر العضو الشرفى الوحيد. وقد عينه "كليبر" مترجمًا أول بالديوان. وترجم إلى العربية الكُتَيِّب الصغير عن مرض الجُدَرىّ الذى كان قد كتبه رئيس الأطباء "ديزجينت". كما وضع قائمة عن قبائل وعشائر مصر وسوريا.

وصاحَب "دوم رفائيل" الفرنسيين عند انسحابهم. وفى باريس، أصبح بروفيسور بمدرسة اللغات الشرقية. وقد درَّس اللغة العربية لـ "چان فرنسوا شامبليون". كما وجهه نحو دراسة القبطية.

برجوعه إلى مصر، خلال عصر "محمد على"، شارك "دوم رفائيل" فى إعادة الأمور إلى نصابها فيما يتعلق بمطبعة بولاق. تُوفِّى فى القاهرة فى الثالث عشر من أكتوبر عام ١٨٣١.

روزير، فرنسوا ـــ ميشيل دى: مهندس

وُلد فى عام ١٧٧٦. إنه مهندس مناجم؛ وفى مصر، قام بالكثير من الرحلات، خاصة بمنطقة السويس، وسيناء. ولقد استتبع رحيل "دولوميو" مبكرًا، تعيينه: عالمًا رئيسيًا للمعادن فى إطار الحملة. وقام فى مختلف أنحاء وادى النيل بجمع عدد هائل من الحجارة المختلفة الأنواع والأنماط.

أنجز "روزير" عشر مساهمات فى "وصف مصر". ولكنه تُوفِّى فى عام ١٨٤٢، بعد أن حظى بلقب مفتش مقاطعة شرفى. ولكن بدون أن يحصل على التقدير العلمى الذى يستحقه.

ريبول، لويس: عالم آثار

من مواليد السابع والعشرين من أكتوبر عام ١٧٧٥ فى أورليان. أبحر "ريبول" إلى مصر على السفينة "فرانكلين"، إنه أول أمين مكتبة بمعهد مصر. وأصبح عضوًا فى هذا المعهد بتاريخ الرابع من يوليو عام ١٧٩٩.

غادر مصر فى ربيع عام ١٨٠٠. وعند عودته إلى فرنسا، نشر: "وصف مختصر لأنصاب ومنشآت مصر العليا". وفى عام ١٨٠٠ ذاته، عُين أمين مكتبة "القنصل الأول". تُوفِّى فى الثانى عشر من يوليو عام ١٨٢٣ فى لاشابيل ـ سان مسمين (لواريه).

ريجل، هنرى ـ چان: مؤلف موسيقى

ميلاده: فى الحادى عشر من مايو عام ١٧٧٢، فى باريس. وجميع أفراد عائلته من الموسيقيين. وانضم إلى المدرسة الملكية للغناء. وعمل بالتدريس فى الكونسرفتوار، منذ إنشائه، عام ١٧٩٥.

منذ التحاقه بمعهد مصر فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨، دأب "ريجل" على تقديم حفلات موسيقى البيانو فى مقر القائد الأعلى. وغادر مصر عام ١٧٩٩، بمصاحبة عضوين آخرين من اللجنة، هما: "كورانشيز"، و"مارتن". وعندما ألقى الإنجليز القبض على هؤلاء الفرنسيين، تم إرجاعهم ثانيةً إلى مصر. وقدم "ريجل" أوبرتين كوميديتين فى القاهرة فى يناير عام ١٨٠١.

بوّأه نابليون فى عام ١٨٠٥، مرتبة "بيانيست" الموسيقى الخاصة بالإمبراطور. وعمل لويس الثامن عشر فيما بعد على تثبيته وتدعيمه فى هذه الوظيفة. وذاعت شهرته إلى أوسع مدى. وضم بين تلامذته "سيزار فرانك". ومات فى آب ــ فيل، فى السادس عشر من ديسمبر عام ١٨٥٢.

ريدوتيه، هنرى ــ چوزيف: رسام تاريخ طبيعى

وُلد فى الخامس والعشرين من مايو عام ١٧٧٦، بسان هوبير (بلجيكا). وكان رسامًا للزهور فى متحف التاريخ الطبيعى بباريس. وكذلك الأمر بالنسبة لأخيه "بيير ــ چوزيف".

أبحر إلى مصر على السفينة "ديان". وضُم، منذ الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨ إلى معهد مصر، بمساندة من "جيوفرى سان هيلير". وهناك، ملأ مَحَافِظ لوحاته برسوم بألوان مائية. كما عمل استكشاف مصر العليا بمصاحبة لجنة "فورييه"، على المزيد من الإثراء لمجموعته.

وإليه يرجع الفضل فى إبداع الكثير من لوحات "وصف مصر". ومات فى باريس فى الثانى عشر من يناير عام ١٨٥٢، دون أن يصل إلى شهرة وذيوع صيت أخيه .. الذى لُقب بـ"رفائيل الزهور".

ساڤينى، چيل سيزار دى: عالم حيوان

وُلد فى الخامس من أبريل عام ١٧٧٧، فى بروڤانس. وكان تلميذًا لـ"برتوليه" و"فوركروى" بمدرسة الصحة.

أبحر "ساڤينى" على الباخرة "ديبوا". ودخل معهد مصر بتاريخ الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. وأثناء إقامته، جمع مجموعة ضخمة شخصية من الحشرات خاصة.

وبرجوعه إلى فرنسا، نشر عالم الحيوان هذا كتابًا عن: "التاريخ الطبيعى والميثولوجى لطائر الإبيس" (١٨٠٥)؛ وأيضًا: "مذكرات عن الحيوانات اللا فقارية" (١٨١٦). ثم شب نزاع بينه وبين "جيوفرى سان هيلير"، بخصوص: "وصف مصر". ولمرض عينيه، اضطُر أن يلجأ لعالم طبيعيات شاب، يُدعى "ڤيكتور أودوان"، من أجل تحرير التفسيرات المتعلقة بلوحات الحيوانات اللا فقارية. وتُوفِّى فى مدينة رجاللى (سين ــ إيه ــ واز) فى الخامس من أكتوبر عام ١٨٥١.

شابرول دى فولفى، جيلبرت دى: مهندس

وُلد فى الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٧٧٣، فى "ريوم". حاصل على دبلوم المدرسة متعددة الفنون، والطرق والكبارى.

وقد سافر شابرون دى فولفى على السفينة "أكيلون". وفى مصر، ساهم، خاصة فى أعمال قناة الإسكندرية وعملية تسوية خليج السويس وتعبيده.

وعند رجوعه إلى فرنسا، عُين مساعدًا لوالى بونتيفى، ثم حاكمًا لمنتنوت، ثم محافظًا لباريس (١٨١٢). ويرجع إليه الفضل فى إصلاح ميناء سافون؛ له أربعة أبحاث ــ منها ثلاثة بالتشارك ــ فى "وصف مصر". وتُوفِّى فى باريس فى الثلاثين من أبريل عام ١٨٤٣.

شامبى، چاك پيير: كيميائى

وُلد فى الثامن من يونيو علم ١٧٤٤ بسانت مالو. خلف "لافوازييه" فى منصبه كمدير عام لإدارة البارود والمفرقعات.

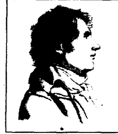
سافر شامبى إلى مصر على متن السفينة "سبارتيات"، بمصاحبة ابنه "چان نيقولا": كيميائى أيضًا. والتحق بمعهد مصر بتاريخ الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨؛ وتولى إدارة مصانع المتفجرات. وكان الجنرال "مينو" يقدره تقديرًا خاصًا، فعينه عضوًا بمجلسه الخاص. ثم انتُخب "شامبى" رئيسًا لمعهد مصر فى السابع من مارس عام ١٨٠١، قبل انسحاب الفرنسيين من القاهرة ببضعة أسابيع. وقد فتك مرض الطاعون بحياة ابنه؛ فى نفس ذاك الحين. ومات فى عام ١٨١٦.

فانتور دى بارادى، چان ـ ميشيل: مستشرق

وُلد فى مارسيليا فى الثامن والعشرين من مايو عام ١٧٣٩؛ بعائلة من الدبلوماسيين والعسكريين. وفى باريس، تابع المحاضرات بالكوليچ لويس لوجراند ومدرسة اللغات. وانتظم فى دراسة اللغة التركية فى إسطنبول. ثم مارس عدة مهام فى سوريا، ومصر، ومراكش، وتونس، والجزائر. ثم عُين سكرتيرًا ـ مترجمًا بسفارة فرنسا فى إسطنبول (١٧٩٣). بعد ذلك، عاد "فانتور دى بارادى" إلى باريس، لكى يرأس مركز اللغة التركية بمدرسة اللغات الشرقية (١٧٩٧).

إنه المترجم الأول بجيش المشرق. وهكذا، أبحر على الباخرة أورينت مع بونابرت. حيث كان يساعد هذا الأخير فى تحرير نداءاته وخُطبه إلى المصريين؛ وبصفة عامة، فى أن يضع فى نصابها .. سياسته الإسلامية. وأصبح "فانتور دى بارادى" عضوًا بمعهد مصر، بداية من الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. ومات متأثرًا بمرض الدوسنتاريا، خلال حصار "عكا" فى السادس عشر من مايو عام ١٧٩٩.

فورييه، جوزيف: عالم رياضيات



تاريخ ميلاده: الحادى والعشرون من مارس عام ١٧٦٨. من أسرة متوسطة الحال. وأصبح يتيمًا عندما ناهز الثامنة من عمره. والتحق "فورييه" بالمدرسة العسكرية فى مدينته، التى كان يديرها بعض الرهبان البندكت. ولعدم استطاعته الالتحاق بفرق التجنيد الخاصة التى كانت مخصصة للنبلاء، انضم لوقت ما إلى مجال الرهبنة؛ ثم غادره عند اندلاع الثورة. وأصبح أستاذًا للرياضيات فى مدرسته السابقة. بعد ذلك، قدم فى عام ١٧٨٩ لأكاديمية العلوم أول بحث له عن حل المعادلات الرقمية. ولاعتباره مناصرًا سياسيًا للنظام السياسى اليعقوبى، تم القبض على عالم الرياضيات النابغة هذا، ثم أُفرج عنه. ولقد أدمجه "مونج" بالسلك التعليمى فى المدرسة متعددة الفنون، التى أُسست فى عام ١٧٩٥.

لاعتباره مجندًا بلجنة العلوم والفنون، فقد أبحر "فورييه" على ظهر السفينة "فرانكلين". وعُين سكرتيرًا دائمًا بمعهد مصر فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. وهناك، قدم الكثير من التقارير؛ كما رأس إحدى لجان الاستكشاف بمصر العليا. وضمن مهامه السياسية أو الإدارية المتعددة؛ تبوء مهمة المندوب الفرنسى فى "الديوان".

أصبح "فورييه" حاكمًا فى "إيزير" فى الفترة ما بين ١٨٠٢ و١٨١٥؛ وهكذا، قام بتعريف "چان فرنسوا شامبليون" بالكثيرين من القدامى فى مصر. وحرر المقدمة التاريخية بـ"وصف مصر". ولقد قادته أبحاثه فى ظاهرة انتشار الحرارة .. إلى اكتشاف "السلاسل المثلثاتية" التى وُقعت باسمه. وفى عام ١٨٢٢، نشر "النظرية التحليلية للحرارة" الذائعة الصيت. وبعد التحاقه بأكاديمية العلوم فى

عام ١٨١٧، تولى بها فى خلال خمس سنوات منـصب: الـسكرتير الدائم لأقسام الرياضيات والفيزياء. ولقد استقبلته الأكاديمية الفرنسية فى عام ١٨٢٧. وتُوفِّى بتاريخ السادس عشر من مايو عـام ١٨٣٠، فى باريس.

ڤلييه دى تيراج، إدوارد دى: مهندس

وُلد فى فرساى فى السادس والعشرين من أبريل عام ١٧٨٠. إنه ابن أمين أول بالمالية، استطاع أن ينجو من الموت أثناء عصر الإرهاب. والتحق بالمدرسة متعددة الفنون فى عام ١٧٩٦.

سافر "ڤلييه" إلى مصر على السفينة "فرانكلين" وقدم فى القاهرة امتحانات تخرُّجه فى المدرسة متعددة الفنـون. واختـار الكبـارى والطرق. وبصفته عـضوًا بلجنـة "چيـرارد" المكلفـة بالأعمـال الهيدروليكية، خصص هذا المهندس الشاب معظـم وقتـه، لدراسـة المواقع القديمة بمصر العليا؛ وبصحبته "بروسبير جولوا".

بالنسبة لـ"وصف مصر"، كتب تقريرًا عن العـصور القديمـة لخليج السويس؛ وكذلك سبع دراسات أخرى بمساعدة "جولوا". ولقـد أُلحق بهذا العمل فى عام ١٨١١، باعتباره عضوًا بلجنة النشر.

فى باريس، انشغل بأعمال شق شارع "لابيه"؛ وبإعـادة بنـاء الرصيف المقبل فى فلور Fleurs ؛ بالإضافة إلى عدة أعمـال بقنـاة سان دينيس. وتم استدعاؤه للخدمة فى الجيش كقائد كتيبة هندسى. ثم تولى منصب رئيس مهندسين (١٨١٩). وعلى التوالى، عُين "ڤلييه": مديرًا لإدارة العمال بباريس (١٨٢٦)؛ ثم مفتش مقاطعة (١٨٣٠) فى مارسيليا، وليون، وباريس؛ ومفتشًا عامًا (١٨٤٢). كما سـاهم فـى أعمال تعبيد وتسوية جديدة بخليج السويس. وأيضًا، وضع تـواريخ

الكُبارى والطرق. كما رأس هيئة الأثريين بفرنسا. ومات فى باريس فى التاسع عشر من أبريل عام ١٨٥٥.

فيلوتو، جيوم أندريه: مؤلف موسيقى

وُلد فى مدينة بيلليم (أورن)، عام ١٧٤٩. وأتم دراساته فى كــوليج "مانس". وكان موسيقيًا متجولاً. ثم أُلحق بفرقة الدراجون. وأخيــرًا، انضم للجيش. وخلال الثورة، تخلى عن ثوب الكاهن، وترك كورس نوتردام دى بارى .. لكى ينضم إلى كورس الأوبرا.

عندما رفض المغنى "لايز" السفر مع بونابرت، سرعان ما أخذ "فيلوتو" مكانه. وفى مــصر، درس تفــصيليًا الموســيقى العربيــة، والأخرى الشرقية. بالإضافة أيضًا إلى تلــك الخاصــة بالمــصريين القدماء. كما جمع مجموعة نادرة وثمينة من الآلات الموسيقية.

عند رجوعه إلى فرنسا، انسحب فتى الكورس السابق هذا فــى "تور". ولكنه، قدم مساهمة مهمة فى "وصف مــصر". كمــا نــشر دراستين نظريتين أخريين عن الموسيقى. ومات فــى "تــور" عــام ١٨٣٩.

كافاريللى دى فالجا، ماكسميليان دى: جنرال



وُلد فى الثالث عشر من فبراير عام ١٧٥٦، بقصر دى فالجا، بإقليم جارون ــ العليا. وبعد تخرُجه فى مدرسة الهندسة فــى "ميزييــر"، شغل رتبة قبطان فى جيش "الــراين". ولقــد رفض أن يقسم اليمــين للــسلطة الثوريــة. وبالتالى، تم سجنه طوال عدة أشهر. وعــاد

ثانيةً إلى الجيش فى أبريل عام ١٧٩٥. وتفوق بوضوح فى موقعة الراين. وفقد ساقه اليسرى فى المعركة. ثم أصبح جنرال فرقة فى ديسمبر عام ١٧٩٥. ونشر كتاباته عن التعليم العام. ووقتئذ، كلفه بونابرت بتنظيم وإعداد لجنة العلوم والفنون.

لقد سافر "كافاريللى" على متن السفينة "أورينت"؛ وصاحَب بونابرت عند نزوله إلى القاهرة. ولقد التحق بمعهد مصر فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. وباعتباره مسئولاً عن التحصينات العسكرية، فإن هذا الجنرال الذى كان يحظى بشعبية فائقة فى جيش المشرق، قد ساهم فى استكشاف خليج السويس؛ وكذلك فى غزوة سوريا. وقد أُصيب بجرح خلال عملية حصار "عكا". وبُترت ذراعه بدءًا من ساعده. ثم تُوفِّى، بعد ذلك بثلاثة أسابيع، فى السابع والعشرين من أبريل عام ١٧٩٩.

كوتيل، چان مارى: مهندس

رحل على السفينة "لوكونكيرون". وأصبح مساعدًا لـ"كونتيه" فى مختلف مهامه، بدءًا من الوصول إلى الإسكندرية. وسافر مرتين إلى مصر العليا. أولاً، معه جيش "جيسيكس"؛ وثانيًا، ضمن مأمورية "كوستاز". وبمصاحبة عالم المعادن "روزيير"، توجه إلى سيناء مع قافلة "تور". وهو يُعد من أكثر الأعضاء توقدًا وحماسًا بعملية التنقيب الأثرية الكبرى فى الجيزة، وسقارة ومنف، فى أوائل عام ١٨٠١.

ولقد ساهم "كوتيل" فى "وصف مصر" من خلال ثلاثة مجالات: أهرام الجيزة؛ وطبوغرافية شبه جزيرة سيناء، ثم عدة ملحوظات عن الأرصاد الجوية بالقاهرة. وتُوفِّى فى مدينة "أوتوى" بتاريخ العشرين من مارس عام ١٨٣٥.

كومستاز، لويس: مهندس

وُلد فى السابع عشر من مارس عام ١٧٦٧ فى شامبانى أون فالرومى (Ain). وقد عمل مديرًا للمؤتمرات بمدرسة المعلمين بباريس؛ وكذلك ممتحنًا بالمدرسة متعددة الفنون.

وسافر "كوستاز" على الباخرة "جيوم تل". والتحق بمعهد مصر بتاريخ الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. وأصبح مساعدًا لـ"فوربيه" فى السكرتارية. ولقد قدم الكثير من التقارير. كما نشر عدة مواضيع فى جريدة "أنباء مصر". ولقد أوكل إليه بونابرت مهمة إدارة إحدى اللجان المكلفة باستكشاف منطقة مصر العليا.

وبحصوله على الإذن بالعودة إلى فرنسا فى أوائل شهر فبراير عام ١٨٠١، قبل نزول الإنجليز بعدة أسابيع، بدأ عالم الرياضيات هذا فى فرنسا مهنة إدارية وعلمية فى آنٍ واحد. فقد تولى، على التوالى منصب رئيس المحامين (١٨٠٣)؛ وحاكم المانش (١٨٠٤–١٨٠٩)؛ ومستشار الدولة، ومدير عام للطرق والكبارى (١٨١٣). وقد أنعم عليه نابليون بلقب "بارون" فى عام ١٨٠٩. ثم أصبح رئيسًا للجمعية الجغرافية (١٨٢٩). وبعد سنتين، التحق بأكاديمية العلوم. وتُوفِّى فى "فونتنبلو" بتاريخ الخامس عشر من فبراير عام ١٨٤٢.

كونتيه، نيقولا چاك: قائد منطاد

وُلد فى "سان سنرى" (أورن) فى الرابع من أغسطس عام ١٧٥٥. منذ وقت مبكر جدًا، بيَّن "كونتيه" عن مواهب غير عادية. إنه أحد تلاميذ "جروتر". وعمل فى البداية رسامًا للوجوه. ثم أقام بعد ذلك مكانًا لأعمال الفيزياء فى باريس عام ١٧٨٥. وتفرغ، بعد الثورة لأوجه نشاط ميكانيكية وكيميائية. وأعد "كونتيه" مشروعًا لتحويل

الآلة الرافعة التى اخترعها "مارلى". كما اكتشف أسلوبًا لتبييض الأقمشة. وفى ربيع ١٧٩٤، اخترع "كونتيه" القلم ذا الرصاص الصناعى. وبذلك يستغنى عن هباء الرصاص الإنجليزى. كما ساهم فى إنشاء الكونسرفتوار القومى للفنون والمهن. وتولى رئاسة فيلق قائدى المناطيد فى "مندون". وفقد عينه اليسرى خلال إحدى تجارب الغاز.

لقد أبحر قائد سائقى المناطيد هذا على البارجة "فرانكلين"، وبالتالى، ساهم فى الدفاع عن الإسكندرية بعد كارثة "أبو قير". والتحق بمعهد مصر فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٨٠٠. إنه إنسان متوقد همة ونشاطًا. وأنشأ العديد من الورش فى القاهرة. وعمل على بناء طواحين هواء. وأعد أجهزة وأدوات متباينة. ولقد أطلق عددًا من المناطيد؛ وقاس أبعاد الهرم الأكبر بوساطة بارومتر من اختراعه. ولم يمنعه كل ذلك من دراسة ورسم مختلف المهن التى تُمارس فى مصر.

لارى، دومينيك چان: جراح

وُلد فى بوديان (البيرنييه العليا)، فى الثامن من يوليو عام ١٧٦٦. من عائلة متوسطة الحال. وبدأ وهو ما زال فى ميعة الصبا دراسات الطب، فى تولوز، ثم بباريس. وعُين مساعد جراح فى أمريكا. ثم جراحًا مساعدًا ــ ميجور بجيش الراين فى عام ١٧٩٢، حيث بيَّن عن سمات الثبات والابتكار. كما أدخل الكثير من التجديدات فيما يختص بعلاج الجرحى.

وقد تولى منصب رئيس الجراحين فى جيش المشرق. وكان "لارى" أول من استهل ممارسات جديدة فى مجال الجراحة. كما أعد نظامًا لنقل الجرحى فوق ظهور الجمال. وبين عن همة وفاعلية

خاصة خلال معركة سوريا. وفى القاهرة، فتح مجالاً لتدريس الجراحة. ثم انتُخب بمعهد مصر فى الرابع من يوليو عام ١٧٩٩.

ويُعتبر رئيس الأطباء هذا، آخر الأعضاء الذى غادر القاهرة، فى أكتوبر ١٨٠١. حيث رافق الجنرال "مينو"؛ وقد شفاه من مرض الطاعون على السفينة التى أقلّتهما إلى فرنسا. وبعد مرور سنتين، نشر كتابًا بعنوان: "سرد تاريخى عن حملة جيش المشرق فى مصر وسوريا". وبصفته رئيس الجراحين بالجيش الأكبر، فقد حظى بلقب "بارون" بعد معركة "واجرام". ولكنه وقع أسيرًا فى موقعة "ووترلو". ومن خلال كتبه العلمية فائقة العدد، كان يحق له أن يُنتخب فى عام ١٨٢٩ بأكاديمية العلوم. ومات فى مدينة ليون بتاريخ الخامس والعشرين من يوليو عام ١٨٤٢.

لانكريه، ميشيل ـ آنج: مهندس

وُلد فى باريس فى الخامس عشر من ديسمبر عام ١٧٧٤. وهو من أفراد الدفعة الأولى بالمدرسة متعددة الفنون. وسافر إلى مصر على السفينة "جيربيه". وهناك، كُلف على التوالى؛ بجمع الممتلكات التى تركها المماليك وراءهم؛ ثم استكشاف منطقة بلبيس، وتعميق قناة الإسكندرية. وقد انتُخب بمعهد مصر فى الرابع من يوليو عام ١٧٩٩؛ وتم ضمه إلى لجنة "فورييه" فى مصر العليا.

عند رجوعه إلى فرنسا، قدم هذا المهندس عدة إضافات إلى نظريات "مونج" عن الأسطح والانحناءات ذات التقوسات المزدوجة. وتولى إدارة نشر "وصف مصر" بعد وفاة "كونتيه" عام ١٨٠٥. وعلى صفحاتها نشر تقريرًا عن الإدارة فى عصر المماليك. وفاجأه الموت وهو فى قمة نشاطه وهمته، بباريس بتاريخ السابع عشر من ديسمبر عام ١٨٠٧.

لوبير، چاك مارى: مهندس

تاريخ ميلاده: الخامس والعشرون من أبريل عام ١٧٦٣، بباريس. وكان من تلامذة مدرسة بريين. ثم مدرسة الكبارى والطرق. وشارك فى الدفاع عن "دانكرك" فى عام ١٧٩٣. وبعد سنتين، عُين مفتشاً للدراسات بالمدرسة متعددة الفنون. وكذلك، رئيس مهندسين فى الطرق والكبارى.

كان لچاك مارى لوبير، أخوان عضوان بلجنة العلوم والفنون. وقد أبحر على السفينة "آكيلوه". والتحق بمعهد مصر فى الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. ورافق بونابرت إلى السويس. ثم أدار ثلاث حملات لتعبيد خليج السويس وتسويته، لغرض ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر.

من خلال كتابه المعنون بـ"تقرير للقنصل الأول" (١٨٠٣)، ثم عبر مساهمته فى "وصف مصر" رأى أنه فى الإمكان إنجاز قناة غير مباشرة، ذات أهوسة. حيث إنه قد اعتمد، فى فكرته هذه، بشكل مغلوط، على تباين واختلاف مستوى البحرين. وقد شغل منصب مفتش مقاطعة مساعد (١٨٠٥)؛ ثم مفتش فى باريس (١٨٢٢-١٨٣٠). وتُوفِّى بمدينة جرانفيل فى الخامس عشر من يونيو عام ١٨٤١.

لوبير، چان ـ بابتست: مهندس

وُلد فى باريس بأول ديسمبر عام ١٧٦١. وسافر إلى مصر على الباخرة "فرانكلين". وفى القاهرة، قام بترتيب وإعادة تنظيم قصر الألفى بك من أجل بونابرت. كما انتُخب بمعهد مصر بتاريخ أول ديسمبر عام ١٧٩٨. ولقد اشترك هذا المعمارى فى لجنة "كوستاز" إلى مصر العليا. وفى أوائل عام ١٨٠١، رأس مع المهندس "كوتيل"

التنقيبات فى الجيزة وسقارة. وبعد عدة أسابيع، رجع إلـــى فرنـــسا، بصحبة مجموعة من العلماء الباقين فى القاهرة.

خلال حكم "ألامبير"، عمل لوبير معماريًا فى "لامالميزون"، ثم فى سان كلود. وتُرجع العاصمة الفضل إليه فى إقامة عمود فانـــدوم (١٨٠٥)، وقاعدة تمثال هنرى الرابع فوق "البون ـــ نوف" (١٨٢١). وأسلم الروح بباريس بتاريخ السادس عشر من يوليو عام ١٨٤٤.

مارسيل، چان چوزيف: طبَّاع ومستشرق

مولده فى باريس عام ١٧٧٦. إنه ابن أخ قنصل عـــام فرنـــسا فـــى مصر. ودرس اللغات الشرقية. والتحق بالمطبعة القومية. وقد أُدمـــج بلجنة العلوم والفنون، بدلاً عن المستشرق الشهير "لانجليز" .. الـــذى رفض السفر إلى مصر.

على متن السفينة "أورينت"، قام "مارسيل" بطبع أول نداء باللغة العربية لبونابرت، موجهًا للمصريين. وبعد إدارته للمطبعة الـــشرقية والفرنسية بالإسكندرية، استقر بالقاهرة ملبيًا لطلب القائـــد الأعلـــى؛ وبها، كون "المطبعة القومية" التى تكفلت بطبع: "كورييـــه ديجيبـــت" (جريدة)؛ وأيضًا: "لا ديكاد إيجيبسيان". وقام هذا المستشرق الـــشاب بنشر عدة تراجم وأجرومية باللغة العربية. كما حرر أيضًا حـــروف الهجاء بالعربية، والتركية، والفارسية.

عند رجوع "مارســـيل" إلـــى فرنـــسا، تـــولى إدارة مطبعـــة الجمهورية، التى أصبحت فيما بعد: "المطبعة الإمبريال". وباعتبـــاره عضوًا باللجنة المكلفة بنشر "وصف مصر"، فقد ألحق بها، خاصـــة دراسة عن مقياس النيل بالروضة. ويُعتبر أيضًا أحد كُتَّاب التـــاريخ العلمى والعسكرى لحملة مصر، فى عشرة أجزاء. وخـــلال حملـــة سوريا، عام ١٨٣٠، نشر مارسيل قاموسًا فرنسيًا عربيًا عن اللغـــات

المحلية الأفريقية. وتُوفِّى فى باريس، فى الحادى عشر من مـــارس عام ١٨٥٤.

مالوس ديمترى، إتيين ــ لويس: ضابط فيزيائى

مولده فى باريس، فى الثالث والعشرين مـــن يونيـــو عـــام ١٧٧٥. واعتُبر من أكثر العناصر كفاءة بمدرسة الهندسة فى ميزيير. ولقـــد لفت انتباه "مونج"؛ وأصبح مرشد المدرسة متعددة الفنون.

فى مصر، ساهم مالوس فى معركة الأهرام. والتحق بالمعهـــد بداية من الثانى والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. وأُصيب بمرض الطاعون خلال معركة سوريا. ثم تماثل للشفاء. وخلال فترة نقاهته، فى دمياط، كتب بحثًا عن الضوء.

وتابع هذا الفيزيائى أعماله فى فرنسا، حيث اكتـــشف ظـــاهرة استقطاب الضوء. وانتُخب في معهد فرنسا بتاريخ الثالث عشر مـــن أغسطس عام ١٨١٠. ولكنه تُوفِّى فى باريس بعد حوالى ســـنتين أى فى الثالث والعشرين من فبراير عام ١٨١٢.



مونج، جاسبار: عالم رياضيات

وُلد فى "بون" بتاريخ العاشر من مـــايو عام ١٧٤٦. وهو ابـــن لأحـــد الباعـــة الجائلين. والتحق بمدسة الهندســـة فـــى ميزيير. حيث أصبح معيدًا، ثـــم أســـتاذ علم الرياضيات. ولقد قادته أبحاثه إلـــى كتابة الكثير من التقارير عـــن نظريـــة الأسطح؛ وأيضًا لأن يضع قواعد الهندســـة الوصـــفية. ثـــم التحـــق بالأكاديمية الملكية للعلوم فى عام ١٧٨٠. وبعد ثمانى سنوات، نـــشر

كتابه المعنون بـ:"بحث فى السكونية". وأصبح "مونج" وزيرًا للبحرية (أغسطس ١٧٩٢ـ أبريل ١٧٩٣)؛ حيث ساهم فى تأسيس المدرسة متعددة الفنون؛ والتحق بالمعهد القومى (١٧٩٥). وفى إيطاليا، حيث كان قد كُلف بأخذ بعض التحف الفنية، تعرف إلى بونابرت. وقد كلفه هذا الأخير، ومعه "برتوليه"، بأن يقدم لحكومة المديرين، التصديق على معاهدة "كامبو مورمبو".

بعد الاستيلاء على عدة مطابع فى الفاتيكان، لحساب حملة مصر، سافر عالم الرياضيات على السفينة "كوراجوز". ثم انضم إلى "الأورينت" عند أعالى مالطة. وصحب بونابرت أثناء نزوله إلى القاهرة. وهو يُعتبر أول رئيس لمعهد مصر الذى تأسس فى شهر أغسطس عام ١٧٩٨. ويتسم تقريره عن ظاهرة السراب خاصة بالتميز الفائق.

لقد رافق بونابرت إلى السويس وسوريا. ثم غادر مصر بصحبته، بتاريخ الثالث والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٩. وفى العام ذاته،، نشر فى فرنسا كتابه عن: الهندسة الوصفية. وكان عضوًا بمجلس الشيوخ، ومديرًا للمدرسة متعددة الفنون (١٨٠٢). وحظى بلقب "كونت دى بيلوز" ويتبين أن سقوط نابليون قد تسبب فى طرده من معهد مصر، ومن المدرسة متعددة الفنون. ومات فى باريس، بتاريخ الثامن والعشرين من يوليو عام ١٨١٨.

نكتوكس، هيبولت: عالم نباتات

من مواليد الثامن من مايو عام ١٧٥٩، بمدينة "أوتون" (ساون ــ إى ــ لوار). ومارس مهنته كعالم نباتات حيث أدخل شجرة الخبز (جاكا).

قام "تكتوكس" برحلته إلى مصر على السفينة "ديان". وفي القاهرة كون حديقة لتهجين النباتات. ثم أنتج أولى ثمار البطاطس في مصر. وخلال رحلة العلماء إلى مصر العليا، توجه إلى النوبة، للبحث عن "السَّنا" البرى في موقعه.

وبرجوعه إلى فرنسا، عمل رئيس بساتين في حدائق "فونتنبلو". ثم نشر، في عام ١٨٠٨، كتابًا بعنوان: "رحلة في مصر العليا فوق الشلالات"؛ حيث زينه بصور ورسوم الأخوين "ريدوتيه". ومات في مونتروج (السين) في التاسع من يونيو عام ١٨٣٦.

نوييه، نيقولا أوجست: فلكي

وُلد في بومبى (موت ـ إى ـ فوزيل) في الثلاثين من أبريل عام ١٧٤٠. ولقد ترك تنظيم الجيتو ليلتحق بمرصد باريس. وإليه يرجع الفضل في عملية حسابية خاصة بمدار إهليجيّ بأورانوس؛ وكذلك في تحديد خطوط طول وخطوط عرض المدن الفرنسية.

كان "نوييه" أحد المسافرين على الباخرة "آكيلون". وانضم إلى معهد مصر في الثاني والعشرين من أغسطس عام ١٧٩٨. وتعاون تعاونًا إيجابيًا في إعداد خريطة للبلد الذى تم غزوه. وقام بأخذ مقاييس الهرم الأكبر. وفي عشية يوم الانسحاب الفرنسي، عيَّنه "مينو" رئيسًا للجنة تقصِّى أحوال أملاك البلد وقيمتها.

وبرجوعه إلى فرنسا، عُين هذا الفلكي مهندسًا طبوغرافيًا في مكتب الحرب؛ وتولى مهمة إدارة العمليات الطبوغرافية بخارطة "الجبل الأبيض" الجغرافية. وتُوفِّى في شامبيرى، في الرابع والعشرين من أبريل عام ١٨١١.

تسلسل الأحداث

استعـــدادات

عام ١٧٩٧

٢٦ **أكتوبر**: نُصِّب بونابرت قائدًا أعلـــى للجـــيش المحـــارب ضـــد إنجلترا.

٢٥ **ديسمبر**: انتخاب بونابرت بالمعهـــد القـــومى (فـــصل العلـــوم، والرياضيات والفيزياء) بالمركز الخالى الذى كان يشغله "كارنوت".

عام ١٧٩٨

١٤ **فبراير**: أوصى "تالليراند" حكومة المديرين باحتلال مصر.

١-٥ **مارس**: حكومة المديرين تقرر سرًا إرسال حملة إلى مـــصر بقيادة بونابرت.

١٦ **مارس**: الـــتُمس مـــن وزارة الداخليـــة، أن تهيـــئ لبونـــابرت المهندسين، والفنانين، وغيرهم من المرؤوسين. بالإضافة أيضًا إلـــى مختلف الأدوات، التى يطلبها هذا الأخير.

١٢ **أبريل**: حكومة المديرين تقرر سرًا تكـــوين "جـــيش المـــشرق"؛ وتحدد أهداف الحملة إلى مصر.

حملة بونابرت

٩ مايو: وصول بونابرت إلى "طولون".

١٩ مايو: إبحار الأسطول من "طولون". حيث تلحق به فى مسيرتها كتيبة خفر حراسة من "جنوة"، وأجاكيا، وسيفيتافتشيا.

١١ يونيو: الاستيلاء على مالطة.

١٨ يونيو: الأسطول يغادر مالطة متجهًا إلى مصر.

٢٨ يونيو: الإعلان الرسمى، فوق السفينة، عن توجه الحملة إلى مصر.

٢ يوليو : نزول الجيش فى الإسكندرية.

٤ يوليو: نزول العلماء والفنانين، وغرق السفينة "باتريوت"؛ وعليها جزء من العتاد العلمى.

٧ يوليو: "مونج" و"برتوليه" يغادران الإسكندرية مع بونابرت لملاقاة الجيش فى مسيرته نحو القاهرة.

٨ يوليو: سفر عشرين عضوًا باللجنة إلى رشيد.

١٣ يوليو: أول معركة ضد المماليك، على ضفاف النيل قرب شبراخيت.

٢١ يوليو: هزيمة المماليك فى معركة الأهرام.

٢٤ يوليو: دخول بونابرت القاهرة.

٢٥ ــ ٢٧ **يوليو:** تأسيس مجلس من كبار موظفى الدولة (الديوان) بالقاهرة؛ وفى كل مديرية.

١ ــ٢ أغسطس: تدمير الإنجليز الأسطولَ الفرنسى فى "أبو قير".

٢٢ أغسطس: تأسيس "معهد مصر".

٢٣ أغسطس: أولى جلسات "المعهد".

٢٥ أغسطس: بداية معركة مصر العليا، بقيادة الجنرال "ديسيكس".

٢٩ أغسطس: صدور أول عدد من جريدة "كورييه ديجيبت".

٩ سبتمبر: تركيا تعلن الحرب على فرنسا.

٢٢ سبتمبر: إحياء رسمى فى القاهرة لعيد الجمهورية.

٢٤ سبتمبر: بمصاحبة العديد من العلماء، بونابرت يزور أهرام الجيزة.

١ أكتوبر: أول عدد من جريدة La Décade égyptienne .

٦ أكتوبر: مجلس تحكيم يرأسه "مونج" يمتحن طلبة المدرسة متعددة الفنون.

٧ أكتوبر: هزيمة المماليك أمام "ديسيكس" فى بنى سويف وعقد أول جلسة للديوان العام فى القاهرة، بحضور "مونج" و"برتوليه" المندوبين الفرنسيين.

٢١ــ٢٤ أكتوبر: حركة تمرد فى القاهرة.

٢٤ أكتوبر: هجوم بريطانى فاشل ضد قلعة "أبو قير".

نوفمــبر: سفر "فيفان دينون" إلى مصر العليا.

٣٠ نوفمبر: إطلاق أحد المناطيد فى أجواء القاهرة.

١٦ ديسمبر: انتخاب بونابرت رئيسًا لمعهد مصر، و"برتوليه" نائبًا للرئيس.

٢٥ ديسمبر ــ ٣ يناير: التنقيب فى خليج السويس من جانب بونابرت، بمصاحبة بعض العلماء.

عام ١٧٩٩

٥ **يناير:** معاهدة اتحاد عسكرى إنجليزى ــ تركى.

١٤ **يناير:** إطلاق منطاد فى سماء القاهرة.

٢٢ ــ ٢٧ **فبراير:** "فيفان دينون" يصل إلى أسوان مع فريق "ديسيكس".

١٠ **فبراير:** بداية معركة سوريا.

٢٠ **فبراير:** الاستيلاء على حصن العريش.

٢٤ **فبراير:** احتلال غزة.

٧ **مارس:** الاستيلاء على "يافا".

١٠ **مارس:** "دولوميو" يغادر مصر.

١٩ **مارس:** بعثة علمية برئاسة "چيرارد" تسافر إلى مصر العليا لبدء بعض الأعمال الهيدروچيولوچية.

٢٠ **مارس:** بداية حصار سان ــ چان ــ داكر.

١٦ **أبريل:** انتصار فرنسى بجبل تابور .

٢٧ **أبريل:** وفاة الجنرال "كافاريللى".

٢٠ **مايو:** رفع الحصار عن سان ــ چان ــ داكر.

٢٠ **مايو:** "جولوا" و"ڤلييه دى تيراج" فى دندرة.

١٤ **يونيو:** عودة بونابرت إلى القاهرة.

٢٩ **يونيو:** انتخاب "برتوليه" رئيسًا و"أندريوسى" نائب الرئيس لمعهد مصر.

٤ **يوليو:** حدث عارض بين بونابرت و"ديزجينت".

١٩ **يوليو:** اكتشاف حجر رشيد.

٢٥ يوليو: نزول قوات بحرية تركية يتم ردعها فى "أبو قير".

١٦ أغسطس: لجنتان علميتان، برئاسة "فورييه" و"كوستاز" تغادران القاهرة إلى مصر العليا.

٢٣ أغسطس: بونابرت يغادر القاهرة، تاركًا القيادة لـ"كليبر".

قيادة كليبر

٩ أكتوبر: وصول بونابرت إلى سان رفائيل.

٢٣ أكتوبر: بونابرت يقدم تقريرًا للمعهد عن الأعمال العلمية التى تحققت فى مصر.

١ نوفمبر: نزول قوات بحرية تركية يتم قمعها فى دمياط.

١٠ نوفمبر: انتخاب "كليبر" بمعهد مصر.

١٩ نوفمبر: كليبر يؤسس لجنة الاستعلامات عن أحوال مصر المعاصرة.

٢٢ نوفمبر: الإهابة بالعلماء والفنانين لجمع أعمالهم فى مؤلَّف مشترك.

١٣ ديسمبر: بونابرت يصبح قنصلاً أول.

١٥ــ١٨ ديسمبر: توجه بعثة علمية إلى الجيزة، وسقارة، ومنف.

عام ١٨٠٠

٢٤ يناير: معاهدة العريش، وإعادة بدء انتشار الجيش الفرنسى.

٤ فبراير: أربعون عالمًا يغادرون القاهرة إلى فرنسا عن طريق الإسكندرية.

١ مارس: كليبر يعلن إلغاء اتفاقية العريش.

٢٠ مارس: هزيمة الأتراك فى موقعة هليوبوليس.

٢٠-٢١ مارس: تمرد ثانٍ بالقاهرة.

٢٥ أبريل: الفرنسيون يحتلون القاهرة ثانيةً.

٢٧ أبريل: العلماء الذين أبحروا على السفينة "لوازو" يصلون إلى الإسكندرية.

١٤ يونيو: اغتيال كليبر بيد أحد السوريين.

قيادة مينو

١٧ يونيو: إعدام علنى لـ"سليمان الحلبى".

٣ سبتمبر: الإنجليز يحتلون مالطة.

عام ١٨٠١

٨ مارس: نزول ١٨ ألف جندى إنجليزى فى "أبو قير".

٢١ مارس: جيش "مينو" يلقى هزيمة على أيدى الإنجليز فى "كانوب".

٢٢ مارس: آخر جلسات معهد مصر.

١ أبريل: الإنجليز يدمرون جبهة "أبو قير".

٦ أبريل: معظم العلماء يغادرون القاهرة ويتوجهون إلى الإسكندرية.

٩ يونيو: آخر أعداد جريدة "كورييه ديجيبت".

٢٧ يونيو: استسلام الجنرال "بليارد" بالقاهرة.

٢١ــ ٢٧ **يوليو**: إخفاق سفر السفينة القلعية "لوازو".

١٤ **يوليو**: الفرنسيون يجلون عن القاهرة.

أغسطس ــ سبتمبر: رجوع الفرنسيين إلـــى وطـــنهم فـــوق ســـفن إنجليزية.

بعد الرجوع إلى فرنسا

عام ١٨٠٢

نشر كتاب "فواياج" بقلم "فيفان دينون".

٦ **فبراير**: مرسوم بإقرار نشر: "وصف مصر" على نفقة الحكومـــة الفرنسية.

٢٠ **مارس**: وزير الداخلية يدعو جميع المعنيين لتقديم كل ما يرغبون نشره فى المؤلَّف.

عام ١٨٠٥

٧ **مايو**: تنصيب "محمد علىّ" حاكمًا لمصر.

عام ١٨١٠

التوزيع الأول لـــ "وصف مصر".

عام ١٨٢٠

٢٣ **يونيو**: لويس الثامن عشر يسمح لمكتبة بانكوك بإعـــادة طبـــع "وصف مصر".

عام ١٨٢٢

٢٧ سبتمبر: من خلال رسالته إلى م. داسيه، يعلن "شامبليون" عن اكتشاف رموز الحروف الهيروغليفية وفكها.

عام ١٨٢٦

"جومار" يستقبل فى باريس "رفاعة الطهطاوى" وبقية أعضاء البعثة المدرسية المصرية.

عام ١٨٢٧

١٥ ديسمبر: شارل العاشر يفتتح المتحف المصرى باللوفر.

عام ١٨٣٠

فبراير: آخر إصدار لـ"وصف مصر".

عام ١٨٣٦

٢٥ أكتوبر: نقل مسلة من الأقصر إلى باريس وإقامتها فى ميدان الكونكورد.

عام ١٨٥٤

١٥ فبراير: امتياز قناة السويس يُمنح لـ"فرديناند ديليسيبس".

عام ١٨٥٨

١ يونيو: منصب إدارة الآثار المصرية يُكلف به "أوجست مارييت".

عام ١٨٥٩

٦ مايو: أولى جلسات معهد مصر بالقاهرة.

عام ١٨٦٩

١٧ نوفمبر: افتتاح قناة السويس.

عام ١٩١٨

المعهد المصرى يستعيد اسم "معهد مصر".

سلسلة مصريات

• كتب صدرت

١ ـ كليوباترا
تأليف: مانفريد كلاوس

٢ ـ حكايات شعبية فرعونية
تأليف: جاستون ماسبيرو

٣ ـ معجم آلهة مصر القديمة
تأليف: ماريو توسى، كارلو ريو ردا

٤ ـ التاريخ المصور لمصر القديمة
تأليف: كارلو ريو ردا

٥ ـ الرحلة الكبرى للمسلة
تأليف: روبير سوليه

٦ ـ ماعت (فلسفة العدالة فى مصر القديمة)، تأليف: أنّا مانسينى

٧ ـ الإسكندرية (أعظم عواصم العالم القديم)، تأليف: مانفريد كلاوس

٨ ـ علماء بونابرت فى مصر
تأليف: روبير سوليه

• كتب تحت الطبع

١ ـ الطب عند الفراعنة
تأليف: كريستيانو داليو

٢ ـ الديانة فى مصر القديمة
تأليف: مجموعة من المؤلفين

٣ ـ أخناتون
تأليف: إيريك هورنونج

مصريات مصورة

• كتب صدرت

١- أربعون هرمًا من مصر وما يجاورهم
تأليف: بيتر سنودون

٢- هليوبوليس (مدينة الشمس تُولد من جديد)

تأليف: أجنيسكا دوبروفولسكا ــ ياروسلاف دوبروفولسكى

٣ــ الفن القبطى فى مصر ٢٠٠٠ عام من المسيحية

تأليف: مجموعة من المؤلفين

٤ــ الفن المصرى

تأليف: جان لوك بوفو ــ كريستيان زيجلر

• كتب تحت الطبع

١ــ ميراث مصر الأسطورى

تأليف: كريستيان ديروش نوبلكور

علماء بونابرت فى مصر

بالرغم من فشل حملة نابليون بونابرت على مصر عام ١٧٩٨ عسكريًا، فإنها نجحت علميًا. فلقد اصطحب نابليون معه مائة وستين عالمًا من المَجمَع العلمى الفرنسى.

وخلال السنوات الثلاث للحملة الفرنسية، فحص هؤلاء العلماء والخبراء كل مظاهر الحياة المصرية؛ وآثارها القديمة؛ وطبيعتها؛ وسكانها، وأصبحت تلك الدراسات والأبحاث المجمَّعة فى ٢٤ مجلدًا تُعرف فيما بعد بـ«وصف مصر». ولقد شارك فى إعداد هذه المجلدات ما يزيد على ثلاثمائة فنان وطابع.

روبير سوليه

كاتب وصحفى فرنسى من أصل مصرى، كتب العديد من الروايات التى تتحدث عن مصر، أو تجرى أحداثها فيها، مثل رواية «المملوكة». ومن أشهر كتبه أيضًا: «مصر ولع فرنسى»،و«حجر رشيد».. وغيرهما.



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠ جنيهاً


ISBN# 9789774216340
6 221149 019881